أعلام الفكر الاجتماعى

والأنثربولوجي الغربي المعاصر

تأليف

د. محمود أبو زيد



الجزء الأول

أعلام الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر

د. محمود أبو زيد

(الجزء الأول)



الكتاب : أعلام الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر

المؤلف : د. محمود أبو زيد

رقم الإيداع : ٩٨/١٤٧٩٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-215-372-6

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ١ ، ٣ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق
والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

محتويات الكتاب

تصدير

عندما فكرت منذ سنوات فى أن أكتب عن أعلام الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر، لم أكن أتصور حينذاك أن الإقدام على تأليف - أو حتى إعداد - عمل كهذا سوف يواجه بالعديد من الصعوبات النظرية والمنهجية التى يتعين القطع فيها برؤية واضحة. ولعل فى مقدمة هذه الصعوبات تلك الصعوبة المبدئية التى تتعلق بتحديد نطاق الكتاب وإطاره فى ضوء الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه.

فمن ناحية، ليس المقصود أن يكون هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة مجرد رصد أو تأريخ لهؤلاء الأعلام، بقدر ما هو محاولة لمناقشة ما يعتقد أنه أهم ما انطوت عليه كتاباتهم من مبادئ وأفكار ونظريات، وهذا بالذات أثار بدوره مشكلتين أساسيتين، الأولى تتعلق بتعيين من هم إذن هؤلاء الأعلام، وخاصة أن ميدان الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر زاخر بالمئات من الأسماء اللامعة التى لها تأثيرها سواء بشكل مباشر أم غير مباشر. والثانية تتعلق بمفهوم «المعاصرة» نفسه والفترة الزمنية التى يمكن القول بأن هذه الأسماء تندرج تحتها.

وفى تصورى أن التحديد الواضح للمشكلة الثانية كان لازما لحل المشكلة الأولى. وبناء عليه فقد آثرت أن ينسحب مفهوم المعاصرة على النصف الثانى من القرن العشرين، وبذا يكون الكتاب عن أولئك الذين عرفتهم هذه الفترة الزمنية، وكثير منهم مازالوا أحياء حتى اليوم. وهذا معناه أننا لو عرضنا لبعض السابقين على هذه الفترة فلن يكون ذلك إلا فى أضيق الحدود وليس إلى ما وراء الأربعينات، ونزولا على الضرورة لأجل إبراز أبعاد الأثر والتأثير. وهى حالات فردية وقليلة جدا على أى الأحوال. وفى ظنى أن هذا التحديد هو الذى أتاح فرصة الاختيار ما

بين مئات الأسماء التى يستحيل أن يدعى أى كتاب أنه يضمها ويشتمل عليها جميعا. فالمبدأ إذن هو مبدأ انتقائى فى ضوء المعايير المتفق عليها التى تحدد مكانة المفكر وقيمته.

أما الصعوبة الثانية فقد تمثلت فى كيفية التناول الذى تتم من خلاله الكتابة عن هؤلاء. وهنا أيضا كان ثمة بضعة اختيارات. فالمعروف أن هناك مدخلين رئيسيين لهذا التناول: الأول وهو الأقدم، أن نبدأ بالشخصية ذاتها أو بالاسم نفسه أو ما يطلق عليه مدخل الشخصية أو الذات الدرامية Dramatis Personac، بمعنى أن يكون مناط التركيز هنا المفكرين والأعلام أنفسهم الذين تشكل كتاباتهم المادة الببليوجرافية للفكر الاجتماعى والأنثربولوجى المعاصر. أما المدخل الثانى فإنه لا يتجه إلى الإنسان ولكن إلى النسق أو النظام أو المدرسة أو الاتجاه الذى ينتمى إليه هذا المفكر أو ذاك. وهو ما يجرى التعبير عنه أحيانا بأنه يتجه إلى الصفة الذاتية الخاصة التى يتميز أو يعرف بها هذا النسق أو الاتجاه، فلا يكون المقصود هو إيفانز بريتشارد مثلا أو ماركس أو هيكل أو بواس أو جوليس إير، ولكن البنائية الوظيفية Structural Functionalism، والماركسية Marxism، والمثالية Idealism، والتطورية Evolutionism، والوضعية المنطقية Logical Positivism. وتكون الكتابة بذلك عن الأعلام هى بالدرجة الأولى كتابة فى تاريخ الأنساق الفكرية أو الاتجاهات والمدارس بوجه عام.

غير أن لكل من هذين المدخلين مثالبه الذاتية. فبالرغم من سهولة المدخل الأول فالواضح أنه لا يفيد كثيرا إذا ما أردنا التوغل إلى ما وراء الفكرة التى يقول بها المفكر، أقصد عند محاولة التعرف على القوى والعوامل التى حفلت بها وضعية الفكر العقلى فى الوقت الذى كتب فيه، ومن ثم يكون الأمر أقرب إلى السيرة الذاتية أو امتدادا للأفكار خارج الذات. أما بالنسبة إلى المدخل الثانى وهو أفضل من سابقه ولاشك فإنه ينطوى بدوره على نظرة أحادية يتم بها النظر إلى الأنساق على أنها منفصلة بعضها عن بعض، على الرغم من حقيقة أن ما تنطوى عليه من مبادئ وأفكار لابد سنجد مثلها أو نقيضها أو صدى لها بشكل أو بآخر فى أنساق واتجاهات أخرى؛ مما تتحتم معه النظرة الشمولية والمقارنة. ذلك بالإضافة إلى أنه

من التعسف (اقتطاع) هذا المفكر أو ذاك و(قولبته) فى داخل هذه المدرسة أو تلك. لأن الأغلب واقعيا أن تتمازج فى المفكر العديد من الاتجاهات إن لم يكن الانتماءات وربما برز أيضا فيها جميعا.

وأيا كان الأمر فقد حتم كل هذا أن نتجه إلى مدخل ثالث، حيث لا تكون البداية من الإنسان نفسه، أو من النسق، وإنما من الأفكار ذاتها التى تعتبر عناصر أولية فى النسق الفكرى لأى مفكر، ولكنها ليست بعيدة أبدا عن الإنسان باعتبارها نتاج عقله وثمره تفكيره. وبمعنى آخر تتحتم إذن ضرورة اعتبار المدخلين معا. أقصد الفكرة بمكوناتها والنسق ببنائه والمفكر بعقله، ولكن شريطة أن يتم هذا فى قلب السياق التاريخى والاجتماعى الذى ينتمى إليه. وأعتقد أنه بمثل هذا المدخل سوف تتحقق واحدة من أهم الغايات التى يسعى إليها هذا الكتاب، وهى الكشف عن مدى نجاح هؤلاء الأعلام لا فى إبراز الواقع الحقيقى لعصرهم فحسب، ولكن روح العصر كذلك.

ومع ذلك فإنه نظرا لأن الكتاب يشتمل على ٣٥٠ علما من كبار المشهود لهم فى تخصصاتهم النوعية المختلفة، فلا يجب أن ينتظر القارئ أن يتسع هذا الجزء الذى بين يديه للحديث عنهم كلهم، ومن هنا كانت الضرورة فى أن يجىء الكتاب فى ثلاثة أجزاء، يتناول هذا الجزء الأول منها (٦٦) علما على أن يستكمل الجزء الثانى والجزء الثالث الأعلام الباقين بعد أن تم ترتيبهم أبجديا بحسب الحروف اللاتينية لأسمائهم. وحتى نجنب القارئ بعض مشقة البحث، فقد ذيلنا الكتاب بملحق شامل للأعلام، بالإضافة إلى حرصنا على إحالته إلى أكبر عدد ممكن من المراجع والقراءات المقترحة التى نرجو أن تكتمل بها الفائدة المرجوة.

والله من وراء القصد ،،،

م . أبو زيد

مصر الجديدة

أكتوبر ١٩٩٨

A

١ - آدلـــر، مـــورتيـمـــر جـيـــروم
1 - ADLER, MORTIMER JEROME

يعـتـبـر مـورتيـمـر جـيـروم آدلر من أكـبـر رجـال التـربيـة والأخـلاق والتـعليم الأمـريكيـين الذين اشـتـهـروا بـاهـتـمـامـهم الفـائق بالشـبـاب، وبجـهـودهـم المميـزة لنشـر التعليم العـام وتطويره. ولقـد ولد آدلر فى الثـامن والعـشـرين من شـهـر ديسـمـبـر عـام ١٩٠٢ فى نيويورك، ونجحت كتاباته وآراؤه التى بدأت مبكرة فى أن تحقق له شهرة واسعة امتدت إلى مختلف أنحاء العالم الغربى، وبخاصة إبان الستينات والسبعينات.

ولقد بدأت حياته العملية فى وقت مبكر أيضا، إذ اضطر وهو طالب إلى أن يعمل خطاطا فى جريدة الصن Sun النيويوركية إلى جانب بعض الأعمال التحريرية التى كانت تستغرق كل وقته. ومع أنه نجح فى الالتحاق بجامعة كولومبيا Columbia التى نـال منهـا درجـتـه العلمـيـة الأولى، فـإنه لم يتـمكن من الحـصـول على دبلومـتـه بسـبب رفـضـه تلقى بعض مـواد التـربية الرياضـيـة. ولهـذا فلم يحـصـل على درجـة الدكتوراة إلا متأخرا فى عام ١٩٢٨.

على أية حـال، فـقـد شـغلت قـضـيـة التعليم جـانبـا كـبيـرا من فكر آدلر. فـمـا أن عين أسـتـاذا لفلسـفـة القـانون فى جـامـعـة شـيكاغو حـتى تزعم ومـعـه روبرت هـاتشـينز Hutchins عـدة حـمـلات واسـعـة تتبنى الدعـوة إلى التـعليم الحـر، وهـى الدعـوة التى أخـذ يعـقـد لـهـا النـدوات ويقـيم المناظرات ويجـرى المناقـشـات التى تعكس جـمـيـعـهـا قـراءاته الأسـاسـيـة الواسـعـة، وخـاصـة أنه درس على أيدى جـون آرسكين Arskine فـى إحـدى الدورات الخـاصة التى استـضـافـتـه لها جـامـعـة كولومـبيا، ووقف خـلالهـا على

أروع المؤلفات التى ترسى أسس الثقافة الحديثة، وتقيم أواصر الاتصال والتفاهم الإنسانى.

ولقد توطدت أواصر الصداقة بين آدلر وهاتشينز، كما ارتبط اسماهما معا عندما عكفا على تحرير واحدة من أهم السلاسل الثقافية والعلمية التى عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية، وهى السلسلة المعروفة باسم «الكتب العظيمة» Great Books والتى اشتملت على ٥٤ مجلدا صدرت عام ١٩٥٢ بعنوان «الكتب العظيمة فى العالم الغربى» Great Books of the Western World، كما خطط وأشرف على مجلدين آخرين يعتبران بمثابة فهرست ومرجع تفصيلى للأفكار الجوهرية الكبرى باسم Syntopicon.

فى عام ١٩٥٢ أصبح آدلر مديرا لمعهد البحث الفلسفى Institute for Philosophical Research وهو المعهد الذى اتخذ مقره فى أول الأمر فى سان فرانسيسكو San Francisco، ثم انتقل بعد ذلك إلى شيكاغو، حيث قام بالإعداد لكتابه «فكرة الحرية» The Idea of Freedom الذى ظهر فى جزءين فى الفترة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦١. أما كتبه ومؤلفاته الأخرى فقد تضمنت «كيف تقرأ كتابا» How to Read a Book وهو كتاب كان قد نشره فى ١٩٤٠ ثم عاد إلى طباعته فى ١٩٧٢، وأيضا «جدل الأخلاق» A Dialectic of Morals (١٩٤٤) و«المانيفستو الرأسمالى» The Capitalist Manifesto الذى أصدره بالاشتراك مع لويس كيلسو Kelso فى عام ١٩٥٨، و «الثورة فى التعليم» The Revolution in Education الذى صدر أيضابالاشتراك مع مليتون ماير Mayer (١٩٥٨)، ثم «أرسطو لكل إنسان» Aristotle For Everyone فى ١٩٧٨، و«كيف نفكر فى الله» How to think About God فى ١٩٨٠ و«ست أفكار عظيمة» Six Great Ideas فى ١٩٨١.

وليس من شك فى أن هذه الكتابات المنوعة كانت كفيلة كلها بتأكيد شهرة آدلر، ولكن ربما كان الأهم منه تلك المرحلة التى حرر فيها بالاشتراك أيضا مع هاتشينز لدائرة المعارف البريطانية (Encyclopaedia Britannica) المجلدات العشرة المعروفة باسم البوابة أو المدخل للكتب العظيمة Gate- Way to the Great Books فى

عام ١٩٦٣، والدليل السنوى منذ ١٩٦١ و«الأفكار العظيمة المعاصرة» The Great Ideas of to - day. كما حرر الحوليات السنوية الأمريكية Annals of America فى ٢٠ مجلدا، بما فى ذلك مجلدان تفسيريان وتوضيحيان. بالإضافة إلى «قضايا خطيرة فى الحياة الأمريكية» Great Issues in American Life الذى ظهر فى ١٩٦٨.

والواقع أن فترة الستينات تعتبر بوجه عام فترة ازدهار لأعماله الفلسفية على وجه الخصوص، فقد صدرت له تحت إشراف دائرة المعارف البريطانية بعض المحاضرات التى كان قد ألقاها فى جامعة شيكاغو والتى عاد بعد ذلك فجمعها ونشرها على شكل كتب ومؤلفات، ومن بينها «شروط الفلسفة» The Conditions of Philosophy (١٩٦٥) و«التغاير فى الإنسان وما يصنعه من اختلاف» The Difference of Man and the Difference It Makes فى ١٩٦٧و«أوقات حياتنا» The Times of our lives فى ١٩٧٠. وعلى العموم فقد هيأت هذه الكتابات لآدلر أن يصبح فى عام ١٩٦٩ مديرا لهيئة التخطيط والتصميم الخاصة بالطبعة الخامسة عشرة من دائرة المعارف البريطانية (١٩٧٤)، ولأن يصبح رئيسا لمجلس تحريرها من عام ١٩٧٧. وباعتباره المتحدث باسم إحدى الجماعات التى تكونت من عدد من التربويين المرموقين فقد استغرقه لشهور طويلة فيض من الدراسات والمناقشات التى أسفرت عن تقديمه «الخطوط العريضة لاقتراح تربوى: بيان تعليمى» The Paideia Proposal: An Educational Manifesto وكان ذلك فى عام ١٩٨٢.

فما الذى كان يهدف إليه آدلر من هذا البيان؟ الواقع أنه ضمنه آراءه وفلسفته التربوية ونظراته الاجتماعية التى تدعو إلى التخلص من نظم التعليم المعقدة التى تطبق فى مدارس الولايات المتحدة. فقد كان يعتقد اعتقادا جازما أن تقديم البرامج المدروسة التى يتم التخطيط لها بعناية لكل تلاميذ المدارس الأولية والثانوية من شأنه أن يوفر الخدمة التعليمية الممتازة القادرة على إثراء عقول التلاميذ وعلى بناء تفكيرهم، والقادرة أيضا على الوفاء باحتياجات أذكى الأفراد وأكثرهم قدرة على الإنجاز.

وبالرغم من أن هذا اللون من التفكير كان من شأنه أن يثير ثائرة المحافظين التقليديين، فقد نجحت آراؤه فى أن تفرض نفسها، وخاصة بعدما كشفت التجربة عن صدق ما ذهب إليه من أن التدريب الفنى والمهنى من المتوقع أن يكونا أكثر جدوى وفائدة إذا ما قدما للطلاب بعدما يكونون قد أكملوا مرحلة كاملة من التعليم الأساسى وزودوا بحصيلة كافية ومعقولة من الإنسانيات والفنون والعلوم واللغة.

ولقد اعترفت الأوساط العلمية والأكاديمية بفضل مورتيمر جيروم أدلر، فظهرت سيرته الذاتية فى عام ١٩٧٧ تحت عنوان «فيلسوف متعدد الجوانب: سيرة ذاتية عقلية» Philosopher ot Large: An Intellectual Autobiography. كما احتفلت جامعة كولومبيا بذكرى مرور ٦٠ عاما على حصوله على «البكالوريا» Baccalaureate منها، وكان ذلك فى مايو ١٩٨٣.

ويكفى أنه لا تكاد توجد اليوم شخصية مرموقة فى مجالات التربية والأخلاق والتعليم إلا وتأثرت بفكره وبآرائه على نحو أو آخر، الأمر الذى أصبح يجد طريقه إلى سياسات التعليم وإستراتيجيات التربية التى تأخذ بها الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات.

★ ★ ★

٢ -أدورنو، تيودور فيزنجروند
2 - ADORNO, THEODOR WIESENGRUND

على الرغم من أن كتابات تيودور فيزنجروند أدورنو تعتبر من أشد كتابات مفكرى القرن العشرين صعوبة وتعقيدا، فقد نجحت فى أن تترك أثرا واضحا فى الحياة الثقافية الأنجلوسكسونية، وبخاصة من خلال كتابات هربرت ماركيوزة Marcuse التى لفتت الأنظار إليه، وأدت إلى فيض من الترجمات لمؤلفاته وأعماله.

ولد أدورنو (وهو اسم مستعار أخذه عن أمه التى كانت نصف كورسيكية المولد) فى ١١ سبتمبر عام ١٩٠٣ فى فرانكفورت بألمانيا فى أسرة غنية نصف يهودية، وتوفى فى ٦ أغسطس عام ١٩٦٩ فى فيزب Visp بسويسرا. وقد كان لظروف نشأته الأولى ونوعية التعليم الذى تلقاه أثر كبير فى تكوينه العقلى والوجدانى، وفى بلورة اتجاهاته ومواقفه كناقد وفيلسوف يتمتع بمكانة مرموقة فى الاجتماع وعلم النفس وعلم اجتماع الموسيقى musicology، وإن كانت شهرته قد انبنت أساسا بسبب إسهاماته فى تطوير النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت Frankfurt School التى ساعدت كثيرا فى عملية الإحياء الثقافى بألمانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

كان لايزال طالبا بالمدرسة عندما انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين الناقد الصحفى سيجفريد كروزور Kracauer الذى كان يفجر بحسه الصحفى العديد من المشكلات والقضايا التى تتأرجح ما بين نقد العقل النظرى لكانط ومشكلات الاتصال الجماهيرى. وقد كان لهذه العلاقة أثرها فى تكوين أدورنو إذ اكتسب منه قدرته على تحديد المشكلات واستقصائها وقدرته على التحاور والمساجلة وهما ناحيتان ظلتا من أبرز سماته طوال حياته العلمية والعملية.

ولقد نال أدورنو درجته العلمية الأولى فى الفلسفة والموسيقى. وحصل على درجة الدكتوراه وهو فى سن الواحدة والعشرين (١٩٢٤) من جامعة فرانكفورت على أيدى الأستاذ هانز كورنيليوس Cornelius وهو واحد من أشهر دعاة الكانطية الجديدة، وذلك عن رسالته فى فينومينولوجيا هوسرل Husserl. وتوطدت علاقته بعد ذلك بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعى Frankfurt Institute of Social Research، وبخاصة بعدما أصبح صديقه ماكس هوركيمر Horkheimer مديرا للمعهد فى عام ١٩٣٠، وأتيحت له بذلك فرصة متابعة اهتماماته النظرية التى جعلت منه واحدا من أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت وأغزرهم إنتاجا. وإن كان من الطريف مع ذلك أنه لم ينس فى غضون انشغاله بالتحصيل العلمى شغفه الأصيل بالموسيقى التى ورث حبها عن أمه التى كانت مغنية سابقة للأوبرا. فما أن حصل على الدكتوراه حتى انتقل إلى فيينا حيث درس البيانو دراسة مركزة على أيدى الموسيقار النمساوى ألبان برج Berg. ولقد ظهرت آثار هذه الدراسة الفنية فى كتاباته المبكرة التى أكدت على التطور الفنى والجمالى كعنصر على غاية الأهمية بالنسبة لفهم عملية التطور التاريخى والبحث عن الحقيقة. ولكن يبقى بعد ذلك كله تأثره بجورج لوكاتش Lukacs الذى جاءه على وجه الخصوص من قراءته لمؤلفه «التاريخ والوعى الطبقى» History and Class Consciousness (١٩٢٣) الذى أمده ببعض التصورات المحورية التى كان لها أبعد الأثر فى نظرته للماركسية.

ولكن هناك من الناحية الثانية تلك الظروف العامة التى كانت ألمانيا تعيشها وقتذاك، والتى تدخلت فى تشكيل حياته بشكل ملحوظ. فبالرغم من أن أدورنو كان يتمتع بقدر كبير من الحرية فى الدخول إلى ألمانيا وزيارتها حتى أواخر عام ١٩٣٦، وهو ما يرجعه البعض إلى وقع اسمه الإيطالى المستعار، فإن حرمانه من التدريس فى فرانكفورت فى عام ١٩٣٣ جعله يسعى إلى الاستقرار فى أكسفورد. ومع أنه نجح فى عام ١٩٣٤ فى الهرب من اضطهاد النازى لليهود الألمان واستقر فى إنجلترا ودرس فى ميرتون كوليج Merton College (أكسفورد) لمدة ثلاثة أعوام، إلا أنه انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٩٣٨ حيث عمل ثلاثة أعوام فى

مكتب بول لازرسفلد Lazarsfeld لبحوث الاتصال التابع لجامعة برينستون. وهو عمل لم يطل به على أى الأحوال، ربما نتيجة لعدم تكيفه بما يفهمه الأمريكيون عادة من بحوث الاتصال، فالتحق بمعهد هوركيمر الذى أنشئ حديثا فى نيويورك. وبدأ بذلك مشاركته فى إصدار المجلة التى كان هوركيمر يشرف على تحريرها باللغة الإنجليزية باسم «دراسات فى الفلسفة والعلم الاجتماعي»، ولكن بعد أن ترك هوركيمر منصبه، انتقل أدورنو فى أواخر عام ١٩٤١ إلى كاليفورنيا التى كانت وقتذاك ملتقى لكثير من المثقفين المنفيين الألمان. وخلال الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٨ عمل مديرا لمشروع بحوث التمييز والتحامل العنصرى فى جامعة كاليفورنيا (باركلى). ولكنه عاد فى عام ١٩٥٠ إلى ألمانيا والتحق بهيئة التدريس بجامعة فرانكفورت (أصبح أستاذا لعلم الاجتماع فى ١٩٥٦)، وليشارك هوركيمر فى إعادة إنشاء وتنظيم معهد البحث الاجتماعى.

هذه الفترة التى قضاها أدورنو فى منفاه الاختيارى كان لها أثر كبير فى إنتاجه الفكرى. وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن رسالته للدكتوراه كانت عن فينومينولوجيا هوسرل. ويبدو أن تأثره بمؤلف هوسرل الأخير «أزمة العلم الأوربى والفينومينولوجيا الترانسندانتالية» The Crisis of European Science and Transcendental Phenomenology الذى صدر عام ١٩٣٦ أى قبل وفاة هوسرل نفسه بعامين كان بالغا، لأنه كان بالتأكيد وراء انشغاله لفترة طويلة مع هوركيمر فى إنجاز مشروعهما الضخم المشترك «جدل التنوير» Dialektik der Aufktarung الذى ظهر فى ١٩٤٧ (ترجم للإنجليزية فى ١٩٧٢). وهو كتاب ولئن كان يضرب بتحليله فى عمق الفلسفة اليونانية وينتقد البناء الاجتماعى الذى أفرز هذه الفلسفة، إلا أنه كان من وجهة نظر هوركيمر تحليلا نقديا لكثير من مواقف ماركس وآرائه، وبخاصة ما تعلق منها ببأورته للآثار التى تخلفها التكنولوجيا عندما تخضع المجتمع لسطوتها. وهو على أى الأحول نفس الاتجاه الذى اتخذه أيضا كتابه «فلسفة الموسيقى الحديثة» Philosophy of Modern Music (١٩٤٩).

فى الوقت نفسه أسهم أدورنو فى دراسات هوركيمر عن التحامل والتمييز العنصرى، فاشترك (مع آخرين) فى المجلد الخاص عن «الشخصية السلطوية» The Authoritarian Personality الذى ظهر فى عام ١٩٥٠ بعد عودته إلى فرانكفورت. وقد برزت فى هذا العمل اهتماماته بتحويل الاختلافات الكيفية فى الرأى والاتجاه إلى مقدار وعدد وكم، يمكن فى ضوئها قياس الاتجاه والرأى والسلوك بطريقة أكثر واقعية وموضوعية. ففى اعتقاده أن معظم الدراسات الكيفية التى أجريت لفهم سلوك الأفراد والجماعات قد فشلت بسبب عدم الانتباه إلى استحالة عزل الجماعة وقياس ديناميـاتها بهذا الشكل، لأن الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعات يختلفون فيما بينهم اختلافات بينة، تماما كاختلاف الجماعات ذاتها بعضها عن بعض. ولذلك فإن الدراسة الناجحة للجماعة لا يمكن أن تتم إلا من خلال التعرف على علاقاتها البنائية التى تظهر فى وحدة تتمتع بالاستمرارية كالعائلة أو المصنع وغيرهما من النظم. كما أن استخلاص نتائج الاختلافات الكيفية وتحويلها إلى نتائج كمية مما يسهل البرهنة على صدق بعض الفروض والنظريات أو دحضها وتفنيدها.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل إنتاج أدورنو العلمى، ولكن من الضرورى مع ذلك الإشارة إلى بعض كتاباته المتأخرة التى عكست ميوله الفنية المبكرة من ناحية، وتأثيرات جورج لوكاتش من ناحية ثانية. ففى عام ١٩٦٦ ظهر له كتاب «الجدل السالب» Negative Dialectics، كما ظهر بعد ذلك مؤلفه «نظرية علم الجمال» Asthetische Theorie الذى نشر بعد وفاته بعام فى عام ١٩٧٠. وبرغم أن الكتاب الأول يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أصعب كتبه وأشدها تعقيدا وإن كان أكثرها تماسكا وتكاملا فى البناء، فإن الشىء الهام هو أن كتاباته المتأخرة هى التى مثلت منطلقه الجديد لنقد الفلسفة الغربية، حيث أخذ أدورنو يركز على التحليل النقدى للحركات العقلية والثقافية التى انطلقت من منطلقات ماركسية وفرويدية. وناقش فى هذا مناقشة مستفيضة مفهوم «الشمولية» Totalitarianism وهى المناقشات التى أدت إلى إدانته للاتجاهات الشمولية جميعها.

★ ★ ★

ولقـد دأب البـعض على أن يطلق وصف «الولد الشـقى» L'énfant terrible علـى المفكر الفـرنسى جـاك دريدا Derrida. ولكن فى ألمانيـا كـان أدورنو هو ذلك الولد الشقى الذى طالما ضجت بمساجلاته ومشاغباته (الفكرية) الجمعية الاجتماعية الألمانية. ففى المؤتمر الذى عقدته الجمعية عام ١٩٦١ عن «الوضعية» Positivism، مضى أدورنو من خلال مناقشاته الساخنة مع كارل بوبر Popper، يهاجم كل أشكال الإمبريقية التى سادت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. ومع أن بوبر الذى يعتبر من كبار نقاد المذهب الوضعى كان يرى أن المعرفة قد تقدمت نتيجة لرفض النظريات المسلم بها والتى لا يمكن مقارنتها بالحقائق، وأنها (أى المعرفة) نجحت بذلك فى تقديم نظريات جديدة اعتقد أنها أقدر على فهم هذه الحقائق، فقد رفض أدورنو هذه «العقلانية الانتقادية» التى يأخذ بها بوبر، ووصفها بأنها لا تعدو أن تكون شكلاً آخر من الوضعية؛ لأن تضارب النظريات وتناقضها مع (الحقائق) إنما هو التعبير الضرورى للإصرار على موضوعية الحقائق الاجتماعية. وبهذا تكون الحقائق لا النظريات هى ما ينبغى أن توجه الانتقادات إليه. وهو موقف مثل حجر الزاوية فى المشروع الذى كان هوركيمر قد بدأه فى الثلاثينات لصياغة نظريته النقدية للمجتمع.

كذلك امتدت مناقشات أدورنو إلى الفرضيات الأساسية التى يقول بها بوبر بصدد العلوم الاجتماعية والوضعية الراهنة لعلم الاجتماع الألمانى. كما امتدت إلى طبيعة العلاقة بين النظرية والموضوع، وطبيعة التجربة فى العلوم الإمبريقية التحليلية. ولقد أعلن أدورنو صراحة أن هناك فى هذه الوضعية إشكالية من نوع معين، ففى الوقت الذى سعى علم الاجتماع فيه إلى انتزاع نفسه بعيدا عن الفلسفة حتى يستطيع ممارسة تصور العلم، وهو ما دعاه إلى أن يميز نفسه عن الأنساق العلمية الأخرى وثيقة الصلة به وبخاصة علم النفس والاقتصاد السياسى، فقد فشل علم الاجتماع فى أن تكون له منهجيته السليمة الخاصة به. ولكى يوضح أدورنو وجهة نظره انتقد بعنف التصورات المنهجية التى استند إليها بوبر، وأبرز فى ذلك أنه لتحديد هدف علم الاجتماع يلزم أن تكون هناك رؤية واضحة لثلاثة

مجالات، هى أولا: ما إذا كان دور علم الاجتماع هو مجرد اجترار وتكرار الحقيقة الاجتماعية أم أن مهمته إعادة صياغة هذه الحقيقة. أما المجال الثانى: فهو علاقة علم الاجتماع بالتاريخ والتفسير التاريخى، وهذه مسألة يلزم فيها تجاوز الرؤية الطبيعية لعلم الاجتماع الوضعي التي لا تعترف بأن هناك تحولا تاريخيا، على حين يوجه علم الاجتماع الجدلى البحث نحو المحتوى الموضوعى للأحداث الاجتماعية، مما ينطوى على إمكانية التدخل فى التطور التاريخى وتوجيهه. بينما يرتبط المجال الثالث: بإمكانية التعميم واتجاهاته.

إن المشكلة الأساسية بالنسبة إلى أدورنو إنما تتمثل فى المجتمع ذاته، ولذا فلا يمكن اعتبار الشواهد أو القرائن الإمبريقية أمورا نهائية تقوم عليها المعرفة. فالمجتمع من وجهة نظره ليس شيئا بسيطا أو أنه يخضع للقولبة وللأشكال الجامدة من المقولات والنماذج. ولكنه على العكس من ذلك له منطقه الخاص الذى ينبثق من طبيعة مكوناته. المجتمع ملىء بالمتناقضات، ومن ثم فإنه يحدد العاقل واللاعاقل والنظام واللانظام، ولابد أن يبدأ تحليل المجتمع من هذه المتناقضات ذاتها وصبها فى نظام معقول، أو إسباغ المعقولية عليها بتعبير أدق.

ولقد مات أدورنو أثناء الاضطرابات والأحداث الخطيرة التى وقعت فى عام ١٩٦٩. ولكن فى هذه الفترة بالذات كانت نظرية مدرسة فرانكفورت تطبع بصماتها على وجه الحياة العقلية والثقافية الأنجلوسكسونية بأكثر من شكل، وهى تدفع إلى إعادة النظر فى مختلف الأنساق العلمية وفى مقدمتها علم الاجتماع نفسه. وكذا السياسات التى تسير بمقتضاها المراكز والمؤسسات العلمية، وأيضا مواقف المجلات والدوريات العلمية واتجاهاتها. وربما قبل كل هذا فى ذلك الفهم المتنامى لحقيقة أن نظرية القيمة لكارل ماركس ليست مسألة اقتصاد، بقدر ما هى نقد لعلاقات الإنتاج فى المجتمع الرأسمالى.

● قراءات مقترحة ●

Works: Scientific Experiences of a European Scholar in America. in D. Fleming and B. Bailyn (eds), The Intellectual migration - Europe and America, 1930 - 60. Cambridge. 1969.

: Contemporary German Sociology, in Transactions of the Third World Congress of Sociology. V. L. I. 1959.

: Positivism Dispute in German Sociology, 1969.

● وانظر أيضا:

- Frish. David; The Frankfurt School: Critical Theory and Positivism, in J. Rex, Approaches to Sociology: An Introduction to major trends in British Sociology (eds), 1974.

: The Popper - Adorno Controversy: The Methodological Dispute in German Sociology. Philosophy of the Social Sciences. Vol .2. No. 2. 1972.

- Habermas, Jurgen: The Past as Future. Tran. and edited by Max Pensky.1994.
- Kruager. M: Sociology of Knowledge and Social Theory. 1969.
- Rose. Gillian: The Melancholy Science. 1978.

★ ★ ★

٣ - ألتوسير، لوى
3 - ALTHUSSER, LOUIS

يقف الفيلسوف الماركسى الفرنسى لوى ألتوسير فى مقدمة الفلاسفة والمفكرين الذين تصدوا فى النصف الثانى من القرن العشرين لمراجعة الماركسية. فهو واحد من جيل البنائيين الذين طبقوا البنائية فى مجالات تخصصاتهم المختلفة، ونجح هو فى تطبيق (بنائيته) لفهم الماركسية وتحليلها ربما بشكل لم يتهيأ حتى لكلود ليفى ستروس Lévi - Strauss الذى استولت الماركسية على جانب كبير من اهتماماته الفكرية، وهو ما دفع بواحد من كبار كتاب النظرية الاجتماعية المعاصرين هو أنتونى جيدنز Giddens إلى القول بأن كتابات ألتوسير تمثل رد فعل قوى لكل من التفسيرات التكنية (الاقتصادية) التى ساقها كارل ماركس من ناحية، والتفسيرات التاريخية من ناحية ثانية.

ولد لوى ألتوسير فى بيرماندريز Birmandries بالقرب من الجزائر العاصمة فى عام ١٩١٨. ودرس الفسلفة فى مدرسة المعلمين العليا بباريس Ecole Normale Supérieure. وفى شبابه المبكر كان شعلة من النشاط كعضو فى منظمات الشباب الكاثوليكية، ولكنه انضم بعد سنوات قليلة من الحرب العالمية الثانية إلى الحزب الشيوعى الفرنسى Parti Communiste Francais، وفى أواخر الستينات تقريبا أصبح نجما لامعا فى الحياة الفكرية الفرنسية بسبب مراجعاته للمادية التاريخية Histori- cal Materialism، وهى المراجعات التى يرى الكثيرون أنها السبب المباشر فيما أصبح يتمتع به من شهرة واسعة بين أوساط المثقفين اليساريين الفرنسيين، وبخاصة بعد ظهور كتابه «رأس المال لماركس والرأسمالية اليوم» Marx's Capital and Capitalism To- day (١٩٧٣) وهو كتاب حرره أنتونى كتلر Cutler ويضم مجموعة من المقالات

بأقلام عدد من قدامى الألتوسيريين حول ما بعد النظرية الاقتصادية الماركسية. وإن كان قد سبقت هذا الكتاب الذى يوصف بأنه يعكس خصائص الألتوسيرية Althusserianism بعض المؤلفات التى أسهمت فى ترسيخ شهرته كواحد من أعلى الأصوات التى انشغلت بمراجعة الفكر الماركسى. فقد ظهر له فى عام ١٩٦٥ كتابان هما «من أجل ماركس» Pour Marx و«قراءة رأس المال» Lire Le Capitale (ترجم الكتابان إلى الإنجليزية عام ١٩٦٩) وهما الكتابان اللذان نجحا على أى الأحوال فى جذب الأنظار إليه حيث سعى فيهما إلى تبرير مواقفه الفكرية وبخاصة فى ضوء تمييزه الأساسى بين العلوم Sciences والأيديولوجيات Ideologies.

ولا تعتبر محاولة ألتوسير هذه جديدة تماما، فقد سبق لبعض فلاسفة العلم الوضعيين من أمثال كارناب Carnap وكارل بوبر Popper القيام بمحاولات مشابهة، ولكن المهم هو أن محاولة ألتوسير فى عام ١٩٦٥ كانت تختلف من عدة جوانب وهى جوانب يصعب فهمها إلا من خلال مجموعة من العناصر المتشابكة التى تشكل المحاور الرئيسية لجماع تفكيره. فهناك - من ناحية - نظريته فى المعرفة وكيفية اكتسابها، ومن الناحية الثانية، فلسفته ونظرته للعالم أو النظرية أو على الأقل الفرضيات التى تتعلق بموضوعات دراسته ومجالات هذه الدراسة. وأخيرا المنهجية العامة التى يسير تفكيره بمقتضاها.

فى كتاب «من أجل ماركس» تظهر ملامح التحليل الألتوسيرى للماركسية أو ما يعرف بتحليله البنائى للماركسية. وقد ركز التوسير فى هذا الكتاب على إبراز ثلاثة موضوعات أساسية هى أولا: تصوراته التى قدمها للتحليل المادى التاريخى لأنماط الإنتاج. وثانيا: تفسيره الذاتى لماركس. وثالثا: نظريته فى المعرفة، وهى موضوعات ولئن كانت تتشابك بعضها مع البعض إلا أنها تعكس أهم ملمح فى تحليله البنائى وهو ما أطلق عليه صفة «اللاإنسانية» Anti Humanism بمعنى عدم الاهتمام بالمفهومات التى تتعلق بماهية الإنسان essence أو الطبيعة البشرية، حيث كانت وحدة التحليل هى التكوين Formation أو الكل الاجتماعى أكثر منه الفرد.

ولقد سعى ألتوسير منذ البداية إلى تطوير نظرية ضد إمبريقية -Anti

empiricist فى المعرفة. فانتقد مفهوم المعرفة كشىء تجريدى أو مجرد as abstraction، وذلك عندما افترضت الإمبريقية أن الشخص (العارف) يجرد ماهية موضوع حقيقى أو واقعى فقد أدى هذا - فى رأيه - إلى وجود مشكلة معرفية أساسية من الصعب حلها، على اعتبار أن المعرفة الممكنة هى معرفة محاطة (مطوقة) بكل ما يمكن أن يعزى إلى الموضوع ويدل عليه. ونتيجة لذلك فقد قدم ألتوسير تصورا بديلا للمعرفة باعتبارها «منتجا» as Production أو نتاجا لعملية إنتاج تماثل من حيث البناء الإنتاج الاقتصادى، وهو ما عبر عنه «بنظرية الممارسة النظرية» Theory of Theoritical Practice التى تصف كيف أن معرفة الشىء الواقعى هى أمر قد تم (إنتاجه) فى داخل النظرية عن طريق تطبيق الوسائل النظرية للإنتاج واستخدامها على مواد خام بذاتها.

ولقد حاول ألتوسير توضيح موقفه، فذهب إلى أن المعرفة توجد من خلال النشاط النظرى المتسق والمنظم أو ما أطلق عليه الممارسة النظرية، مثلها فى هذا كل أشكال الإنتاج الأخرى على اعتبار أن النشاط البشرى هو الخاصية المميزة للإنسان. ولكن فى داخل هذه الممارسة النظرية يميز ألتوسير بين الممارسة الأيديولوجية Ideological والممارسة العلمية النظرية Scientific practice التى تتكون مادتها الخام من التصورات والمفهومات والحقائق التى أكدتها من قبل الممارسة النظرية، وإن كانت تتصف بالشمول والعمومية. واعتقد بذلك أن مشكلة المعرفة عند الإمبريقيين قد تغيرت نظرا لأن العارف لا (يحبس) من ثم عملية المعرفة الألتوسيرية. ولقد عبر هو نفسه عن هذه العملية بأن الفكر يتكون من بناء يجمع ويقيم ويربط .. شكل الموضوع (المادة الخام) التى يعمل عليه، والوسائل النظرية المتاحة للإنتاج (نظريته ومنهجه ووسائله تجريبية كانت أو غير ذلك) والعلاقات التاريخية (نظرية وإيديولوجية واجتماعية) التى تنتج فيها.

وعلى أساس هذه الأبستمولوجية اللاإمبريقية Anti - empiricist Epistemology اعتقد ألتوسير أنه استطاع تقديم معيار جديد للكفاية العلمية، لأنه يلزم (كنتيجة طبيعية لنظرية الممارسة النظرية) وجود تكنيك جديد للقراءة هو ما أطلق عليه

«القراءة العلاماتية» Symptomatic Reading التى تكشف عن وسائل الإنتاج النظرية فى اتجاهات مختلفة. أما هذه الوسائل فهى عبارة عن أنساق مفهومات عبر عنها التوسير اصطلاحا بأنها أنساق مركبة وعويصة بذاتها. فالعلوم والأيديولوجيات وأشكال المعرفة الصحيحة والفاسدة أشكال منفصلة وتنتشر بدرجة أو بأخرى نتيجة لاختلاف الشكل التنظيمى الذى تتحدد به صعوبته الذاتية. وقد أمده هذا «الاختلاف» بمعيار (للعلمية) تمكن من تطبيقه فى تفنيد نظرية ماركس العلمية ودون أن تشغله كثيرا قضية نجاح أو فشل العلوم الطبيعية التى شغلت جانبا كبيرا من تفكير الفلاسفة الوضعيين.

وقد يكون من المفيد مادمنا بصدد هذه الإشكاليات المتعلقة بالمعرفة أن نعاود النظر فى بعض ما ذهب إليه كارل ماركس. فالنظرية الماركسية (المادية التاريخية) من المعروف أنها ربطت ربطا جوهريا بين ما يمكن وصفه بأنه نظرية إقليمية Regional للاقتصاد، وبين نظرية شاملة وعامة Global فى المجتمع أو التكوين الاجتماعى. فالاقتصاد بالنسبة للنظرية الماركسية يمثل مجال سيادة نمط من أنماط الإنتاج الذى تشكل تاريخيا من عدة عناصر ثابتة. على حين ذهب كل من إنجلز Engels وماوتسى تونج Mao Tse - Tung إلى أن البناء، أو التكوين الاجتماعى إنما يتكون من العديد من الممارسات (السياسية والإيديولوجية والنظرية والاقتصادية) التى تشكل فى مجموعها بناءً على غاية من التعقيد حتى ليستحيل النظر إليه من مستوى واحد.

ولقد سار ألتوسير فى الاتجاه نفسه الذى سار فيه ماوتسى تونج وذلك عندما أكد على مدى تعقد الحقيقة الكلية الشاملة وعلى عملية التغيير التى قد يخضع لها. فالتاريخ لا «يتحرك» نتيجة للتعارض البسيط بين المتناقضات أو لمجرد تدافعاتها.

ولاجدال فى أن الانساق النظرية التى تنطوى عليها النظريات الإقليمية والعالمية هى أنساق نموذجية على قدر من التعقيد. فقد أقامت النظرية الماركسية

فى الاقتصاد «علية» بنائية Structural Causality تخضع فيها الظواهر للحتمية التى تفرضها العلاقات البنائية ذاتها.

ومن الناحية الأخرى أيضا نجد أن النظرية الماركسية فى التركيب الاجتماعى تقيم تناقضا حتميا زائدا تتطور الظواهر بموجبه وفقا لشروط وظروف وجودها إلى كلٍّ مركب ومعقد. وقد سوغ هذا التعقيد لأن يذهب ألتوسير إلى أن ماديته النظرية هى ذاتها علم التاريخ، مما يعنى أن المادية التاريخية هى فى التحليل النهائى الأصيل التطبيق العملى لقوانين المادية الجدلية، حيث تصدق هذه القوانين على الطبيعة وحدها، كما هو الحال بالنسبة للمادية الجدلية (الفلسفية) ولكنها تصدق على المجتمع. فإذا كانت المادية الجدلية هى جدل الطبيعة، فإن المادية التاريخية هى جدل المجتمعات فى سياقات تاريخية، وهو تعقيد ارتباطى كان كافيا لأن يذهب ألتوسير إلى ما ذهب إليه من أن المادية التاريخية هى علم التاريخ بكل المقاييس.

وليس من شك فى أن هناك العديد من النظريات البرجوازية التى اختلفت -بصرف النظر عن منطلقاتها واتجاهاتها - فى نظرتها إلى الاقتصاد والمجتمع بل ونافست النظرية الماركسية، وهى تسعى لتأكيد موقفها والبرهنة على صحته. ومع ذلك فقد لاحظ ألتوسير أن كل النظريات البرجوازية عن المجتمع ذات نزعة تاريخية من حيث أنها افترضت مسبقا أن المجتمع يمكن اختزاله إلى مستوى واحد أساسى وضرورى، إضافة إلى أن كل النظريات الاقتصادية هى نظريات إنسانية من حيث إنها إنبعثت من فرض الإنسان الاقتصادى. ويحرص ألتوسير على تأكيد أن هذه النظريات ذات النزعة التاريخية والنزعة الإنسانية إنما تتسم جميعها بالبساطة والزيف، فقد شيدت النظريات البرجوازية فى المجتمع نوعا من العلية التعبيرية expressive على حين اختزلت ظواهر أية فترة تاريخية للماهية الذاتية أو الداخلية لهذه الفترة.

كذلك أقامت النظريات البرجوازية فى الاقتصاد نوعا من العلية الآلية أو الميكانيكية Mechanical على اعتبار أن الظواهر الاقتصادية ليست سوى أثر لذلك

الإنسان الاقتصادى Economic Man. ولكن نتيجة لهذا التبسيط الزائد فى الدقائق والتفاصيل فقد انتهى ألتوسير إلى مقولته النهائية التى عبر عنها بأن كل النظريات البرجوازية ما تعلق منها بالمجتمع أو بالاقتصاد إنما هى نظريات أيديولوجية بالدرجة الأولى.

لقد تطلبت المشروعية الألتوسيرية وجود اختلاف أساسى بين نظرية الممارسة النظرية والإمبريقية وأيضا وجود اختلاف بين المادية التاريخية وتفرعاتها أو مساراتها وتياراتها المتنافسة. وتكمن المشكلة فى أن كلا من هذه الاختلافات مما يصعب تأكيده أو مؤازرته.

ولكن نظرية الممارسة النظرية لم تستطع مع ذلك تجنب ما سبق لألتوسير أن انتقده فى الإمبريقية. فوفقا لأبستمولوجيا ألتوسير أن أثر المعرفة أنما يحدث (ينتج) داخل النظرية العلمية بواسطة الممارسة النظرية. فى الوقت الذى ينبغى فيه الانتباه إلى أن هذه المعرفة الحادثة (الناتجة) إنما تشير إلى واقع ملائم وتتصل به، وهو ما يفترض مسبقا أن هناك نوعا من الاستجابة الغامضة بين مقولات العقل (النظرى) وبناء الواقع والحقيقة.

وعند هذه النقطة يرى الكثيرون أن أبستمولوجيا ألتوسير تبدو أشبه بالكانطية القديمة Kantianism أو ما ذهب إليه سبينوزا Spinoza، لأن ألتوسير لم يلق بعيدا بالفاعل، وإنما غير فحسب من هويته عن طريق إحلاله الخبرة والتجربة الإمبريقية بالفعل النظرى، مما يعنى أن نظرية الممارسة النظرية لم تفعل أكثر من أنها أعادت مشكلة المعرفة ولكن بصياغة مغايرة.

ولقد وجهت العديد من الانتقادات لتشخيص ألتوسير للمادية الجدلية ومعالجاتها المتنافسة على أساس أنها غير مقنعة من أكثر من زاوية. فهو يشجع على انتقاد الأنساق الأيديولوجية مثل الفلسفة الهيجيلية Hegelian أو الاقتصاد السياسى التقليدى. وبذا يكون كل ما جاء قبل ماركس وقبل فرويد Freud مما يمكن دمغة بأنه إنسانى النزعة وتاريخى التوجه Historicist.

بل إن تقريظ ألتوسير (لعلمية) ماركس لم يكن بدوره أسعد حظا، فقد ألهب النقاش حول إنجازات ماركس وتطورها فى ضوء مصطلحات مقارنة جامدة. والواقع أنه لم يفعل بتحليله أكثر من أنه عارض ماركس الشاب الذى كان يتصف بالنزعة الإنسانية. أقصد ماركس كما بدا فى مؤلفه عام ١٨٤٤ عن المخطوطات الاقتصادية والفلسفية Economic and Philosophical Manuscripts، وكما بدا فى ماديته التاريخية القديمة التى تضمنها كتاب رأس المال. وحتى إذا لم يكن قد قبل بضرورة إعادة قراءة ماركس ومراجعة المادية التاريخية، فقد سلم منذ عام ١٩٦٧ بأن كتاباته الأولى متضمنة فى نفس الفلسفة التى ينتقدها.

فى كتابه «لينين والفلسفة» Lenin and Philosophy الذى كان فى الأصل مجموعة من المقالات التى ترجمت إلى الإنجليزية فى ١٩٧١، وأيضا فى كتابه «مقالات فى النقد الذاتى» Essays in Self Criticism استجاب ألتوسير لهذه الحقيقة وتخلى عن نظرية الممارسة النظرية، فنجده يقدم تعريفا آخر للفلسفة باعتبارها تداخلا مزدوجا فى الممارسة السياسية والممارسة النظرية. ومن هنا فإن فلسفة الماركسيين الماديين ليست أكثر علمية من الفلسفة المثالية. ولكنها تستطيع، بل ومن الواجب أن تستخدم لمساندة المادية التاريخية. وبذا تكون الفلسفة المادية عند التحليل النهائى هى ذاتها الصراع الطبقى فى مجال النظرية. وكأنما أبستمولوجية ألتوسير قد تحولت فى النهاية إلى نوع من الانتهازية الفكرية لتبرير الأسباب والغايات. وهكذا يمكن استخدام تراث الفلسفة الغربية الموجود حاليا لتحقيق كل ما هو خير وطيب (أى يسارى)، وهذه وضعية من الواضح أنها - بالرغم من أنها ترجع لما بعد عام ١٩٦٧ - لا تحل أيا من المشكلات التى أثارها فشل الاختلافات القديمة.

● قراءات مقترحة ●

Works: Politics and History (Various Essays), 1972.
: Positions (1964 - 1975), 1976.

● وانظر أيضا:

- Feuer, Lewis S.; Ideology and the Ideologists. 1975.
- Glucksmann, A ; "A Ventriloquist Structuralism" in New Left Review. No. 72. 1968.
- Mclennan, Gregor ; "Althusser's Theory of Ideology" in Working Papers in Cultural Studies. Vol. 10. 1977.
- Poulantzas, N.; Political Power and Social Classes. 1973.

★ ★ ★

٤ - ألتيزر، توماس
4 - ALTIZER, Thomas Jonathan Jackson

يمثل توماس جوناثان جاكسون ألتيزر، نموذجا متطرفا بين علماء اللاهوت الأمريكيين الذين شغلتهم مظاهر الأزمة الدينية فى المجتمع الحديث، أو ما اتفق على تسميته اصطلاحا (الموقف) الدينى المعاصر، وأخذوا من ثمة يتطلعون إلى عالم علمانى اعتبر من أكثر من زاوية صدمة لا للفكر الدينى التقليدى فحسب، ولكن لأشد المذاهب الدينية تحررا وعلى رأسها البروتستانتية الليبرالية، وبخاصة مع شيوع بعض المصطلحات الجديدة مثل «اللاهوت العلمانى» و«المسيحية العلمانية» وهى مصطلحات بلغ من غرابتها وتطرف أصحابها أنهم ذهبوا إلى ما أطلقوا عليه المسيحية الملحدة.

ولد ألتيزر عام ١٩٢٧ فى كامبريدج بولاية ماسوشوستس Massachusetts بالولايات المتحدة الأمريكية، وحقق شهرة واسعة كواحد من الفلاسفة الراديكاليين الذين ارتبطت أسماؤهم بحركة «موت الله» التى انتشرت فى الستينات والسبعينات على وجه الخصوص، واتخذت طابعا شعبيا فى أمريكا نتيجة انخراط، الإعلام فى المناقشات التى امتدت إلى رجل الشارع.

وبدون الرغبة فى الدخول فى التفاصيل الدقيقة، يرى ألتيزر أن الأزمة الدينية التى يعيشها الإنسان المعاصر هى أزمة عالمية، وهو يرد هذه الأزمة إلى إشكالية يعتقد أنها متأصلة فى مدى المعقولية التى تسبق أية محاولة للتنظير، بمعنى معقولية التعاريف والمفهومات والتطورات الدينية المختلفة للواقع الذى يعيشه الإنسان. أى تعقيل الواقع سواء أكان خارجيا أم داخليا.

ولقد اختلفت المواقف وتضاربت الآراء بصدد الموقف العام لهذه الحركة نظرا لما تنطوى عليه من مساس بالتصورات الدينية الراسخة. ومع ذلك فقد استطاع ألتيزر أن يعبر عن موقفه بكلمات واضحة مؤداها أنه قد أصبح من الضرورى أن يدرك الإنسان فى العصر الحديث أن «موت الله» (بالتعبير النيتشوى) هو حدث تاريخى Historical Event بمعنى أن هذا التصور (الله) لم تعد له الوظيفة التقليدية التى كانت له دائما، وأنه قد انتهى بالنسبة إلى الوجود المعاصر.

هذه الأفكار كان من الطبيعى أن تثير ثائرة رجال الدين والإنسان العادى على السواء. كما هاجمها كثير من المثقفين الذين رأوا فيها علامة على إفلاس الإنسان وإفلاس حضارته المعاصرة فى فهم العلاقة بينه وبين الكون ككل، وبينهما وبين القوى القائمة وراء الإنسان والكون معا. ومع ذلك فقد نجح ألتيزر فى الترويج لأفكاره التى كان ينشرها فى عدد من المجلات المتخصصة إلى جانب كتبه التى تجد - لوجه الغرابة - صدى قويًا سواء ممن يعارضونها أو يتفقون معها. وربما كان أفضل هذه الكتب هو الكتاب الذى نشره فى عام ١٩٦٣ بعنوان «ميرسو إلياد وديالكتيك المقدس» Mircea Eliade and the Dialectic of the Sacred، وأيضا «إنجيل الإلحاد المسيحى» The Gospil of Christian Atheism (١٩٦٦)، و«اللاهوت المتطرف وموت الله» Radical Theology and the Death of God الذى كتبه بالاشتراك مع وليام هاملتون، ونشر بدوره فى ١٩٦٦. وكذلك «الهبوط للجحيم» Descent into Hell (١٩٧٠)، و«تجسيدات الذات الإلهية» The Self Embodiment of God (١٩٧٧)، و«الحضور الكلى» Total Presence (١٩٨٠).

ونحن لا نستطيع هنا أن نناقش تفصيلا التطورات التى لحقت باللاهوت الغربى، وإن كان المؤكد أنه صادف الكثير من التحديات والتقلبات التى انصب أغلبها على المذهب البروتستانتى، أو ما يعرف على وجه التحديد بالبروتستانتية الليبرالية التى لقيت هجوما عنيفا منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى على أيدى كارل بارت Barth، ثم بعد ذلك خلال الأربعينات وبخاصة على أيدى رينولدنيبور Niebuhr.

أما إذا كان البعض قد رأى شيئا من البريق فى مثل هذه الحركات، فلا يمكن

أن يكون ذلك بسبب أنها قدمت للإنسان شيئا من الهدوء أو الطمأنينة القائمة على الاتساق (الهارمونى) الواجب توافره بين العقل والروح، ولكن لأن مثل هذه الأفكار إنما تمثل فى الحقيقة أقصر الطرق ليلقى الإنسان وراء ظهره بهمومه ومشكلاته والتخلى عن مسئولياته بالهرب منها.

وكما يرى الكثيرون فإن هذه الاتجاهات - وأفكار نيتشة المريضة من بينها - ليست سوى نوع من العدمية nihilism التى تحمل بين جنباتها عوامل هدمها. وربما كان فى مسيرة ألتيزر الأكاديمية ذاتها ما يكشف عن ذلك بوضوح. فقد نال درجته العلمية الأولى فى ١٩٤٨ وحصل على الماجستير فى ١٩٥١. وإذا كانت درجة الدكتوراه التى نالها فى عام ١٩٥٥ قد أتاحت له فرصة تدريس علم الأديان فى واباش كوليج (٥٤ - ١٩٥٦) وفى جامعة أمورى Emory بأتلانتا (١٩٥٦ - ١٩٨٨) فإن طريقه الأكاديمى لم يستمر فى الخط نفسه لأنه تحول بعد ذلك ليصبح أستاذا للغة الانجليزية فى جامعة ولاية نيويورك فى ستونى بروك. فهل يمكن اعتبار هذا التحول دليلا أو على الأقل مؤشرا على تهافت أفكار ألتيزر وتراجعها؟ ذلك هو التحدى الكبير الذى يتعين على العقل أن يواجهه. فالعقل وحده هو القادر بالفعل على أن يدرك - من ذات طبيعته وبنائه - بأنه لا غنى للإنسان عن الإيمان. طوق النجاة كما يقولون.

• قراءات مقترحة •

- Scharf, Betty R: The Sociological Study of Relgion . 1970.
- Yinger, J. M.; Religion, Society and the Individual . 1957.

★ ★ ★

٥ - آرنـــدت، حنة
5 - ARENDT, Hannah

هى واحدة من ذلك الجيل اليهودى الألمانى الذى فر من عسف النازية إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد ولدت فى هانوفر عام ١٩٠٦ وتوفيت فى مدينة نيويورك عام ١٩٧٥. وتعتبر واحدة من الفلاسفة وعلماء السياسة الذين اشتهروا بكتاباتهم النقدية المرتبطة بقضايا اليهود، علاوة على دراستها للاتجاهات ولنظم الحكم الشمولية، وهى كتابات أفلحت فى أن تترك أثرها فى أفكار كثير من المثقفين الأمريكيين.

تلقت حنة آرندت دراستها فى الفلسفة واللاهوت واللغة اليونانية فى جامعات ماربورج Marburg وفريبورج Freiburg وهايدلبرج Heidelberg بألمانيا حيث تتلمذت على أيدى كارل ياسبرز Jaspers ومارتن هايدجر Heidégger اللذين أثرا فيها بفكرهما الوجودى تأثيرا بالغا لم تذهب ملامحه طوال حياتها. ثم أكملت رسالتها للدكتوراه عام ١٩٢٨ وهى لم تزل فى الثانية والعشرين من عمرها، وكان موضوع رسالتها عن تصور سان أوجستين St. Augustine للحب.

ولقد قبض عليها (الجستابو) بعدما وصل النازيون إلى السلطة فى ألمانيا. ولكنها تمكنت - بعد الإفراج عنها - من الهرب إلى باريس فى عام ١٩٣٣، وعملت أخصائية اجتماعية فى بعض المنظمات الصهيونية التى تقوم بإرسال الأطفال واليتامى إلى فلسطين، على الرغم من ادعاءاتها بأنها كانت ترجو قيام دولة عربية يهودية. وفى عام ١٩٤٠ تزوجت أستاذا للفلسفة هو هنريش بلوخر Bluecher، ثم ذهبت فى العام نفسه إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومنحت الجنسية الأمريكية

ولكنها ظلت مع ذلك تعيش بصفة أساسية تقريبا بين جماعات اليهود المهاجرين فى نيويورك.

ومنذ أول إقامتها فى نيويورك أخذت آرندت تمارس نشاطها الفكرى الذى لم يكن بعيدا عن بعض الأهداف السياسية. فقد اضطلعت بمهنة الإشراف على البحوث والمؤتمرات الخاصة بالعلاقات اليهودية ما بين عامى ١٩٤٤ و١٩٤٦، كما ترأست تحرير مؤسسة شوكن Schocken للتأليف والنشر، وهى مؤسسة لها اهتمامات خاصة بإحياء الثقافة اليهودية وإعادة بنائها، وتخليص (اليهوديات) مما يعتقد أن النازيين قد أدخلوه عليها.

ويعتبر كتاب «أصول الحكم الشمولى» (١٩٥١) أول أعمالها الضخمة. وهو كتاب ربطت فيه بين تطور نظم الحكم الشمولية والاتجاهات المعادية للسامية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والسياسات الإمبريالية حيث أكدت أن تطورها كان نتيجة لعدم قدرة الدول القومية التقليدية على التكيف السليم، فى الوقت الذى نجحت فيه النظم السلطوية وهى تسعى وراء حيازة القوة السياسية فى صبغ البناء الاجتماعى بملامح التغيير والثورية، الأمر الذى يجعل التنبؤ باتجاهات السياسات المعاصرة مسألة على غاية من الصعوبة.

وبالرغم من أنه يصعب تحديد ما إذا كان اهتمام آرندت الأساسى هو النظرية السياسية والاجتماعية أو الفلسفة البحتة، فقد نجح هذا العمل فى تأكيد مكانتها كمفكرة سياسية لها رؤيتها وموقفها النظرى والمنهجى الواضحان. فقد أكدت آرندت فى هذا الكتاب على وجود عناصر متشابهة كثيرة بين النازية والستالينية. كما أكدت على أن هذه العناصر هى التى تخلق ذلك النمط الكلى من الحكومات التى تتبنى الاستخدام المنظم للقوة ولأساليب الرعب والقهر لفرض أيديولوجياتها التى تسعى إلى السيطرة والتغيير. وعلى أى الأحوال فقد فتح هذا العمل أبواب الشهرة أمامها، فدعيت لتحاضر فى أمهات الجامعات الأمريكية، كما التحقت ببعض الأعمال فى جامعة شيكاغو (١٩٦٣ - ١٩٦٧) وفى المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى New School for Social Research فى نيويورك.

ولكن مؤلفات آرندت التى جاءت بعد ذلك لم تكن فى معظمها أكثر من محاولة لتطوير بعض القضايا والمبادئ التى سبق لها أن أثارتها. ومازال هناك بعض النقاد الذين يرون أن مؤلفها الذى نشر فى ١٩٦٣ بعنوان «إيخمان فى أورشليم» Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil، هو أبرز مؤلفاتها التى امتزجت فيها الفلسفة بالسياسة. والكتاب باختصار عبارة عن دراسة حالة لما يمكن أن يحدث عندما تتفاقم الظروف ويتعرض أحد الشعوب للتشريد وعندما تصبح المقارنة شيئا عديم الجدوى بالتعبير البراجماتى.

ومع أن البعض قد اعترض على الصورة التى ساقتها آرندت لإيخمان وهى تغدق عليه الكثير من صفات الإنسان الرشيد حتى بدا وكأنه نموذج للإنسان المعاصر، فإنه يبلور قضيتها الأساسية التى تؤكد على ما اعتقدت أنه دور زعماء اليهود فى وجوب مساندة كل الجهود التى تدمغ اضطهاد النازى لليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وهى قضية أثارت الكثير من الخلافات، بل وهاجمها عدد متزايد من اليهود أنفسهم احتجاجا على ما ذهبت إليه من عدم وجود أية مقاومة جدية ومنظمة من جانب الجماعات والمنظمات اليهودية فى أوربا.

من بين أعمال حنة آرندت الأخرى التى نجحت فى جذب الأنظار كتاب «الظرف الإنسانى» The Human Condition (١٩٥٨)، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يعتبر مؤلفها الفلسفى الرئيسى بلا منازع، حيث استقصت مظاهر تدهور الحضارة والمثال اليونانيين اللذين يربطان التفكير بالفعل السياسى، وذهبت إلى أن ماهية الظرف الإنسانى إنما تتمثل فيما يقوم به الأفراد من «نشاط عام» لتحقيق الخير العام، وليس مجرد التأمل النظرى الذى يغرق الفلاسفة أنفسهم فيه، أو حتى تلك النظرة إلى الإنسان على أنه حيوان (عاقل) خاضع للضرورة. ومن هنا كان هجومها العنيف على الليبرالية الحديثة التى تعلى من شأن الخصوصية الفردية على العمل الجماهيرى. وإذا كان البعض قد نظر إلى آرندت على أنها نموذج لفكر أرسطى جديد، فإن هناك من يرى فى ذلك غير قليل من المجافاة للحقيقة، وأنها -على العكس من ذلك - حاولت البرهنة على أن نظرة أرسطو للفعل السياسى

كـانت نظـرة غـائيـة تـرتبط بـالأسـبـاب النهـائيـة، على حـين تنظر هى إلى الفـعل السياسى وإلى المناقشات والقرارات التى يتم التوصل إليها بحرية وتلقائية على أنها غايات فى ذاتها وينبغى تقديرها بصرف النظر عما يكون لها من نتائج.

★ ★ ★

وتعطى كتابات أرندت اللاحقة صورة متكاملة لاهتماماتها المتشعبة. ففى عام ١٩٥٨ أيضا صدر كتابها «راحيل فارنهاجن: حياة يهودية» Rahel Varnhagen: The Life of a Jewess وهو كتاب كانت قد كتبته فى أوائل الثلاثينات. كما صدر لها فى عام ١٩٦١ مجموعة مقالاتها الرئيسية بعنوان «بين الماضى والمستقبل» ثم بعد ذلك كتابها «فى الثورة» ١٩٦٣، وتناولت فيه بالنقد والتحليل الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية. كما صدر لها كتاب «رجال فى الأوقات العصيبة» Men in Dark Times (١٩٦٨)، و«فى العنف» On Violence (١٩٧٠)، ويتناول مفهوم القوة من خلال تصور لايخلو من طرافة وإثارة، ثم «أزمة الجمهورية» Crises of the Republic (١٩٧٢).

ولاشك فى أن شهرة حنة آرندت كانت قد تأكدت قبل وفاتها فى عام ١٩٧٥ بفترة طويلة. وكما قلت من قبل فلعلها لا تصنف أساسا ضمن الفلاسفة السياسيين، ولكنها كانت قادرة من منظورها الخاص على إصدار الأحكام على المجتمع والسياسة، وكان لها فى ذلك طريقتها الخاصة التى تنتقل بها بين مختلف الاهتمامات والموضوعات، بمعنى أنها تتحرك بسرعة من مناقشة أخطر المشكلات فى مباحث المعرفة والوجود مثلا إلى التعليق على بعض الأحداث الجارية والقضايا المعاصرة مثل قضية ووتر جيت أو حرب فيتنام وتصدر فيها من الأحكام ما كان سببا فى إثارة كثير من النقاش والانتقاد، إذ اعتبرت هذه الأحداث استجابات لدوافع ولعقلية عملية، وفى هذا ما فيه من اعتراف ضمنى ربما بمشروعيتها بالرغم من كل ما تنطوى عليه من أضرار وشرور.

ولكن هذه الطريقة كانت خليقة بأن توقعها فى كثير من المآخذ، خاصة وقد كانت تقفز من فوق أدق المشكلات اللغوية لتطلق التعميمات الواسعة والمتسرعة

فيما يتعلق بتاريخ الثقافة، وربما بدون أن تهتم الاهتمام الكافى بالحقائق أو بتحرى صدق الوقائع وصحتها. وربما كان ذلك هو ما دفع ألسير إيزاى برلين Berlin لأن يصف أعمالها الفلسفية بأنها نوع من التداعى الميتافيزيقى الحر. بل إن الكثيرين من الكتاب يرون أن كتاباتها المتأخرة كان يغلب عليها طابع القلق والتقلب، ويردون ذلك إلى أنها مالت فى السنوات الأخيرة إلى نظرية كانط فى الجمال وليس نظريته فى العقل العملى، الأمر الذى اعتبروه مناقضا لمواقفها الأولى ولاتجاهها الفكرى العام الذى ارتبطت به حتى أواخر الستينات. وقد يكون كل هذا صحيحا. كما قد يكون فيه الكثير من التجنى الذى قد تكشف عنه الأيام. ولكن المؤكد مع ذلك أن حنة آرندت كانت فى كل كتاباتها مفسرة وشارحة أكثر منها خالقة لأنساق أو نظريات فكرية محددة. وربما هنا بالذات تكمن قيمتها فهى تجبرنا على أن نفكر فى طبيعة العالم، وليس مجرد ما تثيره النظم من مشكلات.

• قراءات مقترحة •

Works: Between Past and Future, 1961.

• وانظر أيضا:

- Canovan, Margaret; The Political Thought of Hannah Arendt. 1974.
- Hill, A. Melvyn; Hannah Arendt: Recorvery of the Public World. 1979.

★ ★ ★

٦ - آرون، رايمـــونــد

6 - ARON, Raymond

يعتبر رايموند آرون أستاذ الاجتماع فى جامعة باريس، ومدير البحوث فى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا واحدا من ألمع الأسماء التى أسهمت منذ الحرب العالمية الثانية - ومعه جورج جيرفيتش Gurvitch وموريس دوفرجيه Duverger وكوفيليه Cuvillier - فى تقدم علم الاجتماع الفرنسى الذى يمكن تتبعه تاريخيا إلى تقاليد ديكارت Descartes، وبودان Bodin، وروسو Rousseau، ومونتسكيو Montesquieu، والذى تبلور كنسق فكرى وتأملى معقد البناء عند كلودليفى ستروس Lévi - Strauss. وكذلك يعتبره الكثيرون - مثل دو فرجيه - الوريث الشرعى المباشر لجياتانا موسكا Mosca، وروبرت ميتشلز Michels، وماكس فيبر Weber، فقد نجح فى إعطاء علم الاجتماع السياسى وفلسفة التاريخ طابعا ذا مذاق خاص، كما نجح فى ارتياد مجالات أكثر حيوية كان علم الاجتماع الفرنسى بدونها سيظل فقيرا مجدبا. أما بالنسبة إلى العالم الناطق بالإنجليزية فقد اعتبر دائما الرائد الفرنسى للنظرية الاجتماعية، إذ نجحت كتاباته فى جذب القارئ العادى حتى على الرغم من النظرة التشاؤمية التى طبعت موقفه من الاتجاهات والعقائد الأيديولوجية المسيطرة.

ولد رايموند كلود فردينان آرون فى الرابع عشر من شهر مارس عام ١٩٠٥ فى باريس، ونال درجة الدكتوراه فى الآداب من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٣٠، وخلال الثلاثينات تعرف عن كثب على كتابات المفكرين الألمان وبخاصة مارتن هايدجر وأدموند هوسرل وماكس فيبر، وانعكس ذلك فى كل كتاباته وفى مواقفه العملية خلال المناصب والأعمال التى تنقل فيها، سواء وهو يقوم بالتدريس فى

جامعة كولونى Cologne (١٩٣٠ - ٣١) أو عندما التحق بالمركز الأكاديمى الفرنسى فى برلين (١٩٣١ - ٣٣)، أو أثناء عمله فى ليسيه الهافر (١٩٣٣ - ٣٤) وذلك قبل أن يعمل سكرتيرا عاما فى مركز التوثيق الاجتماعى فى النورمال سوبر يور (١٩٣٤ - ٣٩) وهى الفترة ذاتها التى قام فيها بالتدريس فى مدرسة سانت كلو العليا Saint - Cloud (١٩٣٥ - ٣٩) ثم أستاذا للفلسفة الاجتماعية فى جامعة تولوز ١٩٣٩.

ولكن التحول الجوهرى فى فكر رايموند آرون جاء بعد ذلك، ربما بداية من الأربعينات. فقد خدم آرون أثناء الحرب العالمية فى القوات الجوية الفرنسية، ولكن بعد سقوط فرنسا فى ١٩٤٠ أخذ يشارك بقلمه فى جهود قوات التحرير فاضطلع أثناء وجوده فى لندن برئاسة تحرير مجلة «فرنسا الحرة» La France Libre. ثم قام بعد الحرب بتدريس العلوم السياسية فى معهدالدراسات السياسية بالسوربون والمدرسة القومية للإدارة العليا (١٩٤٥ - ٥٥)، ثم عمل أستاذا لعلم الاجتماع فى كلية الآداب بالسوربون من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٦٨ ليصبح أستاذا لعلم الاجتماع فى الكوليج دوفرانس فى عام ١٩٧٠.

ولقد كان لنشاطه وكتاباته الصحفية شأن كبير فى تأكيد مكانة رايموند آرون. فقد عمل محررا فى مجلة Combat اليسارية (١٩٤٦ - ٤٧)، وتزايد تأثيره بشكل ملحوظ من خلال عموده الذى ظل يكتبه منذ عام ١٩٤٧ ولمدة ثلاثين عاما فى الفيجارو Le Figaro الفرنسية، ثم بعد ذلك عندما ترك الفيجارو (١٩٧٧) ليتفرغ لكتابة عموده الأسبوعى فى الإكسبريس L' Express، وهو العمود الذى ظل مواظبا على كتابته حتى وفاته فى باريس فى السابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٨٣.

أثناء هذه المسيرة الطويلة ترك آرون عدداً هائلا من المقالات والدراسات والتحليلات والتعليقات التى تناولت العديد من قضايا الثقافة والمجتمع، وسائر الموضوعات التى شكلت المناخ الثقافى العام فى أوربا، ذلك بالإضافة إلى كتبه ومؤلفاته الرئيسية التى عالجت بعض المشكلات النظرية والمنهجية التى برزت بصفة خاصة فى نظريات كبار المؤلفين والمنظرين من أمثال مونتسكيو وكونت

وتوكوفيل، وكذلك الأجيال الأكثر حداثة من علماء الاجتماع من أمثال دوركايم Dur Kheim، وباريتو Pareto، وفيبر. ومعنى هذا أنه لا يكفى فى فهم رايموند آرون التعرف فحسب على كتبه ومؤلفاته الرئيسية، ولكن من المهم أيضا فحص مواقفه النقدية التى ضمنها مقالاته، وخاصة إذا اعتبرنا أن هذا النوع من الكتابة (المقال أو التعليق السياسى والنقد الاجتماعى) أكثر تجاوبا مع الأحداث المتغيرة فى عصر يعتبر التغير السريع أهم خصائصه.

وهناك مجموعة من القضايا المحورية استولت على تفكير رايموند آرون. وربما كانت قضية الصراع بين الديمقراطية والشمولية فى مقدمة هذه القضايا، وذلك على اعتبار أن ظاهرة الحرب التى يتجسد فيها هذا الصراع كانت -ولا تزال - أخطر ما يواجهه القرن العشرون ويشغل فكر علمائه وفلاسفته ومفكريه. أما الدافع الأساسى وراء اهتمام آرون المتزايد بدراسة الصراع فهو عملى وتطبيقى بالدرجة الأولى، يتمثل فى محاولة الوصول إلى الطرق التى يمكن بها تجنب الصراع أو على الأقل التحكم فيه بما يقلل من خطر الحرب ويحجم مخاطرها. ومثل هذا الاهتمام هو الذى تبلور فيما يعرف بالدراسات الإستراتيجية التى يهتم جانب منها بدراسة الظروف والأسباب المؤدية إلى الحرب. وفى هذا السياق يعتبر مؤلفه «الحرب والسلام: (نظرية فى العلاقات الدولية)» Paix et Guerre entra les Nations (١٩٦٢) من أفضل ما كتب فى الموضوع (ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية فى عام (١٩٦٦) باسم «الحرب والسلام: نظرية فى العلاقات الدولية».

فى هذا الكتاب بعد أن ناقش آرون المفهومات والتصنيفات التى لا غنى عنها فى أية دراسة لقضية الحرب والسلام مثل مفهوم القوة وأنماط الحرب والنفوذ وأشكال السلام بهدف الوقوف على أسباب الحرب والدوافع إليها، تحول فى القسم الثالث والقسم الرابع من الكتاب ففحص من منظور تاريخى أشكال الدول وأنماطها المختلفة حتى العصر الذرى لينتهى من ذلك إلى توضيح بعض الاعتبارات الأخلاقية وبعض المتضمنات السياسية والإستراتيجية للحرب.

أحد الأسئلة الرئيسية التى شغلت بال آرون ما إذا كان هناك بديل للحرب.

وما إذا كانت ثم وسيلة لتنظيم العلاقات الدولية، خاصة فى تلك الأحوال التى تسعى فيها كل دولة لتحقيق مصالحها الخاصة. ولقد طرح آرون فى مناقشته إمكانيتين أو إحتمالين رئيسيين، الأول السلم من خلال القانون، والثانى السلم من خلال كيان دولى ضخم واحد. ولا يتحقق الاحتمال الأول إلا نتيجة اتفاق دولى، الأمر الذى اعتقد أنه سيظل رهين قيام هيئة أو منظمة فوق دولية (عالمية) يكون لها من السلطات التشريعية والتنفيذية والإدارية ما يكفل لها تحقيق أهدافها. على حين يستلزم الاحتمال الثانى أن تتنازل كل الكيانات الدولية الإقليمية عن بعض ذاتيتها للهيئة التى سوف تصبح هذه الدول أعضاء فيها. وهو ما يبدو أمرا صعب التحقق على الأقل فى الوقت الحاضر. وبالرغم من أنه لم يغفل إمكانية تحقق السلام من خلال مبدأ توازن القوى، فقد أنهى دراسته للحرب والسلام بنقده معظم المحاولات والأشكال الراهنة، ونادى بضرور إعطاء مزيد من الاهتمام للدعوة إلى تبنى العقل واستخدام سياسة معقولة reasonable policy أكثر منه إستراتيجية قد تتخبط فيها الأهداف الآجلة والعاجلة.

القضية المحورية الثانية وهى ترتبط بالقضية السابقة تتمثل فى موقفه الفكرى والعملى من السياسات الاستعمارية والإيديولوجيات والنظم العقائدية التى تغذيها. وهى قضية كانت سببا فى وقوع كثير من المنازعات بينه وبين زملائه وأصدقائه وصلت إلى حد الخصام والقطيعة. فبالرغم - على سبيل المثال - من الصداقة القوية التى كانت تربطه بالفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر Sartre وخاصة فى السنوات الأولى من مشوار سارتر الأدبى وهما يعملان معا فى المجلة الشهرية التى كان سارتر يصدرها باسم Temps Modernes بداية من أكتوبر ١٩٤٥، فقد ترك آرون هذه المجلة فى يونيو ١٩٤٦ لتنتهى صداقتهما (وبصحبته آرثر كوستلر Koestler) مع آواخر ١٩٤٧ بعدما صار آرون لا يخفى تعاطفه مع الغرب ودعوته للتحالف معه.

فى كتابه «أفيون المثقفين» Opium des Intellectuels ١٩٥٥، الذى يعتبر باختصار شديد هجوما عنيفا على الستالينية يبلور فكرة انتهاء عصر

الأيديولوجيا، وجه آرون أشد الانتقادات إلى سارتر وإلى الماركسيين عموما بسبب مساندتهم العمياء للاتحاد السوفياتى (وقتذاك). كما هاجم الاتجاهات السلبية التى برزت لدى كثير من المثقفين الذين تصوروا فى الخمسينات أن معايير التقدم إنما هى فى تأكيدهم على الماركسية السوفياتية.

كذلك ظهرت الاتجاهات نفسها فى عدد من كتبه اللاحقة وبخاصة كتاب «الثورة الأكيدة» La Révolution Introuvable (١٩٦٨)، وكتاب «الانقلاب المراوغ: تشريح لثورة الطلبة» The Elusive Revolution: Anatomy of Student Revolution (١٩٦٩). ففى هذين الكتابين مضى آرون ينتقد زملاءه الأكاديميين لمساندتهم ثورة الطلبة فى ١٩٦٨، علاوة على انتقاده لسياسات ديجول فى كثير من المواقف وبخاصة سياسته (فى الخمسينات) التى كانت ترمى إلى إبعاد فرنسا عن الولايات المتحدة الأمريكية، وهى كتابات تعيد إلى الأذهان معارضته القديمة لاستعمار فرنسا للجزائر ومطالبته بانسحابهم قبل قيام الثورة الجزائرية فى عام ١٩٥٤.

★ ★ ★

هذه المواقف الفكرية والعملية كانت انعكاسا فى الحقيقة لرؤيته الخاصة لعلم الاجتماع ولما طرأ على هذه الرؤية من تغيير، وخصوصا بالنسبة لموقفه من علم الاجتماع الماركسى. فالواضح أن دراسات آرون للحرب والصراع قد تأثرت بالكتابات الأصيلة فى التراث وخاصة كتابات ليون برامسون Bramson وتوكوفيل Tocquéville ووليم جميس James، وسمنر Summner، وبارك Park، ومالينوفسكى Mal-inowski بالإضافة إلى كتابات جورج زيميل Simmel ولويس كوزر Coser وفرويد. ويكفى فى هذا الصدد الإشارة إلى كتابه Les Guerres en Chaine (١٩٥١) وكتابه Le Grand Débat (١٩٦٣) بالإضافة طبعا إلى كتابه الذى أشرنا إليه عن الحرب والسلام (١٩٦٢)، ثم كتاباته الأكثر حداثة التى قدمها فى السبعينات وخاصة كتابه «الجمهورية الإمبريالية: الأمم المتحدة فى العالم من عام ١٩٤٥ إلى ١٩٧٢» Repu-blique Impériale: Les 'Etats - Unis Dans Le Monde (1945 - 1972)، ١٩٧٣، وكتابه (فكر الحرب: كلاوتزفيتز) Penser La Guerre, Clausewitz ١٩٧٦.

كذلك يظهر التفاوت فى مواقفه النظرية بالنظر إلى كتابه «مقدمة لفلسفة التاريخ» Introduction à la Philosophie de l'histoire الذى كتبه فى ١٩٣٨ (ترجم للإنجليزية فى ١٩٦١) وإلى كتاباته المتأخرة التى قدمها منذ الخمسينات على ما نجد مثلا فى كتابه «علم الاجتماع الألمانى» German Sociology ١٩٥٧، وكتابه الذى صدر فى جزءين بعنوان «التيارات الرئيسية فى الفكر الاجتماعى» Les Etapes de la pansée Sociologique حيث تناول فى الجزء الأول نظريات مونتسكيو وكونت وتوكوفيل وماركس، وخصص الجزء الثانى (١٩٦٧) لدراسة دور كايم وباريتو وماكس فيبر (ترجم الجزءان فى عام ١٩٦٧ و١٩٧٠ على الترتيب). ثم كتاباته التى تناول فيها مشكلات المجتمع الصناعى ومن بينها «المجتمع الصناعى» The Industrial Society و«١٨ محاضرة فى المجتمع الصناعى» 18 Lectures on Iudustrial Society، وأيضا تلك التغيرات الجذرية التى طرأت على البناء الطبقى بسبب تطور النظم والأوضاع السياسية والاقتصادية على ما نجد فى كتابه «صراع الطبقات» La Lutte de Classes (١٩٦٤). و«الوهم والتقدم» Progress and Disillusion (١٩٦٨).

والفكرة المحورية عند آرون فيما يتعلق بعلم الاجتماع الماركسى أنه يؤكد تأكيدا زائدا على الاستخلاصات المنبثقة من البناء الطبقى، حيث استند ماركس إلى مادة المجتمع عندما ركز على البناء التحتى Infra - Structure وذهب إلى أنه المصدر الأساسى لكل أشكال المعرفة بما فيها من أيديولوجيات وفلسفة وعلم وفن ودين، مما يعنى أنه رد مضمون الحقيقة بل ونظرية المعرفة كلها إلى الأساس الاقتصادى الذى يربط الفكر بالواقع من خلال إطار الطبقة وبنائها.

ولكن رجوع ماركس إلى طبيعة المواقف الاقتصادية والظروف الاجتماعية التى تلقى على الفكر قيما وأبعادا اقتصادية تفسر محتواه الداخلى وتحلل مغزاه الحقيقى، ينطوى بالنسبة لآرون على ناحيتين: الأولى أن الايديولوجية أصبحت بالنسبة لماركس مجرد ظاهرة تستند إلى أسس اقتصادية ينجم عنها كل الأحكام المتعلقة بالأيديولوجية والفلسفة والأخلاق. أما الناحية الثانية فهى أن ذلك الموقف الذى يقدمه علم الاجتماع الماركسى لا يعدو فى آخر الأمر أن يكون مجرد وجهة

نظر سوسيولوجية لتفسير الأفكار. ولكنها وجهة نظر تقاسى من كل ما يشوب النظرية الأحادية من قصور.

● قراءات مقترحة ●

- Bottomore. T. B. : Sociology as Social Criticism. 1975.
- Giddens. A.; Studies in Social and Political Theory. 1976.

★ ★ ★

٧ - أوستن، جون لانجشو

7 - AUSTIN, John Langshaw

ربما كان جون لانجشو أوستن أكثر فلاسفة اللغة الإنجليزية الذين توصف حياتهم العلمية بأنها سلسلة من البحث الدءوب، فحقق بذلك شهرة واسعة ارتبطت بتحليله المتميز للفكر الإنساني، وهو التحليل الذى أقامه على أساس من دراساته العميقة للغة الأحاديث اليومية العادية .

ولد أوستن عام ١٩١١ فى لا نكستر بإنجلترا، وتوفى وهو لم يكد يبلغ الخمسين عام ١٩٦٠ فى أكسفورد وهى البلدة التى قضى فيها كل حياته العلمية تقريباً، باستثناء فترة قصيرة عمل خلالها بالمخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وزيارتين عمليتين قصيرتين لأمريكا بدعوة من جامعة هارفارد وجامعة كاليفورنيا .

ولقد لفت الأنظار إليه وهو لا يزال فى المراحل المبكرة لتعليمه، فقد درس فى مدرسة شروسبرى Shrewsbury وهى نفس المدرسة التى سبق أن تعلم فيها تشارلس دارون Darwin. كما حصل على منحة دراسية مفتوحة فى باليول كوليج Balliol College بأكسفورد، ثم أصبح زميلاً فى أول سولز All Souls فى عام ١٩٣٣ . وبعدها زميلاً فى ماجدالين Magdalen فى ١٩٣٥، حيث بدأت تظهر اهتماماته بدراسة الكلاسيكيات الإغريقية الرومانية، وهى الدراسة التى كان لها أعمق الأثر فى تفكيره واتجاهاته، وبخاصة بعد عودته إلى أكسفورد عندما وضعت الحرب أوزارها، وأصبح أستاذاً لفلسفة الأخلاق (١٩٥٢ - ١٩٦٠) .

وبوجه عام يمكن القول بأن جهود أوستن فى حركة الإصلاح والتطوير اللغوى قد انطلقت من ذلك الاعتراف العام بأن ميدان اللغويات ما زال يفتقر إلى التحليل المناسب للأشكال المختلفة التى تستخدم فيها اللغة .

ولا يعترض أوستن على الموقف العام الذى يتبناه غالبية اللغويين من أن اللغة هى أفضل وسيلة للاتصال والتعبير، ولكن الخلاف يظهر عندما يشرع فى مناقشة وظائف اللغة وتحليل استخداماتها. فقد ذهب إلى أنه مع عدم وجود النظرية الدقيقة التى تأخذ فى اعتبارها العلاقات المتداخلة والمتبادلة بين القصد intention والشعور Feeling والإدراك Perception وما إلى ذلك من المفهومات الأساسية فى فلسفة اللغة وعلم النفس التحليلى، فالأرجح أن يظل فهمنا وتحليلنا للغة أسيرا للنظرية الكلاسيكية التى قصرت أغراض اللغة فى أنها وسيلة للتوصيل، وأنها تعين على التفكير، أو أنها وسيلة للتسجيل وللرجوع إلى ما يتم تسجيله، وليس لهذا كله سوى معنى واحد هو أن للغة وظائف وأغراضا تتجاوز هذه الحدود. وإن كان لا ينبغى أن يفهم من ذلك أنه يهون من شأن ضرورة الإحاطة بالنظريات اللغوية قبل الاقدام على البحث فى الميدان، وإنما الأهم من ذلك فى اعتقاده توافر الوسائل المناسبة للتحليل اللغوي، إيماناً منه بأن هذا التحليل بمقدوره أن يقدم الكثير من الحلول لتلك الألغاز التى تحيكها الألفاظ والكلمات والجمل والتعابير والكثير من القضايا والمشكلات الفلسفية واللغوية ذاتها، وهذا يعنى ضمن ما يعنيه أن التركيز ينبغى ألا يكون على مجرد التعرف على وظائف الألفاظ والأصوات، ولكن على طبيعة الأفعال ذاتها، وعلى مظاهر السلوك التى توحى هذه الألفاظ والأصوات بفعلها والقيام بها .

القضية إذن التى يثيرها أوستن تتعلق فى جوهرها بعدم الاستخدام الصحيح للغة. ومع ذلك فنحن لونظرنا إلى السياق الكلى لنسقه الفلسفى لوجدنا أن المقصود بذلك ليس هو مجرد ذلك المعنى البسيط الذى يمكن أن يفهم للوهلة الأولى من التعبير، بمعنى أن الألفاظ والجمل والتراكيب التى تتكون منها اللغة قد تستخدم بطريقة مشوشة أو غامضة أو مبهمة، أو حتى أن هذا التشيوش والغموض والابهام مما ينجم عن عدم المعرفة الدقيقة بمعانى الألفاظ ودلالتها بما يؤدى إليه ذلك من ظهور كثير من المشكلات اللغوية والفلسفية، ولكن الأبعد منه، ما يقرره هو نفسه من أن الاستخدام الفعلى للألفاظ -حتى ما نعرف معناه- إنما يتم بطرق تبدو معها

المشكلات كنتيجة حتمية لها، وهذا معناه أنه يلفت نظر الباحثين والمفكرين إلى خطورة تلك الشراك traps التى تصنعها اللغة ولا نكاد نعطيها الاهتمام الكافى .

وقد عرض أوستن هذه الأفكار لأول مرة فى مقالته «عالم الفقه المحدود» The Province of jurisprudence التى نشرت فى عام ١٩٥٤ ضمن الكتاب الذى أعده هارت Hart وجورج ويدنفيلد Weidenfeld ونيكلسون Nicolson وهى مقالة كانت بمثابة الركيزة الأساسية التى أقام عليها بناء كتابه ذائع الصيت الذى نشره فى عام ١٩٦٢ بعنوان له دلالته هو «كيف نصنع الأشياء بالكلمات» How to Do Things with Words.

فى هذا الكتاب الذى يمثل نقداً تحليلياً للغة المنطق الصورى والكثير مما ذهب إليه علماء اللغة وفلاسفتها وهم يتحدثون عن وظائف اللغة واستخداماتها قدم أوستن ما أطلق عليه « الاستخدام الأدائي» Performative Use للكلمات أو «الصوت الأدائي» Performative Utterance، ففى رأيه أن هناك فئة من الأصوات تتمثل خاصيتها الرئيسية فى أنها «تفعل» شيئاً to do something أكثر منه مجرد (قول) شىء عن شىء آخر . ويشرح هو نفسه. ما يقصد إليه بقوله -إن الإنسان الذى (يقول) فى موقف ما «أنا أعد بكذا وكذا» لا يخبر سامعه بشىء ما فحسب، ولكنه (يفعله) كذلك، بمعنى أنه يأخذ وعداً على نفسه. وكذلك الحال عندما يقول القاضى مثلاً «حكمت المحكمة عليك بالإعدام» . فمثل هذا القول ليس المقصود منه مجرد «إخبار» أو إحاطة المستمع، وإنما الأهم منه أن ثمة شيئا لا يمكن إنجازه إلا عن طريق استخدام بعض الصيغ اللغوية المتفق عليها.

وهى صيغ أو «أصوات أدائية» لا تخضع فى ذاتها لمحكات أو معايير الصدق والكذب. وإن كانت بالطبع تخضع لمعايير الصحة والسلامة. ولقد أدت به هذه الناحية إلى مناقشة التمييز بين «قوة الفعل الكلامي» illocutionary force بمعنى ما ينطوى عليه التعبير والكلام من «فعل »، وبين قوة أسلوب الكلام locutionary force ويقصد به ماهية الكلام، وقوة الأثر الذى يتركه الكلام فى الآخرين Perlocutionary force .

الكتاب الآخر الذى لا يقل عن سابقه فى الأهمية صدر أيضاً فى العام نفسه

(١٩٦٢) بعنوان «الحس والإحساس» Sence and Seibilia وهو عبارة عن هدم للموقف التقليدى القديم الذى يرجع إلى ديكارت Descartes ومن قبله الإغريق الذى ينكر إمكانية أن ننتبه أو نلتفت إلى أى شىء إلا ما يأتينا فقط عن طريق الحواس، أما كتابه «أوراق فلسفية» Philosophical Papers الذى كان قد أصدره فى ١٩٦٠ فهو عبارة عن مقالتين كان قد سبق له نشرهما، الأولى (١٩٤٦) بعنوان «العقول الأخرى» Other Minds والثانية «ذريعة للاعتذار» A plea for Excuses (١٩٥٦) وتعتبر المقالة الأولى مدخلاً لنظريته فى « الصوت الأدائى » على حين كشفت المقالة الثانية عن مدى ثراء اللغة بالكلمات والألفاظ والتعابير التى تستخدم فى مواقف التأسف والاعتذار .

ومهما يكن من أمر فإن الاهتمام باللغويات حتى ذلك الوقت الذى قدم فيه أوستن نظريته لم يكن يمثل سوى جانب فحسب من الفلسفة المعاصرة؛ ولذا لايبدو غريباً أن أكدت كتاباته وحركة التحليل اللغوى التى قادها أهمية اللغة للفلسفة، ولقد كان تأثير أوستن على زملائه أو تلامذته أكبر بكثير مما قد توحى به كتاباته، فقد سعى بطريقة ذكية وبحيوية فائقة إلى تحقيق ما كان يعتبره هدفه الرئيسى وهو استخدام المناهج والمعايير التى تقدمها المراجع الأساسية لدراسة الكلاسيكيات الاغريقية الرومانية وتطبيقها على ما يوضع بين يدى الطالب الإنجليزى المعاصر، وهو ما نجح فيه إلى أبعد الحدود.

- **قراءات مقترحة** -

Works : Three Ways of spilling ink. The psychological Review. vol. 75 . 1966.

- **وانظر أيضاً :**

- Berlin. Isaiah; (ed.), Essays on j.L. Austin, 1973.

- Elster. Jon. Logic and Society : Contradictions and Possible World. 1978 .

- Fann. K.T.: (ed.). Symposium on j .L. Austin. 1973.



٨ - آير، السير ألفريد جوليس (١٩١٠)
8 - AYER, Sir Alfred Jules

تعكس حياة ألسير الفريد جوليس آير سلسلة متتابعة الحلقات من النجاحات العلمية والأكاديمية، فبعد أن تخرج فى الكلية الملكية فى إيتون Eton بدأت رحلته العلمية ليصبح واحداً من كبار الأعلام المرموقين فى مجالات الفكر والثقافة، وليصير محاضراً للفلسفة فى كريست كوليج Christ College (أكسفورد) وبعدها أستاذاً للفلسفة فى ينفرستى كوليج بلندن (١٩٤٦ - ١٩٥٩) ثم ليصبح بعد ذلك أستاذاً لكرسى المنطق فى أكسفورد من عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٧٢، وهى فترة تم خلالها تنصيبه فارساً فى عام ١٩٧٠ .

ولقد تدخلت بعض الظروف فى تحديد مسار حياته الأكاديمية لعل فى مقدمتها تلك الزيارة التى قام بها لفيينا Vienna وهو لم يزل طالباً جامعياً عام ١٩٣٣ . حيث كان فى جعبته خطاب توصية من جيلبرت رايل Ryle أتاح له فرصة حضور الجلسات والسيمنارات العلمية التى تعقدها حلقة فيينا، وبالتالى الاستماع إلى المناقشات الفلسفية والعلمية التى كانت تثيرها وقتذاك نخبة من العقول اللامعة من أمثال موريتز شيلك Schlick ورودلف كارناب Carnap، الأمر الذى جعله ينفتح على المدخل العلمى والفلسفى الذى كانت تدور من خلاله مناقشة ما يطرح فى الحلقة من قضايا، وهى المناقشات والقضايا التى تبلورت فيما عرف بعد ذلك بالوضعية المنطقية Logical Positivism .

ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل بعدما عاد إلى إنجلترا عندما نشر آير أول أعماله وربما أسهلها أيضاً وهو كتابه المعنون باسم «اللغة والحقيقة والمنطق» Language, Truth and Logic فى ١٩٣٦، وهو الكتاب الذى أصبح فى وقت قصير

نسبياً بالنسبة إلى قارئ اللغة الإنجليزية فى مختلف أنحاء العالم بمثابة ما يمكن وصفه بأنه «مانفيستو» حركة الوضعية المنطقية وذلك على اعتبار أنه ظل من أكثر من زاوية يمثل التعبير الأصيل عن مداخل هذه الحركة ووجهات نظرها الأساسية.

ولقد كان الهدف الرئيسى الذى هدف إليه آير من جهوده الفلسفية هو ما أطلق عليه « اختزال الميتافيزيقا » وهو أسم كان عنواناً للفصل الأول فى رسالته، فلقد طرح آير فى هذا الكتاب قضيته الأساسية الخطيرة التى قرر فيها بوضوح «أنه لا توجد أية قضية تشير إلى حقيقة تجرد حدود الخبرة التى نصل إليها عن طريق الحواس يمكن أن تكون لها دلالة فكرية» . أما النتيجة الواضحة التى يمكن استخلاصها من هذا التقرير فهى أن أعمال كل الذين حاولوا وصف مثل هذه الحقيقة قد بذلت فى الواقع لإنتاج الهراء الذى لا معنى له .

أما أداته التى لجأ إليها لإبعاد الميتافيزيقا واختزالها فتمثلت فى المبدأ الشهير المعروف بمبدأ الصدق Principle of Vertification ومضمونه أن أية عبارة أو جملة لا تكون لها دلالة حقيقية أو واقعية بالنسبة إلى شخص معين إلا إذا عرف كيف يتحقق أو يثبت صدق القضية التى تعبر عنها هذه الجملة أو العبارة . ولقد كان من نتائج تطبيقه لهذا المعيار استبعاد كثير من الحشو واللغو والترديد فى المنطق والرياضيات حيث أصبح من المستحيل قبول أية قضية على أنها قضية صادقة وذات معنى إلا إذا أمكن اختبارها والتحقق من صدقها بواسطة الملاحظة الإمبريقية، ويترتب على ذلك بالضرورة واحدة من أخطر النتائج مؤداها أن كل مادة الأخلاق ethics ومعها كل بناء الدعاوى الدينية لابد أن تطرح جانباً على اعتبار أنها ليست أكثر من تجميع أو مجموعة من القضايا الزائفة الخالية من المعنى، وهذا معناه أنه لا يتبقى من ثم سوى قضايا العلم Science . وهذا ماعبر عنه بقوله «أن الفلسفة هى بطبيعتها هراء بدون العلم» مما يعنى أيضاً أن لا مستقبل للفلسفة إلا فى صورة منطق العلوم .

والواقع أن تفاصيل الحجج والبراهين التى ساقها آير للتدليل على موقفه كانت على قدر كبير من الوضوح والدقة والصرامة، لدرجة أن الكلمات المحورية

والمفهومات الأساسية التى استخدمها فى هذا الكتاب (اللغة والحقيقة والمنطق) كالملاحظة « والمعيار» و«الدلالة الحقيقية» و «إمبريقي» هى التى أصبحت تسود ساحة الفكر الفلسفى لفترة تزيد على خمسة وعشرين عاماً منذ نشره .

غير أن آير كان له مع ذلك موقفه الخاص من الفلسفة الوضعية، فهو لم يكن يخفى امتعاضه من الحالة التى سارت إليها، أو اعتقاده بأنها تمر بمرحلة من التراجع والتدهور الملحوظين، الأمر الذى أرجعه إلى أن الوضعية قد أضحت على درجة من الجدة والتحرر حتى أن العلم الطبيعى، وهو العلم الأثير لديها، والذى ترتبط به ارتباطاً وثيقاً، لم يستطع اجتياز اختبار معايير الصدق المحددة، فقضايا النظرية العلمية التى تتمتع بمستوى عال من التعميم من الصعب اختزالها إلى قضايا وتقريرات قابلة للملاحظة، على اعتبار أن الملاحظة، هى فى النهاية المحك الذى تتضح فى ضوئه صدق أية نظرية أو كذبها، ولو حدث أن أصبح اختبار الصدق أقل تحديداً حتى يتلاءم مع النظرية العلمية، فالمنتظر أن يتيح ذلك لكل من الدين والميتافيزيقا إمكانية تطبيق هذا الاختبار على قضاياهما، وهذا موقف ينطوى على مشكلة ظلت تؤرقه، وحاول أن يجد لها حلاً فى مقدمته الطويلة التى قدم بها للطبعة الثانية لمؤلفه « اللغة والحقيقة والمنطق». وإن كان قد عاد فاعترف بصعوبة حلها .

غير أنه من الخطأ مع ذلك أن نحصر شهرة السير ألفريد جوليس آير فى مؤلفه «اللغة والحقيقة والمنطق» الذى أشرنا إليه، فكتاباته اللاحقة لم تكن -للحق- أقل أهمية من هذا المؤلف. وبالرغم من أن البعض يرى أن قضاياه الرئيسية وأفكاره المحورية ليست لها تلك الأهمية التى اصطبغت بها قضايا وأفكار كتابه الأول، بل ويذهبون فى ذلك إلى حد القول بأنها قد أصبحت اليوم أثراً عفا عليه الزمن، فإن مثل هذا القول ينطوى على غير قليل من سوء الفهم وعدم التقدير .

وقد يكون صحيحاً أن معظم الفلاسفة ومن بينهم آير نفسه قد هجروا منذ أواخر الستينات ذلك التمسك العنيد بمحكات الصدق الصارمة، ومع ذلك فإن البحث الميتافيزيقى الذى شهدته الساحة بعد ذلك لا يمكن إلا أن نعترف بأنه قد

تطور ونمى نتيجة للتحدى الإمبريقى المتطرف الذى تم على يديه. أما بالنسبة إلى الميتافيزيقا فإنها لم تعد مجرد «هراء» ولكنها مصطلح له قيمته البالغة، وإن كان ذلك يرتبط فقط بتلك الميتافيزيقا رفيعة المستوى التى تقدم فى الأقسام الأكاديمية المتخصصة والتى تخضع للتحليل والمناقشة والتى يصعب التعرض لها وتناولها إلا من خلال ذلك الإطار المنطقى والخلفية الفلسفية اللغوية المحددة وذلك بالذات هو ما سعى آير إلى إيجاده والوصول إليه .

● **قراءات مقترحة** ●

Works : Philosophical Essays. 1954.

- The Problems of Knowledge. 1956.
- The Concept of a Person, 1964.
- Metaphysics and Common Sence. 1967.
- The Central Questions of Philosophy. 1973.
- The Origin of Pragmatism 1968.
- Russell and Moore, The Analytic Heritage 1971.

● **وانظر أيضاً :**

- Apele. K. O.; Towards a Transformation of Philosophy .1980.
- Benton. Ted. Philosophical Foundations of the Three Sociologies . 1977.
- Hempel . C.G., Aspects of Scienctific Explanation. 1965.

★ ★ ★

B

٩ - بارنارد، شستر إيرفنج

9 - BARNARD, CHESTER IRVING

على الرغم من أن شستر إيرفنج بارنارد لم يكن أكاديمياً بالمعنى الدقيق، فقد استطاع أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة سواء فى الأوساط العلمية، أوفى ميادين العمل والتطبيق، فهو أحد علماء الاجتماع الأمريكيين الذين برز لديهم اتجاه مميز فى تطوير نظرية التنظيم وبلورة تصوراتها ومفهوماتها وعلاقتها بالنظرية العامة لعلم الاجتماع من ناحية، إلى جانب اهتمامه الخاص بمشكلات العمل والإدارة وبخاصة تلك الجوانب النوعية التى تعتبر موضوعاً متخصصاً لعلم اجتماع التنظيم من ناحية ثانية .

ولقد ولد بارنارد فى مدينة مالدن Malden بولاية ماساشوستس الأمريكية Massachusetts فى السابع من شهر نوفمبر عام ١٨٨٦ .

ويرجع اهتمامه بدراسة التنظيمات ومؤسسات العمل وكيفية إدارتها إلى فترة مبكرة من حياته صاحبت فى الحقيقة مشواره الوظيفى، فبالرغم من أنه بدأ حياته العملية (توفى فى عام ١٩٦١) كموظف صغير فى شركة التليفونات والتلغراف الأمريكية فى عام ١٩٠٩، فقد مكنته خصاله الشخصية وحسه الإدارى العميق وثقافته الواسعة من الترقى السريع حتى أصبح رئيساً لشركة نيوجرسى للتليفونات عام ١٩٢٧، كما كانت فترة الكساد العالمى التى شهدتها الثلاثينيات فرصة ملائمة لاختبار أفكاره واتجاهاته النظرية والتطبيقية على السواء. فقد عمل فى الفترة من ١٩٤٢ - ١٩٤٥ رئيساً لمنظمة الخدمات المتحدة United Service Organization، علاوة على اشتراكه بعد الحرب فى كتابة التقرير الشامل للأمم المتحدة

الخاص بالرقابة علي الطاقة الذرية Atomic Energy (١٩٤٦) . كما رأس بعد تقاعده مؤسسة روكفلر Rockefeller (١٩٤٨ -١٩٥٢) ثم اختير رئيسا لمجلس إدارة المنظمة القومية للعلوم National Science Foundation (٥٢ -١٩٥٤) .

هذه الخبرة الطويلة التى اكتسبها بارنارد من مواقع عمله ومناصبه المختلفة كمدير إدارى ومسئول تنفيذى ساعدته فى صياغة نظريته الخاصة فى التنظيم وهى النظرية التى عبر عنها فى أول كتبه وهو كتاب ظهر فى عام ١٩٣٨ بعنوان له دلالته هو «وظائف المديرين» The Functions of the Executive وهو كتاب نجح فى أن يترك أثراً كبيراً فى تدريس علم اجتماع التنظيم وفى نظرية العمل بوجه عام، على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على ظهوره. ولا يرجع ذلك إلى مجرد أن الكتاب يعتبر وثيقة علمية من حيث المعلومات التى يقدمها فحسب، ولكن أيضاً لأنه يقوم على خبرة علمية طويلة ساعدته فى صياغة ملاحظاته فى شكل مبادئ وتصورات وقضايا توضح الأسس التى تقوم عليها التنظيمات وطبيعة العلاقات والقوى التى تعمل فيها .

وتتمثل السمة الرئيسية التى تميز كتابات بارنارد النظرية فى تركيزه على الطبيعة التعاونية للتنظيمات، وهذا معناه أنه لا يتقبل الكثير مما فاضت به المداخل المختلفة فى دراسات التنظيم، وبخاصة تلك الاتجاهات الكلاسيكية التى تركز على العلاقات المحددة والقواعد الأساسية التى تسير عليها التنظيمات بدقة متناهية تباعد بينها (التنظيمات) وبين الواقع الملىء بالمتناقضات والقوى والدوافع التى تتدخل جميعها بالإضافة إلى إجراءات الضبط والرقابة والجزاءات فى تحديد النظام العام الذى يخضع له أعضاء التنظيم .

وعلى العكس من ذلك يقف بارنارد أقرب ما يكون إلى ماكس فيبر وإلى فكرة الجماعة التضامنية Corporate Group التى برزت عنده وساعدته على تقديم تصوره السوسيولوجى للتنظيمات، فالتنظيم بالنسبة إلى بارنارد هو نسق تعاونى Co-operative System يتكون من مجموعة من العناصر المادية والشخصية والاجتماعية التى تنشئ فميا بينها علاقة منظمة ذات طابع خاص نتيجة للتعاون بين أعضاء النسق لتحقيق الأهداف التى يسعى التنظيم إلى تحقيقها .

فكرة النسق وفكرة التعاون هما إذن فكرتان محوريتان فى نظرية بارنارد فى التنظيم، والفكرة الأولى تعكس تأثره بالاتجاه الوظيفى فى دراسة التنظيمات التى نظر إليها على أنها إنساق اجتماعية وسواء أكانت أنساقا مفتوحة أم أنساقا داخلية وخارجية . ولاتبعد الفكرة الثانية (التعاون) عن هذا باعتبار أنه متضمن فى فكرة النسق ذاتها وتساند الأجزاء وتعاونها وتبادلها الأثر والتأثير. وإنما المهم فى ذلك كله هو أن هذا التعاون يتسم بثلاث سمات جوهرية، فهو تعاون شعورى، واختيارى، وهادف، وهى سمات يرى بارنارد أنها لازمة لبقاء التنظيم . ولا تنفصل عن تلك الركائز الأساسية التى اعتبرها بارنارد لكفاية التنظيم وضمان استمراره، وهى الاتصال من ناحية والرغبة فى المساهمة والعطاء من ناحية ثانية ووجود الهدف المشترك من ناحية ثالثة.

ولا جدال فى أن نظرية بارنارد مهما قيل فى جدتها تنطوى على مزاج من الاتجاهات البنائية واتجاهات العلاقات الإنسانية، وحتى اتجاه اتخاذ القرارات فى دراسة التنظيمات. وإذا كان التصور العام للنسق التعاونى أنه يمثل نوعاً من العلاقة الاجتماعية التى تفرض حدوداً معينة للقيام بأدوار معينة من خلال مجموعة القواعد والمعايير، فإن أهم ما يلفت بارنارد الأنظار إليه هو ضرورة الاهتمام ببناء الاتصال على وجه الخصوص. وهو فى هذا يختلف عن فيبر الذى ركز فى دراسته للتنظميات على بناء القوة أو نسق القوة. الاتصال بالنسبة إلى بارنارد هو المسئول عن التعاون بين أعضاء التنظيم لأجل تحقيق أهدافه. وهو لايعنى ببناء الاتصال مجرد البناء الرسمى formal، ولكن الأهم منه بناء الاتصال غير الرسمى informal وتلك العلاقات الاجتماعية التلقائية التى تقوم بين الأعضاء بعيداً عن محددات التنظيم وقواعده الرسمية، وعند هذه النقطة بالذات يتضح الفارق الجوهرى بين فيبر وبارنارد من حيث اعتماد الأول على إطار نظرى بحت بينما اعتماد بارنارد على خبرته وتجاربه الشخصية بالدرجة الأولى .

ولقد انشغل بارنارد ابتداء من عام ١٩٤٨ فى بلورة الكم الهائل من المعلومات التى توافرت لديه من ملاحظاته الخاصة بالعملية الإدارية ومشاركته فى الكثير من

أعمال الأجهزة التنفيذية والقيام بنشرها فى مجلة الإدارة والتنظيم Organization and Management فى سلسلة من المقالات والبحوث التى صاغت مبدأه الأساسى القائل بأن قدرة الأجهزة التنفيذية على التعامل مع المشكلات العملية والتطبيقية تميل إلى النقصان عندما توضع هذه المشكلات على المستوى النظرى البحت أو فى مصطلحات نظرية . وهو المبدأ الذى أصبح يجذب أعدادا متزايدة من علماء الاجتماع المتخصصين فى التنظيم، ويوجه كثيراً من الدراسات التى تسعى لوصف وتشخيص مشكلات التنظيمات الصناعية والإدارية من منظور علم اجتماع التنظيم، وتبحث فى مظاهر السلوك الاجتماعى وصور التفاعلات التى تقوم بين الجماعات والأفراد وما قد يكون وراءها من عوامل القوة وديناميات الصراع مما يتدخل فى تحديد كفاية بناء التنظيمات ووظائفها وقدراتها الإدارية والإنتاجية على السواء .

• قراءات مقترحة •

- Bales. R., Interaction Process Analysis : A Method for the Study of Small Groups. 1950.
- Etzioni. A.; Comparative Analysis of Complex Organizations. 1961 .
- , Complex Organizations, A Sociolgical Reader. 1965.
- Gouldner, A., Patterns of Industrial Bureaucracy. 1955.

★ ★ ★

١٠ - بارون، سالو ويتماير (١٨٩٥)

10 - BARON, Salo Wittmayer

يعتبر من القلائل الذين أسهموا إسهاماً ملحوظاً فى نشر التراث اليهودى، وفى تحقيقه ربما بطريقة لا تخلو من التحيز إن لم يكن التعصب.

هو المؤرخ اليهودى سالو ويتماير بارون الذى ولد فى جاليسيا Galicia فى ٢٦ مايو ١٨٩٥. ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره عندما حصل على الدكتوراه من جامعة فيينا فى ١٩١٧، وأخذ يحاضر فى الآداب والتربويات اليهودية من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٥ وبعدها هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٩٢٦.

ولم يبتعد ويتماير فى أية مرحلة من مراحل حياته عن الهدف الرئيسى الذى كرس له حياته العلمية. فعلى مدى سنوات طويلة تزيد على الثلاثين عاماً ظل فى وظيفته الأساسية التى شغلها من ١٩٣٠ إلى ١٩٦٣ كأستاذ للتاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيا .

وعلى الرغم من أن عمله الأكاديمى كأستاذ جامعى كان يستغرق جانباً كبيراً من وقته، فإن هذا لم يحل دون أن يكون له نشاطه العلمى المتزايد مع مركز الدراسات الإسرائيلية واليهودية والمجمع اليهودى الأمريكى والجامعة العبرية فى بيت المقدس وجامعة روتجرز Rutgers وبراون يونيفرستى Brown University علاوة على تحريره «الدراسات الاجتماعية اليهودية» Jewish Social Studies منذ عام١٩٣٩.

والواقع أن هذه الأعمال المنوعة فى عدة مواقع منوعة أيضاً أتاحت له - حتى وبالرغم من كل ما قد يقال فى أنها دارت كلها تقريباً فى فلك واحد - الفرصة لكى تتشعب اهتماماته وتتلون بالتالى كتاباته وتتعدد مداخلها. فقد كتب بارون فى النظرية السياسية مثلما كتب بعض السير الذاتية لعدد من فلاسفة

السياسة المشهورين من أمثال فردينانلاسال Lasalle . كما كتب المقالة العادية التى تعالج الشئون العامة والأحداث الجارية.

ومع ذلك فقد نجح فى أن يؤسس شهرته على مجموعة من الكتابات المتخصصة تماماً حيث قدم فى ١٩٦٤ «التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود» A Social and Religious History of the Jews وهو عمل ضخم فى ١٦ جزءا. كما قدم فى العام نفسه «التاريخ والمؤرخون اليهود» History and Jews Historians و«مقالات فى التاريخ اليهودى فى العصور القديمة والوسطى» The Ancient and Medieval Jewish History : Essays . وذلك فى عام ١٩٧٢. وهى كتابات لم يكن حتى يحاول أن يخفى ما بها من تحيز فى النظر والرؤية والتحليل مما أثار الكثير من الجدل وشكك فى الوقت نفسه فى مصداقية الكثير مما ذهب إليه .

• قراءات مقترحة •

- Martin, D.A., The Religious and the Secular. 1969.
- Wells, H.G., The Outline of History. 1954.

★ ★ ★

١١ - بارت، كارل (١٨٨٦ - ١٩٦٨)

11 - BARTH, Karl

ولد كارل بارت فى بازل Basel بسويسرا فى ١٠ مايو ١٨٩٦ وتوفى فى ٩ ديسمبر ١٩٦٨. ويعتبر من وجهة نظر البعض أعظم علماء اللاهوت والمفكرين البروتستانت فى القرن العشرين، إن لم يكن أعظمهم قاطبة منذ حركة الإصلاح الدينى. وللإنصاف فربما كان كارل بارت أكثر من أى إنسان آخر وراء الحركة الدافعة التى تحققت للدراسات الدينية، وهى الحركة التى يرجع إليها تقدم هذه الدرسات وبخاصة فى الفترة من ١٩٢٠ إلى إلى ١٩٥٠.

ولا جدال فى أن ظروف نشأته الأولى كانت وراء هذا النجاح . فقد كان ابناً لأحد الأساتذة المتخصصين فى تدريس العهد الجديد New Testment . وتلقى تعليمه فى جامعات برن Bern وبرلين Berlin وتوبنجن Tobingen وماربورج Marburg وهى مرحلة كانت بمثابة حجر الزاوية فى تحديد اتجاهاته على اعتبار أن أساتذته كانوا ممن يمثلون المدرسة البروتستانتية الليبرالية. وهنا فلا يبدو غريباً أن يكون أول عمل يضطلع به هو عمله كمحرر مساعد فى إحدى المجلات البروتستانتية واسعة الانتشار (Die Christliche Welt) وهو العمل الذى استمر فيه عاماً كاملاً من ١٩٠٨ إلى ١٩٠٩. كما عمل مساعداً لأحد الوعاظ فى إحدى إبراشيات سويسرا من ١٩٠٩ إلى ١٩١١ ثم راعياً فى بعض الإبراشيات السويسرية حتى ١٩٢١ وهى فترة اتسمت على أى الأحوال بتعاطفه الشديد مع الطبقة العاملة الصناعية التى كانت تناضل لأجل زيادة أجورها وتحسين ظروف معيشتها .

والواقع أن شهرة بارت بدأت تتكون خلال هذه الفترة بالذات، فلم يمض وقت طويل حتى أصبح معروفاً بمواقفه النقدية المتطرفة لكل من اللاهوت

الليبرالى Libral Theology والنظام الاجتماعى وهى مواقف بلغت درجة من الحدة خاصة بعدما وضح ارتباطه بنوع من التحالف مع اشتراكيي الجنوب الألمانى والاشتراكيين المسيحيين السويسريين الذين كانوا ينضوون تحت قيادة ليونارد راجاز Ragaz وهيرمان كوتر Kutter .

من الناحية الثانية كان اندلاع الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤ والمعاناة الرهيبة التى قاستها الشعوب. بمثابة الظرف الثانى الذى أحدث تغييراً جذرياً فى فكر بارت الديني. فقد صدمه أن يرى كثيراً من المثقفين الألمان ومن بينهم بعض أساتذته السابقين يقفون إلى جانب الحرب ويساندون أهدافها، وهو موقف أدى به على أى الأحوال إلى أن ينفض يديه مما كانوا يطلقون عليه المذاهب التفاؤلية، و«النزعات الإنسانية» و«الاتجاهات التقدمية» و«المعتقدات فوق الطبيعية» وكلها مما وصفه بأنه دنيوى أكثر منه دينى، أو حتى ذو اهتمامات دينية صادقة. ففى اعتقاد بارت أن هذه الاتجاهات والنزعات المتحررة التى ينطوى عليها اللاهوت الليبرالى لم تفعل أكثر من أنها كيفت المسيحية للثقافة الحديثة، وما الحرب العالمية الأولى إلا عرض -على الأقل فى بعض جوانبها- لما أصبح يعيشه الإنسان من اغتراب دينى غير مقدس . ولذلك نجده وقد آمن بأن علم اللاهوت المسيحى فى حاجة إلى ما وصفه بأنه (عملية جراحية) تستلزم وجود نقطة- انطلاق جديدة. وهو ما ضمنه على أى الأحوال مؤلفه «رسالة إلى الرومان» Der Romerbrief الذى نشره فى عام ١٩١٩ .

فى هذا الكتاب الذى ترجم إلى الإنجليزية فى ١٩٣٣، وأعيدت طباعته ست مرات متتابعة أكد كارل بارت على عدم الاتصال بين رسالة المسيحية والعالم. كما أبرز حقيقة أن «الله» هو الكل الآخر، وأنه يعرف فقط بتجسداته وتكشفاته كما أنه ليس حامل ثقافة أو رسول ثقافة، ولكنه حاكمها وقاضيها.

والواقع أن الكتاب كان صدمة عنيفة لقناعة ورضا علماء اللاهوت فى العشرينات، إذ مثل هجوماً عنيفاً على كل الفرضيات والمسلمات المسبقة التى انطوت عليها البروتستانتية الليبرالية فى القرن التاسع عشر. ومن هنا فقد كان

بمثابة فحص جديد للكتاب المقدس وللفكر اللاهوتى أجراه فى ضوء الدراسة الشاملة لرواد الإصلاح الدينى منذ القرن السادس عشر، وبخاصة تعاليم كالفن Calvin (١٥٠٩ -١٥٦٤) وفكر كيركجارد Kierkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) مؤسس الوجودية الدانيماركية وروايات وأعمال دوستويفسكى Dostoevsky (١٨٢١-١٨٨١).

والمهم هو أن الضجة التى أثارها نشر هذا الكتاب نجحت فى أن تجعل بارت الشاب الذى لم يحصل على درجة الدكتوراه محط أنظار علماء اللاهوت الأكاديميين، ونتيجة لذلك فقد عين أستاذاً للاهوت فى جامعة جوتنجن فى ١٩٢١ وجامعة مونستر Munster فى ١٩٢٥ وبون Boon فى ١٩٣٠ .

كذلك كان من نتائج نشر «رسالة إلى الرومان» أن تكونت المدرسة الديالكتيكيةDialectical School من إدوارد زيرنيسن Thurneysen ورودلف بولتمان Bultmann وفردريك جوجارتن Gogarten و أميل برونر Brunner وجورج ميرز Merz وغيرهم من علماء اللاهوت الذين كان لهم أبعد الأثر فى الفكر البروتستانتى . ذلك بالإضافة إلى إنشائه الدورية المعروفة باسم «بين العصور» Zwischen den Zeiten. وبالرغم من أن الاختلافات بدأت تظهر بين أعضاء هذه المدرسة فإن فترة السنوات ما بين ١٩٢١ و١٩٣٥ كانت بمثابة فترة حاسمة فى تطور بارت الفكرى لدرجة يمكن القول بأنها أرست أسس أعماله الفلسفية والعلمية الضخمة. وبخاصة بعد تلك المناقشات الحامية التى خاضها مع أدولف فون هارناك Harnack والتى أعلن فيها عن رأيه بأن ثيولوجيا هارناك العلمية ليست سوى مقدمة فحسب لعلم اللاهوت الحقيقى ورسالته التى تتوحد مع الدعوة والوعظ والإرشاد .

ولكن مع صعود هتلر إلى قمة السلطة بدأ بارت يلج تجربة جديدة قاسية نتيجة تعرض المسيحية الألمانية للاضطهاد الذى مثل أزمة طاحنة اضطر معها إلى أن يهرب من ألمانيا باعتباره أحد القادة الذين تزعموا مقاومة الكنيسة للحكم النازي. والواقع أن بارت كان منذ البداية أحد الخصوم العنيدين للاشتراكية الوضعية National Socialism وللحزب المسيحى الألمانى الذى كان يعمل من خلال الكنيسة البروتستانتية الألمانية . ولكن هذه الخصومة اتخذت شكلاً عنيفاً حاداً

عندما أقدم على نشر كتيبه « وضعية اللاهوت اليوم» Theologische Existenz heute وهو الكتيب الأول ضمن سلسلة من الكتابات تحمل هذا الاسم، حيث مضى يوضح القضايا اللاهوتية الرئيسية ويثير رجال الكنيسة ويحرضهم على المقاومة. ثم كون بالاشتراك مع مارن نيمولر Niemoller الذى يعتبر من كبار اللاهوتيين المعارضين للنازية المجمع الكنسى المعروف باسم سنودس (مجمع) بارمن Synod of Barmen (مايو ١٩٣٤) الذى تبنى إعلان بارمن Barmen Declaration الذى أصبح أساساً «للاعتراف» الذى تأخذ به الكنيسة الإيفانجيليكية (البروتستانتية) فى ألمانيا، معارضاً بذلك الكنيسة القائمة المهادنة للاشتراكية الوطنية، وتلخص المادة الأولى فى هذا الإعلان موقف بارت اللاهوتى أفضل تلخيص، وهى تقول «المسيح عيسى، كما ظهر لنا فى الإنجيل المقدس هو كلمة الله التى يتوجب علينا سماعها، والتى يتعين علينا أن نصدقها ونطيعها ونتبعها فى الحياة والممات» .

وإذا كان هذا الموقف كافياً وحده لأن يفجر الأزمة بين كارل بارت والنازية والكنيسة على السواء، فقد وصل الأمر إلى خط (اللارجعة) عندما رفض التوقيع على القسم الذى فرضه هتلر Hitler على أساتذة الجامعة كى يضمن ولاءهم المطلق غير المشروط .

كل هذا كان كفيلاً بعزل بارت من كرسى الأستاذية الذى يشغله فى جامعة بون واضطره لأن ينزح إلى سويسرا ويقبل كرسى أستاذ العقيدة فى جامعة بازل، وهو العمل الذى ظل يمارسه من ١٩٣٥ إلى ١٩٦٢ وهو العام الذى تقاعد فيه. وإن بقى مع ذلك يمارس تأثيراً متزايداً من خلال تدريسه وأحاديثه الإذاعية وكتاباته التى كانت تجد أصداءها فى دائرة كبيرة من المثقفين فى مختلف أنحاء العالم . حتى أنه أصبح يمثل بؤرة المقاومة المسيحية ضد النظام النازى وأيديولوجيته وبخاصة بعدما أخذ يوجه العديد من الرسائل والخطابات المقترحة لبريطانيا وفرنسا وأمريكا .

عمله الضخم فى هذه الفترة كان مؤلفه « المبادئ أو التعاليم الكنسية» Kirch-liche Dogmatick الذى شرع فى استكماله وهو فى بازل بعد أن كان بدأه وهو فى

جامعة بون، وبالرغم أن من بارت لم يستطع الانتهاء من هذا العمل فقد أنجز منه أربعة مجلدات اشتملت على ١٣ جزءاً جاءت فى أكثر من ٩ آلاف صفحة . وهو عبارة عن عمل موسوعى ملىء بالمواقف والنظريات الثاقبة، وغنى بمادته التاريخية والفلسفية وبتفسيره للمبادئ والتعاليم، ويعتبر فى رأى كثير من البروتستانت ودارسى الكاثوليكية الرومانية أضخم الأعمال الكلاسيكية اللاهوتية التى تمت خلال هذا القرن .

ومع أن بارت طوّر فى هذا العمل الكثير من أفكاره السابقة وعدل بعض القضايا التى كان قد قالها فى سنوات حياته الفكرية المبكرة فقد ظل - كما هو الحال فى كل كتاباته - مرتبطاً بقضيته المحورية القائلة بأن الدعوة والإرشاد سيظلان أبداً الشغل الشاغل لعالم اللاهوت الحقيقى الذى يجب أن يكرس «كل لحظات الأسبوع من الأحد إلى الأحد» لإعلاء كلمة الله. شغله الشاغل ارتياد العالم الذى تم الكشف عنه فى الإنجيل والذى لا يوجد فيه مكان لنظرات أو لمواقف التأمل الداخلية التى تسود الديانات غير المسيحية ؛ فالدين -كما يراه- هو محاولة البشرية للتطلع إلى الله . وهو ما عبر عنه على أى الأحوال فى مؤلفه « إنسانية الله» Die Menschlichkeit Gottes الذى نشر فى ١٩٥٧ وتمت ترجمته إلى الإنجليزية فى ١٩٦١ .

وأياً كان الأمر فإن مواقف كارل بارت اللاتوفيقية على الرغم من أنها كانت بمثابة قوة دافقة لمقاومة سلطة النازي، فقد كانت فى الوقت نفسه عرضة لغير قليل من الانتقاد، وبخاصة فى السنوات الأخيرة من حياته . فبالرغم من أنه أنكر أى مظهرمن مظاهر القداسة للإنسان (أياً كان هذا الإنسان) فقد رآه البعض سلبياً أكثر مما يجب فى تقديره للجنس البشرى وفهمه لقدراته . كما بدا فى ذات الوقت ضيق الأفق عندما حصر (الكشف) فى الإنجيل وفى التراث الإنجيلى واستبعد بذلك الديانات غير المسيحية، علاوة على ما يراه البعض الآخر من أنه أثار بمواقفه الدينية الفكرية المتطرفة الكثير من المشكلات التى أصبح يعج بها الفكر الدينى المعاصر، وبخاصة فى مجال علاقة الإيمان بالعقل وعلاقة الدين بالعلم والثقافة .

• قراءات مقترحة •

Works : Dogmatics in Outline (Dogmatik in Grundriss. 1947).

: Protestant Theology in the Nineteenth Century. (Die Protestantische Theologie) , 1952.

• وانظر أيضاً :

- Andrews, J.F. Comp.; Karl Barth. 1969.

- Bowden, J.S.; Karl Barth. 1971.

- Busch, Eberhard; Karl Barth, 1976.

- Hartwel Herbert.; The Theology of Karl Barth : An Introduction. 1960.

- Kung, Haus; Justification : The Doctrine of Karl Barth . and a Catholic Reflection. Trans by T. Collins (et al) . 1964.

- Oden . Thomas C., The Promise of Barth : The Ethics of Freedom, 1969.

- Torrance, T.P. Karl Barth (An Introduction to his Early Theology (1910-1931) 1962.

- Von Balthasar, Hans; The Theology of Karl Barth. tran By J. Durry . 1972.

* * *

١٢ - بارت، رولان جيرار (١٩١٥- ١٩٨٠)

12 - BARTHES, Roland Gérard

هل يكفى ونحن فى معرض الحديث عنه القول بأن كتاباته طوفت بآفاق كل من الأدب والفن والفلسفة والاجتماع والتربية فى آن، وأنها امتدت بذلك إلى كل جوانب الظاهرة الثقافية، إذ كتب -على سبيل المثال - فى التاريخ وفى وظائف الأدب، مثلما كتب عن الدعاية والإعلان وعن موضة النساء، وعن الزهور والحدائق والتغذية.

قد يكون بمقدورنا القول بأن هذا صحيح، ولكن الأهم منه هو حقيقة أن اهتمامه الأساسى كان يدور حول الظاهرة الثقافية باعتبارها أنساقاً لغوية. فهذه كانت قضيته الرئيسية التى جعلته يحتل تلك المكانة المرموقة كواحد من المفكرين البنائيين على الرغم من صعوبة التسليم بأنه كان (بنائيا) بالمعنى الدقيق للمفهوم .

ولد رولان بارت فى الثانى عشر من شهر نوفمبر عام ١٩١٥ فى شيربورج Cherbourg بفرنسا، وتوفى فى السادس والعشرين من شهر مارس عام ١٩٨٠ فى باريس قبل أن يكمل عامه الخامس والستين، ومع أنه يعتبر من أكثر المثقفين الفرنسيين المعاصرين تأثيراً فى الفكر الفرنسى، فقد أضاف بإسهاماته القيمة إلى (السميوطيقا) Semiotics أى الدراسة الشكلية للإشارات والرموز لدرجة أن الكوليج دو فرانس قد أنشأت له خصيصاً أول كرسى لآداب السميولوجى (علم الإشارات) تكريماً له واعترافاً بمكانته فى الثقافة الفرنسية .

بعد أن أكمل دراسته الثانوية التحق بارت بجامعة باريس . ولكنه أصيب فى عام ١٩٣٣ بالسل الرئوى مما عطله عن السير فى الدراسة بطريقة منظمة حيث قضى بضع سنوات متنقلاً بين المستشفيات والمصحات، وبخاصة ما بين

عامى ١٩٤٢ و١٩٤٧ . وإن كان قد نجح مع ذلك فى (مواصلة) دراساته حتى تخرج وتولى أعمال التدريس فى بعض المدارس .

ولقد حصل بارت على درجة الدكتوراه فى الآداب الكلاسيكية عام ١٩٣٩، وعلى درجة فى فقه اللغة Philologie عام ١٩٤٣، ومع أنه قام فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات بالتدريس فى جامعة الإسكندرية (١٩٥٠)، وقبل ذلك التدريس فى جامعة بوخارست فيما بين ١٩٤٨، ١٩٤٩، إلا أنه حصل على منحة من المركز القومى للبحث العلمى للقيام بأبحا ث فى علم المعاجم والعلامات والرموز خلال الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩، لم يقطعها إلا فى عام ١٩٥٨ لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الصين فى رحلة استغرقت بضعة أشهر، ليعين بعد ذلك فى عام ١٩٦٢ أستاذاً فى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا Ecole Pratique du Hautes Études واستمر فى هذه الوظيفة حتى عام ١٩٧٦ حيث أصبح استاذاً لعلم العلامات فى الكوليج دو فرانس .

وعلى الرغم من أن أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بالأدب وبتاريخ الأدب الفرنسى وأنه اشتهر كواحد من أكبر أعضاء جماعة النقد الأدبيين التى مثلت أكبر الحركات النقدية الحديثة فى فرنسا إبان هذه الفترة، فإن أعماله كانت تنتمى بوجه عام إلى التقليد أو التراث اللاوضعى Anti - Positivism واللاإمبريقى، حيث مضى يهاجم مواقف الوضعيين الذين (يتشدقون) بأن آراءهم وأفكارهم لا تصدر عن مواقف إيديولوجية مسبقة، محاولين بذلك إبراء أنفسهم من تهمة التوجه الإيديولوجى وإن كانت الحقيقة على العكس من ذلك تؤكد أنه موقف هروبى ينبغى الكشف عما ينطوى عليه من زيف، وهو يحاول إضفاء طابع الظواهر الطبيعية على الظواهر التاريخية، الأمر الذى يمكن القول معه بأنه وجد منطلقاته الأساسية فى فكر ماركس (بالرغم من أن الوضعية هى بمعنى من المعانى عبارة عن رد فعل للماركسية بالذات) وكذلك فكر نيتشة Nietzsche وفردينان دو سوسيرDe Saussure وسيجموند فرويد Freud بالإضافة إلى وجودية سارتر وفينومنولوجية باشلار، وهو مزيج ثقافى هائل نجح بارت على أى الأحوال فى أن يتمثله ليفرز موقفه الفكرى من الثقافة ومن العالم .

وقـد يكون من الصـعب حـقـيـقـة اخـتـزال رولان بارت الذى تغلغل فى كل الأوسـاط الأدبيـة والفكرية فى بضـعـة سطور، فهوقد نشـر أكثـر من خمسـة عشـر كتاباً بخـلاف عدد هائل من المقـالات والدراسـات. ومع ذلك يمكن القـول بأن هناك ثلاثة أوجه أو زوايا يمكن رصدها بل والتمييـز بينهـا فى إنتاجه الفكرى وإن كانت تبدو فى النهاية متسقة مع تطور هذا الإنتاج .

أما الوجه الأول فيعكس اهتمـامـاً مزدوجاً لبارت إن صح التعبير حيث انشغل -وهذا من ناحيـة- بتفنيد ونقد الانماط الجامدة التى رأى أنها تسيطرعلى الثقافة البرجـوازية وتصبـهـا فـى قـوالب. ومن الناحيـة الثانيـة، تركيزه على دراسة الثـقـافـة باعتبـارهـا شكلاً as from. وكلهـا اهتمـامـات يمكن رؤيتـهـا فى مـجـمـوعـة من كـتـبـه ومؤلفاته وخاصة تلك التى شهدتها حياته الفكرية المبكرة .

كـان كتـابه الأول «الكتـابة عند درجـة الصـفـر» Le Degré Zero et de L'écriture الذى نشـر فى ١٩٥٣ وهو فى الثـامنة والثـلاثين بعـد أن كـان قـد نشـره علـى شكل سلسلة من المقـالات فى مـجلة Combat عـام ١٩٤٧، انعكاسـا لاهتـمـامـاته بقـضـايا الأدب وتاريخ الأدب الفـرنسى بالذات، حـيث تضـمن تحليـلاً مـتـعـمـقـاً للكتـابة البرجوازية ولعشـوائيـة البناءات اللغوية وتعـسفهـا، وقصد بذلك الكتابة الفرنسيـة التى رأى أنها آخذة فى التـراجع والتهاوى مفسحة الطريق أمـام العديد من الكتابات الأكـثـر حـداثة والتى تصـدر عن قـدر من الالتـزام الذى يـربط الكاتب نفـسـه به. وهو مـالم يعد متوافرا فى الكتابة البرجوازية. الأمر الذى يعنى فى النهاية تقريره لمدى مسئولية الكاتب أمـام نفسه وأمام الآخـرين بما يجعل الكتابة مؤشراً أو دليلاً على الانتـمـاء سـواء إلى الطبـقـة أو المجـتـمع أوالعـصـر ومـا قـد يوجـد به من إيديولوجيات، حيث تبدو عملية الكتابة نفسها والإنتاج الأدبى لأى كاتب أو أديب عملية متفردة ومتميزة إلى حد بعيد نتيجة لحساسية الكاتب أو الأديب واختياره لهـذا الشكل بالذات (الكتـابة) كـانعكاس لقـدرة ذاتيـة يلتـقى عندهـا مـحـور اللغـة ومحـور الأسلوب فيتحـدد من ثم فى ضـوئهـا طابع أدوات تعـبيـره كـاللفظ واللهـجـة وشكل الصياغة التى يتميز بها عن الآخرين .

من الناحية الأخرى وضح أيضاً اهتمام رولان بارت بطبيعة العلاقة بين الكتابة والسير الذاتية على النحو الذى قدمه عام ١٩٥٤ بعنوان «ميشيليه بقلمه هو نفسه» Michelet Par Lui-Même حيث تحدث عن المؤرخ الفرنسى جول ميشيليه. ليؤكد بذلك على حقيقة وجود حديث خفى يقوم وراء الحديث الظاهر الأمر الذى يفرض بالتالى نوعاً معيناً من القراءة التى تستهدف الكشف عن النظام الذى يقول بأنه يقوم دائماً وراء ما يبدو من ظاهر الكتابة. وعلى أية حال فقد كان طبيعياً أن يعكس هذا الاهتمام بالكتابة البرجوازية اهتماماً مماثلاً بما يمكن أن يوصف بأنه الثقافة الجماهيرية كنتاج فرعى لهذه الكتابة التى تعبر فى الحقيقة عن ثقافة الطبقة.

ويعتبر الكثيرون أن كتابه الثانى «أساطير» Mythologies الذى صدر فى عام١٩٥٧ يمثل فى الوقت نفسه أكبر إسهاماته فى مجال محاولة إزالة الغموض الثقافى عن طريق نقده وتفنيده للأساطير التى يتعلق بها المجتمع ويسلم بها دون أن يكون هناك منطق أو أسباب معقولة تدفع لذلك، ويقول بارت نفسه فى مقدمته لهذا الكتاب «هذه الدراسات كتبت شهرياً على مدى عامين تقريباً من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦.. كانت نقطة البداية فى هذا التفكير فى أغلب الأحيان إحساساً بالضيق إزاء الطابع الطبيعى الذى تضفيه كل من الصحافة والفن والرأى العام على الواقع .. فى حين أن هذا الواقع الذى نعيشه هو تاريخى تماما، وباختصار كنت أتألم عندما أرى فى كل لحظة مدى الخلط بين الطبيعى والتاريخى عند الحديث عن حاضرنا.. إن كل شىء فى حياتنا اليومية إنما يرجع إلى تصور البرجوازية لعلاقة الإنسان بالعالم. فنحن نعيش القوانين البرجوازية وكأنها قوانين بديهية لنظام طبيعى.....».

بعد ذلك صدر كتابه «مقالات نقدية» Essais Critiques فى عام ١٩٦٤، وهو العام نفسه الذى ظهر فيه أيضاً كتابه « برج إيفل» La Tour Eiffel، ومن بعدهما «مبادئ أو عناصر السيميولوجيا » Eléments de Semiologie الذى نشر فى أواخر ١٩٦٥، ثم «نقد وحقيقة» Critique et Varité فى عام ١٩٦٦ .

فى الكتاب الأول «مقالات نقدية» ظهر اهتمام بارت بالقضية المسرحية

بعامة وبمسرح برتولد برخت Brecht بخاصة، ولكن من خلال فكر «علامي» عبر عنه فى ثمانى مقالات خاصة بالعلامة المسرحية وتحدث فيها عن برخت وبلزاك Balzac وبودلير Baudelaire والمأساة الإغريقية . ومع ذلك فإن كتابه عن «راسين» Sur Racine الذى كان قد أصدره فى عام ١٩٦٣ يعتبر فى الحقيقة من أهم مؤلفاته فى هذا الاتجاه . ففى هذا الكتاب سعى بارت إلى تحليل عالم راسين المأساوى تحليلاً بنيوياً يكشف عن مستوى التكنيك والقواعد والطقوس والخلفيات الاجتماعية التى يتحرك من خلالها مسرحه . وربما لزم التنويه هنا إلى أن هذا الكتاب كان بمثابة بداية حرب شعواء أثارها أنصار المدرسةالقديمة فى النقد ضد بارت وعلى قمتهم ر. بيكار الذى رد فى عام ١٩٦٦ على كتاب بارت بكتاب صغير عنوانه « نقد جديد أم خدعة جديدة » كان سبباً مباشراً ليصدر بارت كتابه « نقد وحقيقة» الذى أشرنا إليه، وتحدث فيه عن النقد الجديد عامة وعمليتى القراءة والكتابة خاصة، وحدد من خلال هذا مفهومه الخاص للأدب والعمل الأدبى والدور الذى يلعبه الرمز والرؤية الرمزية فى هذا المجال .

وعلى آية حال فإن عمله الأول ولو أنه قد عكس بوضوح مدى تأثره بكل من سارتر وبرخت فإن هدفه الجوهرى كان ولا شك دراسته رموز واتجاهات الثقافة البرجوازية وانتقادها على النحو الذى ظهر فى « اساطير» الذى اعتبر وصفاً لمظاهر المغالاة فى المجتمع الفرنسى البرجوازى، ومحاولة لإزالة ما أطلق عليه البعض الغموض الثقافى الذى تتفشى فيه الأوهام والعادات والخرافات التى يسلم بها المجتمع حتى دون التفكير فى معناها الذى (تفننت) أجهزة الإعلام والدعاية والإعلان والصور والرموز وما إلى ذلك من وسائل التعبير اللفظى التى تعتمد أساسا على الإشارة والرمز فى إخفاء مضامينها الحقيقية اعتمادا على ما تمتلكه من قدرات على الافتعال والتصنيع . فكأنها إذن عملية «فضح» لميكانيزمات الخداع والتمويه عن طريق إثارة شكوك الناس وحفزهم لأن يناقشوا ولأن يتعرفوا ويفسروا بدلا من الاستسلام والتقبل .

أما الوجه الثانى لكتابات رولان بارت فيمثل ما يمكن وصفه بأنه الوجه

السميوطيقى Semiotic الذى بدأ مع قراءاته لأعمال فردينان دوسوسير Saussure الذى يعتبر أول من استخدم كلمة سيميولوجيا Sémiologie والذى اشتهر باقتراحه أن يقوم علم بهذا الاسم يعنى بدراسة أنساق الإشارات (العلامات) ومعانيها، وهو اقتراح أخذ حيزاً كبيراً من كتابه الشهير «دروس فى علم اللغويات العام» Course de Linguistique Générale الذى صدر فى ١٩١٥.

هذا الاهتمام من جانب بارت بكتابات دوسوسير وإن كان قد ظهر فى عدد كبير من مقالاته حتى تلك التى ظهرت فى مرحلة مبكرة والتى كان ينشرها فى مجلة Combat وفى Tel Quel والأدب الجديد des Lettres nouvelles ومثال ذلك مقالته « تصور العلامات» ومقاله « النشاط البنيوي» اللتان نشرتا فى ٦٢، ١٩٦٣، فإن الملاحظ على أى الأحوال أن قراءته دوسوسير كانت بمثابة نقطة تحول تمثلت فى اهتمامه باللغة، ذلك الاهتمام الذى كان بمثابة حجر الزاوية أو نقطة الانطلاق فى موقفه البنائى. ومع ذلك فربما كان أفضل تعبير عن هذه المرحلة كتابه «عناصر علم الإشارات» Élements de Sémiologie الذى نشر فى أواخر عام ١٩٦٥ . بل وقد اعتمد اعتماداً كبيراً على هذا العلم فى كتابه «أساطير» وكذلك كتابه «نظام الموضة» الذى تحدث فيه عن الموضة من خلال حديثه المستمر عن الأدب. فالموضة لا تعدو أن تكون تجربة إنسانية تتحول إلى تيارات واتجاهات تأخذ شكل الحوار والكلام ما بين الأطراف التى تهمها هذه العملية كالمصممين والرسامين والمستهلكين والتجار وأصحاب المحال... إلخ .

والمهم على أى الأحوال أن بارت فى هذه الفترة قد ركز بصفة أساسية على مصطلح «الاشارة» Signe أو العلامة، وهو المصطلح أو المفهوم الرئيسى عند دوسوسير ومن ثم كان ذلك بمثابة مدخله إلى التحليل اللغوى من خلال نظرية اللغة كنسق من العلامات أو الرموز، وهو الموقف ذاته الذى يظهر أيضاً فى (تواصل) Communication تلك الدراسة النظرية التى سعى فيها بارت إلى تطويع النموذج «السوسيري» لدراسة الظاهرة الثقافية وليس اللغة فحسب، كما يعتبر أيضاً كتابه «نظام الموضة» Systeme de La Mode (١٩٦٧) بمثابة تطبيق لمناهج

وأساليب التحليل السيميولوجى، واستخدامها فى مجموعة كاملة من مقالاته التى كتبها فى هذا المجال.

كذلك يظهر الوجه الثالث لفكر رولان بارت بداية من تلك الفترة التى أخذ يبتعد فيها عن سيميولوجية دو سوسير ليقيم ما يعرف (بنظريته فى النص) Theo-ry of the Text التى اعتبرها مجالاً للعب باللغة وبألفاظها وتعابيرها، حيث يعرف الكاتب المبدع Ecrivain لا الكاتب العادى كيف ينتقى الألفاظ وكيف يختارها، وهو ما عبر عنه بأن «النص» عبارة عن مهرجان للكلمات يولد نوعاً من المتعة الفائقة التى تشبه متعة العاشق عندما يهيم فى فيض من هوى معشوقته .

فكأن هناك إذن نوعين من (النص)، ذلك الذى يبدعه الكاتب الحقيقى وهو (النص) قابل لأن ينقل Le Scriptible أو تعاد كتابته أو حتى يجتره المرء لنفسه بما يثيره ذلك من «لذة» عندما يستشعر و (يفهم) المعانى والرموز الخفية الحقيقية التى تقوم وتختفى وراء ظاهر الألفاظ وظاهر سطور النص العادى ذلك الذى ينتجه الكاتب العادى غير المبدع، وهذا من الواضح أنه لا يثير متعة أو لذة وإنما الأغلب أن يكتفى القارئ بقراءته only read، أو هو ما يمكن قراءته على حد قوله Le Lisible.

وعلى الرغم من أن بارت يبدو هنا على غاية من الصعوبة والتعقيد سواء من حيث الأسلوب أوالتركيب اللغوى، وخاصة أن كتاباته التى تناولت هذه النظرية فى النص وأيضاً تطبيقاتها لا تزال جديدة على فهم الكثيرين حتى من بين المثقفين، فقد اعتبر بارت هذا التمييز فى النص تمييزاً جوهرياً عند التقييم، وهو موقف طوره على أى الاحوال فى مؤلفه «متعة النص» Le Plaisir du Texte الذى نشره عام ١٩٧٣ (ظهرت له ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٥)، وذلك عن طريق استعارة الهيئة أو الجسم كنص واللغة كموضوع للرغبة والاستمتاع.

وقد يبدو هذا الكلام فى نظر البعض مليئاً بالغموض الذى يوقع فى غير قليل من الحيرة. ومع أن هذا صحيح فى جملته لدرجة أن وصف البعض هذا الكتاب بأنه كتاب محير وغير واضح فى كثير من المواضع، وهوما أقره بارت نفسه واعترف به، وخاصة أنه لم يعر مسألة الوضوح Clarté الاهتمام الواجب على الرغم

من أن الوضوح فى الفكرة أو فى الكتابة كان دائماً من أبرز السمات التى تميز الثقافة الفرنسية والعقلية الفرنسية عموماً ، فإن الشىء المهم هو أن معظم هذه الكتابات التى كتبها خلال السبعينات ومن بينها (متعة النص) والتى كتبها بارت بشكل متفرق أقرب ما يكون إلى الشذرات، قد مثلت بالنسبة إليه نوعاً من التراجع الواعى عما يراه مجالاً للسيطرة والقوة الخادعتين فى العلاقة بين الذات والموضوع وعادات وأساليب البلاغة وعلم البيان، والتى طالما لجأت إليها البرجوازية المتطلعة للإقناع كوسيلة للسيطرة على الآخرين من الطبقات الأدنى، فهو يميز الآن بين «الأيديولوجى» the ideological و«الجمالي» the aesthetic وبين لغة العلم التى تتعامل مع المعانى المحددة الراسخة الجامدة والتى تتوحد بالعلامة Sign ولغة الكتابة والنقد التى تهدف إلى التنثير والتشتيت، والإحلال والتغيير من طبيعة النظرة إلى كل ما هو مألوف ومعتاد .

وقد يزيد هذا الكلام المسألة كلها غموضاً على غموض؛ لأن معناه أن بارت يهدف بالنص أو بالعمل الأدبى العبقرى إلى أنه يعمل على تشتيت ذهن القارئ لا على تركيزه، وهنا يبدو وكأن لا غاية هناك من العمل، والغريب أن يذهب إلى أن العمل الجيد هو ما ليس له غاية، تكفى المتعة التى يشعرها القارئ وهو يقرأ النص، تلك هى غاية اللغة وغاية العمل الأدبى عموماً .

وربما كان كتابه «إمبراطورية العلامات» L'Empire des Signes الذى صدر فى عام ١٩٧٠ فى جينيف أفضل نموذج قدمه بارت على القراءة النصية textual reading، حيث عالج هنا الكثير من أحداث السلوك اليومى ومظاهر الثقافة كالطهى والاهتمام بالزينة والحدائق والزهور وأساليب تقديم الهدايا، وكلها مما اعتبره بلا آية أعماق حقيقية أو مستترة، وتكشف عن ثقافة تختلف كثيراً عن ثقافة الغرب المألوفة، ويشير بذلك إلى ثقافة اليابان التى يقول بأنها مليئة بالإشارات والعلامات والرموز الدالة Signifiant التى تستمد سحرها وطابعها الخاص المميز من عدم وجود مدلولات أو مضامين تسعى إلى إبرازها والدلالة عليها .

وإذا كان بارت قد ابتعد فى كتابه س/ز S/Z (١٩٧٠) ابتعاداً ملحوظاً عن

دوسوسير، فإننا نلتقى بالأمر نفسه فى مؤلفه «رولان بارت بقلم رولان بارت» Roland Barthes par Roland Barthes الذى ظهر فى ١٩٧٥، ويكاد يكون ترجمة لحياته أوسيرة ذاتية له على الرغم من موقفه الخاص من السير كعمل أدبى.

فى هذا الكتاب، وأيضاً فى كتابه «شذرات فى درس المحب» Fragments d'un Disours Amoureux (١٩٧٨) وهما نموذجان للكتابة (النصية) تكمن الدعوة ذاتها للاهتمام بالنص لذاته حتى وبصرف النظر عن وجود أوحتى محاولة التعرف على الكاتب أو المؤلف . الأدب يمثل عالماً لا متناهياً، أما النص فإنه يمثل لا نهائية اللغة، والمهم هو العلامة أو الرمز الذى تكمن الروح فى أعماقه، ويقول بارت فى هذا الكتاب «أننى أشعر بالسعادة والشقاء معاً فى وقت واحد برغم ما قد يبدو فى هذا القول من تناقض .... إننى أقبل الأمور بل وأجزم بها دون نظر أو اعتبار للصدق والكذب أو النجاح والفشل ..... إننى بعيد تماماً عن الغائية .... أعيش كيفما اتفق» .

ولقد كان طبيعياً أن تؤدى هذه الأفكار إلى كثير من المناقشات والاختلافات فى الرأى وخاصة أن حياته ذاتها كانت أشبه بها، فهى أقرب إلى التشتت والإحلال والتغيير تماماً كما كانت أفكاره وكتاباته موضوعاً لكل هذا، فنجده ينتقل من موضوع لموضوع آخر بل ومن جملة لجملة أخرى بكلمات قليلة، حتى أن مصطلح «السيميولوجيا» نفسه أخذ يستخدمه فى السبعينات بطريقة مغايرة ارتباطاً بالفن وبعلم الجمال ونظرياته وقاده ذلك إلى كثير من المناقشات النظرية المتعلقة بالرواية الجديدة Nouveau Roman أو «اللارواية» كما عبر عنها بعض الأدباء والمفكرين من أمثال آلان روب جرييه Robbe-Grillet وناتالى ساروت Sarraute على وجه الخصوص. ومع الستينات كانت الحركة البنائية التى شارك بارت مع غيره من كبار المفكرين الفرنسيين من أمثال كلود ليفى ستروس Levi-Strauss وميشيل فوكو Foucault وجاك لاكان Lacan قد تمكنت من إرساء قواعدها، وكان ذلك بدوره مثار مناقشات حادة فى دوائر المثقفين الفرنسيين جعلت بارت محوراً لهجومها وانتقاداتها وبخاصة من قبل الأكاديميين التقليديين .

وأيًا كان الرأى فى رولان بارت وفى كتاباته ومؤلفاته، وأيًا كانت المآخذ التى تؤخذ عليها فإن بارت الذى انتهت حياته (٢٦ مارس ١٩٨٠) بطريقة غريبة أيضاً أشبه بكتاباته متأثراً بجراحه إثر حادث سيارة دهمته في أحد شوارع الحى اللاتيني، سوف يظل أشبه بعلامة الاستفهام المعلقة. وحتى إن لم نجد جواباً شافياً فيكفى أنه أثر تأثيراً فائقاً فى كثير من المعاصرين من بينهم جاك دريدا نفسه، وج. كريستيفا وج. جينيه Genette وغيرهم، بل يكفى أنه ترك لنا (متعة) أن نحاول فهم كتاباته و(نصوصه).

• قراءات مقترحة•

- G. de Mallac and M.Eberbech; Barhtes . 1971.
- L. J. Calvet. Roland Barthes. Un Regard Politique sur le Signe. 1973.
- S. Heath; Vertige du déplacement . 1974.
- P. Thody; Roland Barthes: A Conservative Estimate. 1977.

★ ★ ★

١٣ - باسكوم، وليام راسل

13 - BASCOM, William Russell

يعتبر وليام راسل باسكوم واحداً من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الذى يمكن القول بأنه قد شغلتهم موضوعات بذاتها، أو حتى موضوع واحد بعينه ظل محوراً لكتاباته ودراساته طوال حياته العلمية. فقد دارت معظم كتاباته ومؤلفاته إن لم يكن كلها تقريباً حول أفريقيا والفن الافريقى والثقافة الأفريقية عموما. وربما كان هذا التخصص هو الذى يسبغ عليه ذلك الطابع الخاص الذى تميز به والذى يجعل القارئ يكاد يستشعر (وجود) أفريقيا من خلال كتاباته .

ولد باسكوم فى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٩١٢ فى برينستون بولاية آلينوى Illinois الأمريكية . وشغل أثناء حياته (توفى عام ١٩٨٨) العديد من المناصب والمراكز العلمية والعملية المرموقة. فقد تلقى تدريبه فى جامعة ويسكنسن Wisconsin ونورث وسترن North western التى حصل منها على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٣٢ وعمل بها مديراً للدراسات الأفريقية (١٩٥٣ - ١٩٥٧) ورئيساً لقسم الأنثروبولوجيا (١٩٥٦ - ١٩٥٧) . ثم عين فى العام نفسه (١٩٥٧) أستاذاً للأنثروبولوجيا ومديراً لمتحف روبرت لوى Lowie بجامعة كاليفورنيا . كذلك شغل باسكوم عدداً من المناصب الرسمية فى أفريقيا الغربية فى الفترة من ١٩٤٣ - ١٩٤٦، كما عين باحثاً رئيسياً فى مركز بحوث فولبرايت Fulbright (١٩٥٠ - ١٩٥١) وشارك فى كثير من البعثات العلمية والدراسات الميدانية سواء فى أفريقيا أو فى غيرها، فقام بدراسة قبائل الكيووا Kiowa فى أوكلاهوما والجالا Gullah فى جورجيا وجنوب كارولينا والبنوبى Penope فى جزر كارولين وأيضاً فى كوبا Cuba. علاوة على عضويته للمعهد الأفريقى الدولى، ورئاسته لبعض الجمعيات الأنثروبولوجية وجمعيات الفنون الشعبية .

ولا شك فى أنه كان لهذا التكوين الأكاديمى والخبرة الميدانية والعلمية الواسعة آثارها التى وضحت فى كتاباته ومؤلفاته التى ميزته كثيراً عن غيره من الأنثروبولوجيين فى مجالات الدراسات الأفريقية بعامة. ولقد قدم باسكوم بداية من أواسط الخمسينات على وجه الخصوص عدداً منْ المؤلفات الرئيسية التى تعكس هذا الطابع المميز الذى يعتمد بصفة أساسية على المادة والمعلومات الأثنوجرافية التى جمعها أثناء رحلاته الميدانية .

فى عام ١٩٥٩ ظهر كتابه المشهور «الاستمرار والتغير فى الثقافات الأفريقية» Continuity and Change in African Cultures وبالرغم من أن هذا الكتاب قدمه بالاشتراك مع ميلفيل هرسكوفيتز Herskovits (١٨٩٥ - ١٩٦٣) فإنه يعتبر من وجهة نظر الكثيرين الأساس الحقيقى الذى بنى عليه باسكوم شهرته كأحد المتخصصين المبرزين فى الدراسات الأفريقية. والكتاب فى الحقيقة مجموعة من المقالات والدراسات التى كتبها لفيف من الخبراء الأنثروبولوجيين المتخصصين فى مختلف فروع العلم الاجتماعى بعامة، والتى تدور بصفة اساسية حول مشكلات التغير الاجتماعى والثقافى، بمعنى أنه دراسة شاملة للظواهر المتصلة بالاستمرار والتغير فى الثقافات الأفريقية وخاصة مع تزايد الاحتكاك بالثقافة الأوربية نتيجة للاستعمار ونتيجة للغزو الثقافي، وبتعبير آخر هو محاولة للإجابة على سؤال كبير عما إذا كان للتغيرات الطارئة على الانساق البنائية والثقافية الأفريقية تأثيرها فى استمرارية الثقافات الأفريقية بملامحها الأصيلة ومكوناتها التقليدية، أم أنها قضت على استمرارية هذه الانساق، أم أن فى هذه الأنساق ما يكفل لها الدوام والاستمرار، بل وإمكانات التطور والارتقاء .

الكتاب الذى يعتبر أهم كتبه على الإطلاق صدر بعد ذلك بعشر سنوات (١٩٦٩) بعنوان «الكهانة والعرافة والتنبؤ عند الإيفا : الصلة بين الآلهة والبشر فى غرب أفريقيا» : Ifa Divination: Communication Between Gods and Men in West Africa وقد درس فى هذا الكتاب نسق الكهانة والعرافة عند قبائل اليوروبا Yoruba (نيجيريا) فى ضوء دراسة ميدانية كان قد قام بها عام ١٩٣٨ ثم بعد ذلك فى

عامى ١٩٥٠، ١٩٥١ وأوضح بالتفصيل كيفية انتقال خصائص هذا النسق وأسراره بطريقة شفاهية عن طريق كهنة الإيفا Ifa Priests وعرافيهم، مما جعله يتحول إلى نوع من الممارسة أو الحرفة التى تقوم على ما يشبه نظام «التلمذة» الذى يتلقى فيه «الصبي» أسرار المهنة على أيدى «معلمه» صاحب الحرفة، ومع أنه قد ظهرت له خلال هذه الفترة (١٩٥٩ - ١٩٦٩) بعض الكتب والمؤلفات لعل أهمها «الفنون الأفريقية » African Arts (١٨٦٧) و « قبائل اليوربا فى جنوبى غرب نيجيريا The Yoruba of Southwestern Nigeria (١٩٦٩) و «الدور الاجتماعى للفرق الدينية عند اليوربا » The Sociological Role of The Yoruba cult -group . فإن كتابه «الكهانة والعرافة والتنبؤ عن الإيفا» سيظل مع ذلك العلامة المميزة لما قدمه وليام باسكوم على الرغم من مرور أكثر من ربع قرن من الزمان على صدوره .

الهدف الأساسى الذى عكف باسكوم على تحقيقه فى كل كتاباته هو إبراز مكونات الثقافة الأفريقية، ولهذا فقد ركز على دراسة الفنون الأفريقية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى عصر الدول والممالك الأفريقية المعاصرة . كما اهتم ببحث خصائص التكوينات العرقية وتأثيرها فى هذه الثقافات ارتباطاً بالمناطق اللغوية المختلفة التى تتعدد فى القارة وتتشعب أصولها، وبالتالى التأثيرات المتبادلة بين هذا الكل المركب والتكوين الديموجرافى لسكانها وشعوبها فى محاولة للكشف عما إذا كانت عملية تبنى التجديدات السياسية قادرة على إحداث تغيرات جذرية فى أنماط هذه المجتمعات وفى ثقافتها وفنونها .

ويعتبر كتاب « الفنون الأفريقية» نموذجاً للاهتمام بموضوع الفن الأفريقى حيث أخذ يستقصى تاريخ الفنون الأفريقية ويتتبع أصول الأشكال الفنية المختلفة وأساليب التعبير الفنى للتعرف على وظيفة الفن الدينية والجمالية. ولقد ذهب باسكوم - على العكس من الاعتقاد السائد بأن هذه الفنون ترجع إلى الحقب المتأخرة من العصر الحجرى القديم - إلى أن الفنون الأفريقية، وبخاصة النقوش والصور الملونة التى رسمت على الصخور وحفرت فوق جدران الكهوف لم توجد قبل نهاية العصور الحجرية المتأخرة بعد انتهاء عصر البلستوسين مباشرة، وهى

الفترة التى انتشرت فيها هذه الفنون بشكل واسع وبخاصة فى شمال غرب أفريقيا وفى الصحراء الكبرى وفى جنوب غرب أفريقيا وفى جنوبها. الشىء الجوهرى بالنسبة إلى باسكوم هو أن هذه الفنون أياً كانت صور التعبير عنها والوسائل التى استخدمها الفنان الأفريقى كالأقنعة والتماثيل الصغيرة والأشكال الخشبية والصور الملونة والرسومات المحفورة، إنما تمثل فى النهاية سجلاً فريداً لحياة الشعوب والأجناس التى عاشت تلك الحقب السحيقة، وهو سجل يعطى صورة عن معتقداتها وأفكارها ومظاهر الحياة وموقف الإنسان الافريقى من الكون .

أما كتابة، «الكهانة والعرافة» فترجع أهميته فى نظر كثير من الكتاب إلى طبيعة الموضوع الذى يتناوله، وهو من الموضوعات التى نجحت فى جذب أعداد متزايدة من الباحثين والقراء على السواء، وذلك على اعتبار أن الإنسان منذ أقدم العصور أحب دائماً أن يحول تجربته الحياتية إلى أساطير وقصص شعبى وروايات (فولكلور)، وسواء اختزلت هذه الأنواع الفكرية الأدبية التجربة إلى ما تنطوى عليه من رمز وإيحاء، أو حتى عن طريق الصور المباشرة التى تحمل بدورها معانى واضحة ومباشرة، فقد أصبحت على أى الأحوال وسائل يعبر بها الإنسان عن كثير من مثله العليا، ومن هنا امتزاجها بمختلف العناصر الدينية والفلسفية والفنية، وتأخذ من ثمة هذه الأساطير والقصص والروايات التى تنتقل شفاهة عبر الأجيال طابعها الفريد المميز .

ولقد تناول باسكوم بالدراسة والتحليل نسق هذه الممارسات وما تتضمنه هذه النسق من طقوس وشعائر ورموز وإشارات، وكذلك الغايات التى تهدف إليها هذه الأنساق سواء أكانت أهدافاً خيرة أو شريرة، وبالتالى خصائص ومواصفات أولئك الذين «يمتلكون» حق ممارسة تلك القوي (غير المشخصة) والظروف التى يعترف فيها المجتمع بهذه الممارسات أو يرفضها، وبالتالى نبذ القائمين بها أو الاعتراف بهم وتقديرهم إن لم يكن تقديسهم فى كثير من الاحيان .

ويخلص وليام باسكوم من كل هذا إلى نتيجة أساسية، هى أن هذه الممارسات فى مثل تلك المجتمعات البسيطة ينظر إليها المجتمع نظرة مغايرة تماماً

لنظرة المجتمع المعاصر (ولو أن السحر والشعوذة والتنبؤ والعرافة والتنجيم كلها أمور تشيع فيه بل وتكاد تسيطر على عقلية قطاعات عريضة منه)، ولكنه يعتبرها على أى الأحوال وسائل (ناجحة) تساعده على السيطرة على المشكلات والتغلب على المخاوف والصعاب إن لم يكن التحكم فى هذه القوى المسيطرة والخارقة ذاتها وإخضاعها لإرادة الإنسان ورغباته، وهنا كما يذهب باسكوم نقطة التقاء بين هذه الممارسات جميعها من ناحية وبين الفن من ناحية ثانية، فهو يعتقد أن كلا من هذه وتلك يعتمد اعتماداً أساسياً على الخيال مثل اعتماده على الرمز، وهو ما اعتبره أدق خصائصهما معاً .

● قراءات مقترحة ●

Works : Bascom . W.R. and Waterman, R.A, African and New World Negro Folklore, in Funk and Wagnalls Dictionary of Folklore, Mythology and Legend. (ed.) .M. Leach.1949.

--; Social Status, Wealth and Individual Differences Among the Yoruba . American Anthropologist III , 1951.

--; The Principle of Seniority in the Social Structure of the Yoruba. American Anthropologist XLIV. 1942.

● وأنظر أيضاً :

- Fitzgerald, Walter; Africa, 1950.
- Huntingford, G.W.B., The Southern Nilo-Hamites: Ethnography Survey of Africa East Central Africa. 1953.
- Ottenberg, Simon and Phoebe; Cultures and Societies of Africa . 1960.

★ ★ ★

١٤ - باستيد، روجيه

14 - BASTIDE, Roger

بالرغم من أن عالم الاجتماع الفرنسى روجيه باستيد قد تربى فى ظل تقاليد المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع، وأنه تخصص مثل غالبية أعضاء هذه المدرسة وعلى رأسهم إميل درو كايم فى دراسة الظاهرة الدينية، بل وتأثرمع غيره من كتاب وعلماء العشرينات والثلاثينات من أمثال مالينو فسكى وجورج جيرفيتس Gurvitch بأفكار مارسيل موس Mauss (ابن أخت دوركايم) الذى يعتبر بدوره واحدا من أقطاب هذه المدرسة والأمين التقليدى على فكرها، إلا أنه درس الظاهرة الدينية من أكثر من زاوية، لا باعتبارها نظاماً اجتماعياً فحسب كما ذهب غالبية هؤلاء، ولكن أيضاً من حيث علاقة الدين ببعض الظواهر الأخرى فى المجتمع مثل السحر والأساطير التى تنتشر بصفة خاصة فى المجتمعات البدائية والبسيطة، بالإضافة إلى علاقته (الدين) بالعقل وبالعلم، وهى قضايا يهتم بها المجتمع الحديث، وذلك بهدف توضيح الأثر والتأثير المتبادلين بين النظم الدينية وغيرها من النظم الاجتماعية التى تشكل الكل الاجتماعى. وقد دفعه هذا إلى الاهتمام بفحص الأفكار الموضوعية والذاتية فى الدين والتى ترددت فى كتابات ونظريات كبار المفكرين وبخاصة روبرتسون سميث Robertson Smith الذى يعتبر مسئولاً إلى أبعد الحدود عن نظرية دور كايم فى الدين.

وبوجه عام يمكن القول بأن باستيد قد ارتبط بالمفهوم الشائع للدين كتفسير لعلاقة الإنسان بالكون وبالمحيطات من حوله، والممارسات والشعائر التى يستخدمها الإنسان فى هذه العلاقة. ومع أن قراءاته المتعمقة للتراث قد مهدت ولا شك الطريق أمامه لكى يبلور مواقفه الخاصة، فقد نزع فى معظم هذه المواقف إلى إبراز

الجوانب السيكولوجية للدين، مما باعد بينه وبين الخط العام الذى سارت فيه المدرسة الفرنسية، واعتمد فى ذلك على مبدأ الوحدة السيكولوجية للجنس البشرى، وهو موقف يتفق كثيراً مع ما ذهب إليه بعض كبار المفكرين، وبخاصة أندرو لانج Lang الذى يعتبر من أكبر المهاجمين لنظرية دور كايم فى الدين، حيث اعتبره نزعة فطرية خالصة مؤكداً بذلك على أن «الله» إنما يتجلى للفرد وليس للمجتمع .

هذا الموقف المبدئى الذى نجده عند باستيد يتسق كثيراً مع تفسيره للتطور الإنسانى والمراحل التى مر بها الفكر الاجتماعى، إن لم يكن منبثقا عنه، وهى المشكلة التى شغلته كثيراً وتعرض لها فى كتابه الشهير « مبادئ علم الاجتماع الديني» Eléments de Sociologie Religieuse الذى صدر فى عام ١٩٤٧، حيث ركز باستيد هنا على مناقشة وضعية أوجيست كونت الذى وصفه بأنه جعل من علم الاجتماع تاريخاً للفكر الإنسانى وذلك عندما توصل إلى قانونه الشهيرباسم قانون الحالات الثلاث Loi de trois états وهو القانون الذى تصور به كونت أن الفكر الإنسانى ينتقل مع تقدم المجتمع وتطوره من المرحلةالغيبية (اللاهوتية) إلى المرحلة الوضعية، مما يعنى أن تطور المجتمع البشرى أمر يلازمه ابتعاد الإنسان عن الدين، وهذا ما رفضه باستيد على أساس أنه لا يوجد من الشواهد أو الوقائع التاريخية ما يؤيده، فما زال الدين والتصورات الدينية وما تشتمل عليه من قواعد ومثل ومبادئ أخلاقية لها دورها الخطير فى المجتمعات المختلفة بصرف النظر عن تقدمها أو تأخرها .

وعلى العكس مما كان يذهب إليه كثير من علماء الاجتماع الذين جذبتهم آراء إميل دوركايم الذى ذهب إلى أن الدين ظاهرة اجتماعية، وخلط بذلك بين الظاهرة الدينية والظاهرة التاريخية، وبخاصة عندما قرر فى كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» Les Formes Elementaire de la Vie Religieuse (١٩١٢) أن الدين من صنع المجتمع، وأنه ينحصر فى عبادة المجتمع لنفسه، وأن كل ماهو دينى اجتماعى، نجد أن روجيه باستيد قد مضى يكشف عما فى ذلك من خلط وتداخل، فقرر أن دور

كايم قد فشل فى إدراك أن الدين عاطفة فطرية لدى كل إنسان، ونتيجة لهذا فهو لم يميز بين ما هو دينى يتجسد فى الشعور الذاتى وبين ما هو اجتماعى، مما ترتب عليه إغفاله للجوانب الذاتية فى الدين نزولاً على اتجاهه العام الذى ينكر الظاهرة الفردية .

والواقع أن دور كايم تحت وطأة النظام الاجتماعى ونتيجة لأنه لم يضع خطاً فاصلاً بين ما هو ذاتى وما هو اجتماعى فى الدين، قد تجاهل حقيقة أن الدين قد بدأ نقياً خالصاً بعيداً عن تلك الطقوس والشعائر التى تغلفه والتى تحوله إلى شىء إستاتيكى، وكأنما يكفى الوقوف على ماهية الدين أن يتم ذلك من خلال دراسة مجموعة الطقوس والشعائر وبعض الأرقام والإحصاءات وما إلى ذلك مما يصيب الفطرة السليمة بغير قليل من التشويه .

كذلك وجه روجيه باستيد غير قليل من الانتقاد إلى تفسير دوركايم للدين الذى أقامه على النظرية التوتمية أو الديانة التوتمية التى اعتبرها أقدم الأديان. فالتوتم ليس إلا موضعاً للاحترام العائلى، وذلك على أساس أن أفراد الوحدة العائلية عشيرة كانت أو عائلة لا يكونون عشيرتهم أو عائلتهم على أساس صلة الدم وإنما على أساس اشتراكهم فى الاسم والرمز التوتمى اللذين يتمتعان بالاحترام والتقديس، وهو الأمر الذى ينهدم معه الركن الدينى فى الحقيقة، لأن التوتمية بذلك تكون أقرب وأكثر تعلقا بالنظام العائلى وهو نظام اجتماعى أياً كان نمطه أو نوعه، منه الدين. فالتوتمية بما أسبغه عليها دور كايم من عناصر القداسة وعنصر الجماعية اللذين اعتبرهما اساساً للدين، والممارسات الدينية ليست فى الواقع من الدين فى شىء، وهو موقف ربما وجدنا بذوره فى كتابات الأب شميدت Schmidt الذى انتقد دوركايم عندما أقام من التوتم إلهاً واعتبر التوتمية ديانة تؤله المجتمع، وهو ما نجده أيضاً فى كتابات موريس جينز برج Ginsberg التى انتقد فيها نظرية دور كايم فى الدين.

وبالرغم من أن هناك من يعتقد بأن الدراسات السيكولوجية للدين قد أصابها غير قليل من التراجع بعد تلك الإسهامات المبكرة لسيجموند فرويد

وبخـاصـة كـتـابه «التـوتم والتـابو» والمناقـشـات التى أثارها بعض أعـضـاء التـحليل النفسى، فإن كتاب باستيد الثانى «علم الاجتماع والتحليل النفسي» الذى قدمه فى ١٩٥٠ والذى يعتبر فى الحقيقة امتداداً لكتابه الأول «مبادئ علم الاجتماع الديني»، قد اشتمل على مناقشة ممتعة للجوانب السيكولوجية فى الدين، من خلال ما يعكسه من علاقات بين علم الاجتماع وعلم النفس الفرويدى .

وكعادته فى تأصيل الأمور اهتم باستيد فى هذا الكتاب اهتماماً خاصاً بمناقشة الكثير من الرؤى والقضايا التى طرحها فكر السير جيمس فريزر Frazer وتايلورTylor وهوبير Hubert وموس أثناء معالجاتهم الظواهر السحرية، وتناولهم لطبيعة العلاقات بين الدين والعلم والسحر، وما انطوت عليه هذه المعالجات من مظاهر المغالطة والتسطيح .

ولا ينكر باستيد الكم الهائل من المعلومات والمادة والأمثلة الأثنوجرافية التى يمتلئ بها كتاب فريزر «الغصن الذهبي» Golden Bough الذى يعتبر أهم كتبه وأشهرها بما ينطوى عليه من موضوعات تتصل بأمور الدين والسحر والشعائر والفولكلور والأساطير، ومع ذلك فإنه لا يتردد فى أن يصف معالجة فريزر للدين والسحر بأنها معالجة سطحية لا عمق فيها، بل وتنطوى على غير قليل من الأحكام والتقارير الخاطئة وخاصة عندما يقرر فريزر أسبقية السحر على الدين، وكذلك بعض المشابهات بين منهج العلم ومنهج السحر.

وصحيح أن فريزر قد أقام تمييزات واضحة بين الدين والسحر فى مقدمتها أن الدين يقوم أساساً على الاعتقاد فى الكائنات الروحية أو الإلهية، بينما يتألف السحر من الأعمال والشعائر التى تتصل بالكائنات الأخرى. وهو فى هذا يتفق مع الاتجاه التطورى الذى ساد الفكر الاجتماعى (وغيره) فى القرن التاسع عشر .

ولكن الانتقاد الذى يوجهه باستيد ينصب على ادعاء فريزر بأسبقية السحر على الدين فى الزمن وتقريره بأن السحر هو الطريق الطبيعى التى سلكته البشرية للوصول إلى العلم مروراً بالدين، فما يؤكده باستيد أن فكرة الدين إنما هى فكرة قديمة قدم الإنسان نفسه، ويستخلص من ذلك كذب الافتراض الذى ارتبط به

التطوريون من أن الإنسان البدائى لم يعرف الدين الذى ربطوه بالأشكال الأكثر تقدماً فى الحضارة .

من الناحية الأخرى أنكر باستيد أيضاً المشابهات بين منهج العلم ومنهج السحر، وبالتالى تلك القوانين السحرية التى يقول بها هؤلاء لتفسيرهم الظواهر السحرية، ففى اعتقاده أن محاولة التقريب بين السحر والعلم من ناحية، وأنهما يتعارضان مع الدين من ناحية ثانية، مسألة لا تخلو من الخلط والادعاد، وخاصة من حيث القول بأن القوانين التى تقوم وراء السحر والعلم هى نتيجة حتمية لترابط الأفكار وتداعى المعانى، فليس هناك سوى شبه ضعيف جداً بين موضوع السحر وصورته مما يعنى أن السحر أمر تأويلى إلى أبعد الحدود .

بل إن هناك فى رأى باستيد اختلافاً جوهرياً بين العلم والسحر من حيث المنهج أيضاً. وكما يقول «فإن الخاصية الأولى للعلم هى روح النقد، ولم يولد العلم إلا عندما لجأ الباحثون إلى حكم العقل بدلاً من النقل » . على حين أن السحر هو على العكس من ذلك أسير للحدود التى تضعها التقاليد وتحددها بشكل تحكمى، علاوة على أنه لا يوجد أى شبه بين منطق العلم ومنطق السحر، حيث تؤكد الملاحظة الموضوعية الثاقبة أن مجال السحر ونطاقه يضيقان مع تزايد اتساع مجال العلم ونطاقه.

● قراءات مقترحة ●

Works: Le Candomblé de Bahia , 1958.

● وانظر أيضا:

- Frazer, J.G.; Magic and Religion . 1944.
- Norbeck, E., Religion in Primitive Society. 1961.
- Robertson, R., The Sociological Interpretation of Religion . 1970 .

★ ★ ★

١٥ - بودوين دوكورتنى، جان نيتشلو (١٨٤٥ - ١٩٢٩)
15 - BAUDOUIN, de Courtenay, Jan

هو العالم اللغوى البولندى جان نيتشلو بودوين دو كورتنى Jan Niecislaw Baudouin de Courtenay الذى ساعد كثيراً فى تطوير علم الأصوات أو علم الأصوات التركيبى Phonology كما يطلق عليه البعض، وهو العلم الذى يهتم بدراسة وظيفة الأصوات فى البناء اللغوى Linguistic Sturcture وما يقوم بينها من علاقات بمعنى النظام الصوتى Sound System .

ولد بودوين دوكورتنى فى ١٣ مارس عام ١٨٤٥ فى راتسمن Radzmin ببولاندا (الإمبراطورية الروسية وقتذاك) وتوفى وهو فى الرابعة والثمانين فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩٢٩ فى وارسو Warsaw. ويمثل مكانة مرموقة بين علماء اللغة نتيجة لموقفه الخاص الذى نظر إلى أصوات اللغة Language Sounds على أنها ذاتيات أو كيانات بنائية Structural entities أكثر منها مجرد ظواهر فيزيقية وأسهم بذلك فى الجهود اللغوية الحديثة التى تهتم اهتماماً زائداً بالبناء اللغوى الأمر الذى انعكس بوجه خاص فى تفكير كثير من علماء اللغة البنائيين .

بدأت حياته العلمية الطويلة فى التدريس بجامعات أوربا الشرقية فى ١٨٧١ ووصل فى هذا الاتجاه إلى مرتبة الأستاذية من جامعة سان بترسبرج St. Petersburg التى أصبحت الآن جامعة ليننجراد، وأيضاً فى جامعة وارسو وذلك خلال الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ .

والواقع أن بودوين دوكورتنى لم يكن بعيداً عن الاتجاهات العامة التى سادت الدراسات اللغوية فى القرن التاسع عشر، من حيث إن البحث فى اللغة قد اتخذ طابعاً تاريخياً مميزاً، ومن حيث أيضاً أن أحد الأغراض الرئيسية لهذه الاتجاهات

كان يتمثل فى تجميع اللغات فيما يعرف بالفصائل أو العائلات اللغوية، وعزز من ذلك أنه كان متخصصاً فى اللغويات المقارنة Comparative Linguistics أو علم اللغة المقارن الذى يختص بدراسة مجموعة من اللغات التى تنتمى إلى فصيلة لغوية واحدة، بمعنى أنها ترجع جميعها إلى أصل واحد مشترك، وذلك بغرض أساسى هو إعادة بناء اللغات القديمة والكلاسيكية فى ضوء ما يتكشف من علاقات التشابه أو التغاير والاختلاف .

وليس من شك فى أن هذه الدراسات اللغوية التاريخية Historical or Dia-chronic التى اعتمدت أساساً على المنهج المقارن قد افادته كثيراً فى التعرف على التغيرات التى تطرأ على اللغة، وفى محاولة فهم الكيفية التى تمت بها هذه المتغيرات والأسباب التى ترجع إليها فى الزمان، أو بتعبير آخر، أفادت هذه الدراسات فى التعرف على الكيفية التى تتشعب بها اللغات الأصلية الأولى أو اللغات الأم إلى العديد من اللغات المستقلة، وهو ما شارك فيه فردينان دوسوسير نفسه وبخاصة فى كتاباته المبكرة مشاركة فعالة على اعتبار أنه يرجع إليه الفضل فى إطلاق مصطلح diachronic بمعنى تاريخى أو خلال الزمن أو تطورى. ولكن ما يعنينا على أى الأحوال بالنسبة إلى بودوين دوكورتنى أنه قد تحول من هذا التخصص إلى الاهتمام بدراسة المشكلات اللغوية العامة التى تطرأ على نظم الاصوات اللغوية وفى مقدمتها المشاكل التى تنتج عن الاختلاط اللغوى، أو التجاور اللغوى وبما يعرف عموماً بمشكلات التغير الصوتى Sound Change، بالإضافة إلى اهتمامه بلغة الطفل، وتلك المباحث التى تدور حول التعرف على آثار البناءات اللغوية على نظرة الإنسان إلى العالم .

وبالرغم من أننا لسنا هنا فى معرض الحديث تفصيلاً عن مظاهر هذا التغير الصوتى فربما كان أوضح الأمثلة على هذا التغير ما يعرف بالمماثلة- Assimilation والمخالفة Dissimilation باعتبارهما فى مقدمة الظواهر التى يتخذها التغير الصوتى. والمماثلة كما يراها اللغويون المحدثون هى مجاورة صوتان لغويان فيتبع الصوت الأول الصوت الثانى حتى تتحقق سهولة النطق بسبب التوافق

والانسجام الذى حدث بين الصوتين، أوقد يحدث العكس فيتبع الصوت الثانى الصوت الأول . على حين يقصد بالمخالفة قلب أحد الاصوات إلى صوت آخر يختلف عن الصوت المجاور له فى الكلمة، أى العملية التى يكون نطق أحد الأصوات فيها مخالفا لنطق الصوت المجاور، وكلها على أية حال مسائل شائكة دفعت العلماء إلى محاولة الوصول إلى نظرية عامة فى التغير الصوتى الذى اختلف البعض فى نظرتهم إليه ما إذا كانت التغيرات الصوتية مما يتوجب النظر إليها -لكى نفهمها - من خلال السياق أو الموقف التركيبى .

وربما كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت بودوين دو كورتنى متضمنة فى ذلك الاختلاف الذى قسم العلماء فى نظراتهم إلى طبيعة هذا التغير الصوتى وميكانزماته حيث ذهب بعضهم إلى أن التغير الصوتى لا يكون بالضرورة تغيراً فونولوجيا أى متعلقا بعلم الاصوات التشكيلى أو التركيبى الذى يختلف عن علم الأصوات اللغوية الذى اعتقد أنه يهتم بدراسة أصوات الكلام بوجه عام، أى دون أن يهتم اهتماماً خاصاً بلغة معينة من اللغات، وإنما ينصب أساساً على البحث فى أقسام الأصوات ومقومات كل قسم منها وخصائصه الطبيعية والطرق التى ينطق بها الإنسان وكيفية إخراج الأصوات والعمليات الفسيولوجية التى تتم فى الجهاز النطقى والتى يقوم بها المتكلم من غير أن يربطها بوظيفتها اللغوية .

يتبلور هنا بالذات الإسهام الهائل الذى قدمه للتمييز بين الدراسة الفونولوجية وعلم الأصوات اللغوية أو ما يعرف بالفونتكس Phonetics من حيث إن الأولى تهتم بالنظام الصوتى بمعنى التركيز على توضيح الوظيفة التى تقوم بها الأصوات فى البناء اللغوى، وتوضيح طبيعة العلاقات التى تربط الأصوات بعضها ببعض لتبدو فى اخر الأمر كنظام أو نسق محددله دلالته، ومن هنا تلك التسمية التى تطلق أحيانا على علم الفونولوجى كعلم الأصوات الوظيفى أو علم الصوتيات .

والواقع أنه كان لبودوين دو كورتنى الفضل فى أنه قدم إلى هذا الفرع المتخصص مصطلح الفونيم Phoneme الذى قصد به ذلك الصوت الكلامى الذى يميز المعانى، ولعل أفضل مثال لذلك حرف b على سبيل المثال فى لفظ Bit الذى

يميـزه عن الشكل Pit أو Fit أو Sit . فكأنما الفونيم هو إذن أصـغر وحدة صـوتيـة يسهل التمييز فى ضوئها بين معانى الكلمات، وهى صور ذهنية محدودة العدد على العكس من الألفـونات Allphones التى هـى الأصـوات المنطوقـة بالفـعل أو التغـيـرات والتنوعات الصوتية التى لا يمكن حصر تشكيلاتها .

وأيًا كان الأمر فالمهم هو أن بودوين دو كورتنى قد عبر عن ذلك كله فى كتابه «مقـال فى نظرية البـديل الصـوتي» Versuch eier Theorie Phonetislher Alternationen الذى قـدمـه فى عـام ١٨٩٥ (ترجم إلى الإنجليـزية بعنوان «مـقـالة فى نظرية الفونتكس» Essay on a Theory of Ponetic Alternation وهو الكتاب الذى أصبح بمثابة أحد الأسس الهامة فى اللغويات الحديثة.

وعلى الرغم من أنه كان يكتب باللغة الألمانية فقد أصبح معروفاً على نطاق واسع لقارئ الإنجليزية بعدما ترجمت معظم أعماله إلى هذه اللغة . وربما كان من أهمها مؤلفه : Anthology : The Beginnigs of Structural linguistics الذى ظهـر فى ١٩٧٢ بعدما قام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية إدوارد ستانكيفيش Stankiewicz .

★ ★ ★

١٦ - بيرد، تشارلز أوستن

16 - BEARD , Charles Austin

ترجع شهرة المؤرخ وعالم السياسة والاجتماع والاقتصاد الأمريكى تشارلز أوستن بيرد إلى تفسيره الاقتصادى لتطور المؤسسات والمنظمات الأمريكية، وهو التفسير الذى ركز فيه على ديناميات الصراع الاقتصادى والاجتماعى والعوامل المؤدية إلى التغير الاجتماعى، ذلك إلي جانب انتقاداته العنيفة التى وجهها إلى مختلف الدعاوى القائلة باليقين العلمى Scientific Certitude فى البحث الاجتماعي، وتحليله للعوامل الدافعية فى تأسيس المؤسسات والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية.

ولقد ولد بيرد بالقرب من نايتس تاون Knightstown بولاية أنديانا الأمريكية فى شهر نوفمبر عام ١٨٧٤، وكان لظروف مولده ونشأته الأولى أبعد الأثر فى تحديد مساره العلمى والعملي، فهو ينتمى لأسرة ثرية تعتنق المبادئ الجمهورية وتتمسك بها، ومكنته هذه الوضعية من ولوج الحياة السياسية فى سن مبكرة نسبياً حيث عمل فى جريدة «لواء نايتس تاون» التى يمتلكها أبوه، وهو عمل ساعده على أن يتكشف فى نفسه ميلاً للسياسة والدبلوماسية، فقام وهو لا يزال طالباً فى جامعة دو باو De Pauw فى جرين كاسل بزيارة لشيكاغو التى تولدت فيها علاقاته الأولى المبكرة بالصناعة الأمريكية وبمظاهر الفاقة التى تعيشها الطبقة العاملة .

ولكن التغير الحقيقى الذى لحق تفكيره لم يحدث إلا بعد تخرجه فى دو بادو عام ١٨٩٨ والتحاقه بجامعة أكسفورد التى التقى فيها بمؤلف جون راسكين Ruskin (١٨١٩ - ١٩٠٠) Unto This last الذى كان قد نشر فى ١٨٦٢، وكان لأسلوبه المتوثب الجرىء ابعد الأثر فى النفوس، فقد كان راسكين بوصفه أحد الذين استهلموا

أفكارهم من العمل مع تشارلز كينجزلى Kingsley (١٨١٩ - ١٨٧٥) وغيره من المصلحين الاجتماعيين الذى دعوا فى الخمسينات من القرن الماضى إلى تشجيع حرف العصور الوسطى والإيمان بالغايات النبيلة، من أهم المفكرين الذين أزعجهم النظام الصناعى لدرجة أنه عبر عن ذلك بقوله « إن الصراخ المتصاعد من كل مدننا الصناعية والذى يعلو صخبه على ألسنة نيران أفرانها المتوهجة، ينطق بأننا نصنع كل شىء فيما عدا الإنسان». وتعتبر هذه الفقرة من راسكين بمثابة أساس من أسس تفكير بيرد وفلسفته التى أدان بها التقدم الآلى والآثار السلبية الناجمة عن الثورة الصناعية والتى مثلت فى الوقت نفسه نقداً عنيفاً للاقتصاد التقليدى ودعوة صريحة لمزيد من تدخل الدولة فى تسيير الصناعة والاقتصاد.

بل ويمكن القول بأن جهود بيرد فى ١٨٩٩ التى بذلها لإنشاء مدرسة عمالية فى أكسفورد كانت رد فعل مباشر لذلك التأثير، وإن كان من الممكن رؤية هذا التأثير بشكل أوضح فى مؤلفه «الثورة الصناعية» الذى ظهر فى ١٩٠١ بعد زواجه من مارى ريتر Ritter أثناء زيارة قصيرة لأمريكا وعودته إلى إنجلترا حيث ينطوى هذا الكتاب الذى أهداه للطبقة العاملة البريطانية على معارضة صريحة لمبدأ اقتصاديات السوق الحرة المفتوحة التى رأى فيها سبب معاناة هذه الطبقة وتخلفها.

فى عام ١٩٠٤ عاد بيرد إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقام بتدريس العلوم السياسية فى جامعة كولومبيا . ولكنه فى هذه المرحلة خضع لبعض المؤثرات التى تدخلت بدورها فى تشكيل مواقفه الفكرية، لعل فى مقدمتها كتابات الحركة التقدمية التى كانت تركز وقتذاك على المسائل الاقتصادية والاجتماعية، وإن كانت التأثيرات التى خلفها كتاب سليجمان Seligman التفسير الاقتصادى للتاريخ (١٩٠٢) وكذلك كتابات جيمس ماديسون Madison عن جماعات المصلحة لا تقل أهمية عن ذلك حيث ساعدت على بلورة خطه الفكرى الذى التزم به فى التفسير التاريخى وهو ما عبر عنه أفضل تعبير فى كتابه «تفسير اقتصادى لدستور الولايات المتحدة» An Economic Interpretation of the Constitution of the United States وهو الكتاب الذى صدر فى عام ١٩٢٣ وأكد فيه على أن هذا الدستور قد تمت صياغته

تحت ضغوط جماعات المصلحة التى كانت دوافعها الاقتصادية دوافع قومية أكثر منها دوافع إقليمية، وكذلك فى كتابه «التاريخ الأمريكى المعاصر - ١٨٧٧/١٩١٤» Contemporary American History (١٩١٤) الذى قرر فيه «أن الباحث فى التطور السياسى والاجتماعى إنما يهتم اهتماماً بالغاً بتأثير التغيرات المادية على بناء المجتمع، بمعنى أنه يهتم بإعادة ترتيب الطبقات وظهور جماعات المصلحة النامية التى تظهر نتيجة لظهور أساليب ووسائل جديدة للتكسب وتكوين الثروات، والواقع أن ذلك التحول بالذات هو الذى يعبر عن طبيعة العلاقة بين الفرد والدولة، كما أنه هو الذى يؤدى إلى خلق قوى جديدة تناضل من أجل حيازة القوة السياسية» .

وبالرغم من أن رجال السياسة والاقتصاد الأمريكيين كانوا لا يخفون حنقهم واستياءهم من متضمنات المصالح المادية الغالبة التى ينطوى عليها الدستور والمؤسسات الاقتصادية عموما فقد لقى هذان الكتابان ترحيبا ملحوظاً من الأكاديميين، واعتبروا الكتاب الأول على وجه الخصوص دراسة جديدة ومبتكرة فى العوامل الدافعية التى تعمل فى داخل الجماعات والتكوينات السسيواقتصادية. وهو على أية حال نفس الاتجاه الذى ظهر فى كتابه «الأصول الاقتصادية للديمقراطية الجيفرسونية» The Economic Origins of Jeffersonian Democracy (١٩١٥) واهتم فيه بإبراز المحتوى الفلسفى للنضال السياسى .

غير أن حياة بيرد الأكاديمية تعرضت مع نهايات الحرب العالمية الأولى لبعض الهزات التى كانت لها آثارها فقد أقدمت جامعة كولومبيا على فصل عدد من أعضاء هيئة التدريس بتهمة عدم الولاء والتخريب، فما كان من بيرد إلا أن قدم استقالته من الجامعة فى ١٩١٧ احتجاجاً على هذه السياسة التى اعتبرها ماسة بكيان الجامعة واستقلالها. وبالرغم من أن استقالته من الجامعة لم تبعده كثيراً عن مزاولة نشاطه العلمى والأكاديمى نظراً لقيامه بدور هام فى إنشاء المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى فى نيويورك فى ١٩١٩، فقد كانت وراء التغيير الذى لحق اتجاهاته وميوله الثقافية والتى أخذت تتجه فى السنوات التالية نحو معالجة بعض المشكلات التى بدأت تلح عليه وبخاصة مشكلة «المعرفة التاريخية» التى

تعتبر أخطر المشكلات التى شغلته أثناء الثلاثينات، بالإضافة إلى اهتمامه المتزايد بأوضاع السياسة الأمريكية الخارجية أثناء سنوات الحرب .

ولقد تصدى بيرد لمعالجة هذه المشكلات فى أكثر من كتاب واحد . فقد ظهر فى عام ١٩٢٣ كتابه « التاريخ المكتوب كعمل من أعمال الإيمان والإخلاص» وهو كتاب يتضمن نقداً لاذعاً لطبيعة المنهج العلمى الذى وصفه بالجمود والمحدودية، وذلك على اعتبار أن نظرتة للتاريخ كانت تعكس موقفاً براجماتيا ينبنى على اختيار المؤرخ للحقائق وترتيبها فى ضوء علاقتها بالفكر المعاصر، وهى القضية المحورية التى انعكست أيضاً فى كتابه «ظهور الحضارة الأمريكية » الذى صدر فى جزءين عام ١٩٢٧ .

ومع ذلك فإن عام ١٩٣٤ كان عاماً حاسماً فى حياة بيرد العلمية لأنه بدأ فى إصدار سلسلته المشهورة عن السياسة الخارجية للرئيس روزفلت Roosevelt فظهر كتابه «الباب المفتوح فى الوطن» The Open Door at Home (١٩٣٤) و«نظرية الشيطان فى الحرب» The Devil Theory of War (١٩٣٦) و«صناعة السياسة الخارجية الأمريكية فى الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٠» American Foreign Policy in the Making (1932-1940) (١٩٤٦) و« الرئيس روزفلت والحرب القادمة» (١٩٤١) President Roosevelt and the Comming War (١٩٤٨). ومع أن بيرد قد سلك فى هذه المؤلفات نفس المنحى التاريخى التحليلى الذى ميز كتاباته، فإن جانباً من الباحثين يرون أن طبيعة الموضوعات،التى تناولتها كانت وراء التأثيرات السلبية التى بدأت شهرته تتعرض لها، حيث أخذت هذه الشهرة فى التراجع بعدما نشر هذه المؤلفات الأخيرة، و إن لم يكن معنى هذا أنها ألقيت فى دائرة النسيان، فما زال بيرد يعتبر حتى اليوم واحداً من أشهر المؤرخين الا[illegible] [illegible]ى عرفهم القرن العشرون .

★ ★ ★

١٧ - بيكر، كارل لوتس (١٨٧٣ - ١٩٤٥)

17 - BECKER, Carl Lotus

يمثل كارل لوتس بيكر نموذجاً متميزاً بين المؤرخين الأمريكيين الذين اعتمدوا فى معظم كتاباتهم عن التاريخ الأمريكى على منهج خاص فى الكتابة التاريخية أقامه على تصوره الخاص لمسئولية المؤرخ من ناحية، وطبيعة المادة التى يتعين عليه أن يتناولها وكيفية هذا التناول من ناحية ثانية.

ولد بيكر فى ٧ سبتمبر ١٨٧٣ فى مقاطعة بلاك هوك Blackhawk بالقرب من واترلو Waterloo فى إيوا Iowa بالولايات المتحدة الأمريكية، وتوفى فى العاشر من إبريل ١٩٤٥ فى أيتاكا Itaca بنيويورك، وهو مؤرخ أمريكى حقق شهرته بسبب كتاباته فى التاريخ الأمريكى وأعماله التى قدمها عن عصر التنوير .

فى عام ١٨٩٣ التحق بيكر بجامعة ويسكنسن Wisconsin فى ماديسون Madison حيث درس على أيدى اثنين من أشهر علماء التاريخ هما تشارلز هود هاسكنز Haskins وفردريك جاكسون تيرنر Turner. ثم أتم جانباً من بحوثه ودراساته فى جامعة كولومبيا فى عام ١٨٩٨ حيث أتيح له أن يدرس تحت إشراف الأستاذ جيمس هارفى روبنسون Robinson وهى مرحلة ولئن كانت أثرت فى تكوينه العلمى ولا شك باعتبار أن اساتذته من كبار الأساتذة المرموقين، فقد مهدت له أيضاً أن يقف على المدخل التركيبى البراجماتى وهو المدخل الذى يطلق عليه «التاريخ الجديد» New History تمييزاً له عن المداخل التقليدية السائدة بين جمهرة المؤرخين .

على أى حال فقد كان لهذا التكوين أثره فى نشاطه العملى والأكاديمى حيث قام بالتدريس فى جامعة كانساس Kansas بولاية لورانس Lawrence فى الفترة من

١٩٠٢ إلى ١٩١٦ ثم فى جامعة كورنل Cornell (إيتاكا) فى نيويورك من ١٩١٧ حتى تقاعده فى عام ١٩٤١ .

ويبدو أن بيكر قد آثر منذ البداية أن يتخذ لنفسه موقفاً تتحدد به هويته العلميـة. وهو مـوقف ارتبط بكل من النطاق الذى تدور فيـه كـتـاباته التـاريخيـة والمنطلقات التى ينطلق منها فى معالجته لموضوعاته، حيث دارت معظم كتاباته لا عن التاريخ الأمريكى فى عمومه ولكن الظواهر الأساسيـة التى يمكن القول بأنها ميزت هذا التاريخ وفى مقدمتها الثورة الأمريكية ذاتها . حتى أن البعض ذهب إلى القول بأن هذا الاتجاه بارتباطاته السياسيـة والاجتماعية هو الاتجاه الذى ظهرت فيه قدراته كمؤرخ متميز والذى أبدع فيه تأريخاً وتحليلاً على حد سواء .

ولا ينطوى هذا الكلام على شىء من المبالغة فى الحقيقة ففى عمله الموسوم «بدايات الشعب الأمريكي» The Begnnings of The American People وهو الكتاب الذى قدمه فى عام ١٩١٥. عمد بيكر إلى تطوير بعض مواقفه التى كان قد ضمنها رسالته للدكتوراه بخصوص الثورات الأمريكية حيث ذهب إلى أن هناك نوعين من الثورات لم يعكسا فحسب الواقع الاجتماعى والسياسى لأمريكا. ولكن الخلفية الأيديولوجية التى كانت تدور وراءها أو التى تمخضت هذه الثورات عنها .

النوع الأول من هذه الثورات يتمثل -فى تصوره- فى محاولة الوصول إلى الحكم الذاتى Self-Government ومن ثم فهى تنطوى على المبدأ الديمقراطى بأوسع ما يشتمل عليه هذا المصطلح من معان. أما النوع الثانى فيهتم بالمعارك الأيديولوجية وبالاصطراع الفكرى اللذين كان لهذا الحكم الذاتى أن يقوم عليهما من ناحية وأن يخوضهما ويناضل فى سبيل ترسيخ أيديولوجيته وتطويرها من الناحية الثانية .

والواقع أن وجهة النظر هذه ظهرت فى مؤلفين اثنين على الأقل من مؤلفات بيكر هما مؤلفه « فجر الثورة» The Eve of Revolution الذى ظهر فى ١٩١٨ و«إعلان الاستقلال» Declaration of Independence الذى ظهر فى ١٩٢٢. حيث اهتم فى هذين الكتابين بالتأصيل للمبدأ الديمقراطى وبإبراز العلاقة بين فلسفة الحقوق الطبيعية

التى ظهرت فى القرن الثامن عشر والثورة الأمريكية، وفلسفة الحقوق الطبيعية هى على أى الأحوال التى هيأت لحدوث كثير من التغيرات فى علاقة الفرد بالدولة، وجعلت من قضية «السيادة» وقضية الشرعية ومن أفكار المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية محاور رئيسية لاهتمامها، وهى أفكار أثرت على أى الأحوال تأثيراً مباشراً «وبخاصة تلك التى قال بها جان جاك روسو» فى فكر كثير من المفكرين لما انطوت عليه من معان ثورية وغير تقليدية عندما جعلت الإنسان محوراً للكون ومركزاً له، وكان ذلك بمثابة أساس من الأسس التى أقامت عليها الكثير من الدول نظمها الديمقراطية.

ولكن فترة ما بين الحربين العظميين يبدو أنه كانت لها انعكاسات خاصة على تفكير بيكر من حيث إن الحرب عنت بالنسبه له الإطاحة بكل الأفكار والمبادئ التى ينبنى عليها المثال الديمقراطى، وحتى فكرة الحقوق الطبيعية ذاتها. اغتيال بمعنى آخر أقدم عليه الإنسان لكل المثاليات والتطلعات إلى الديمقراطية والحرية والمساواة ... الخ .

والمهم هو أن هذا الظرف (الحرب) كان نقطة البدء لنقده الفلسفى من ناحية ولمواقف المؤرخين والعلماء من الناحية الثانية. وهو نقد غلبت عليه الرؤية التشاؤمية، وانطبع بمشاعر الإحباط. وهو تحول برز خلال العشرينات على وجه الخصوص وعبر عنه فى تحديه السافر للمقولة التقليدية القائلة بسمو المنهج العلمى وبأفضليته فى الدراسة التاريخية. وهو موقف أفصح عنه فى مقالته الافتتاحية التى قدمها فى عام ١٩٣١ أمام الرابطة التاريخية الأمريكية American Historical Association تحت عنوان « كل إنسان مؤرخ ذاتى » Every man His Own Historian والتى نشرها فى ١٩٣٢. وإن كان قد عاد فطورها ونشرها فى شكل كتاب فى عام ١٩٣٥. وهو كتاب عالج فيه بيكر بشكل واضح ومركز حقيقة الكشف والتصور التاريخيين، وهو من الكتب القليلة التى أبرزت موقفاً مغايراً لما هو سائد بين عامة المؤرخين حيث ذهب إلى أن الحقائق المدركة أو التى يدركها المؤرخ أو حتى الباحث أو العالم أو الفيلسوف هى فى الأساس صور عقلية يتم تكوينها

(وخلقها) بواسطة الخبرة والتجربة التاريخية التى تتوافر للمؤوخ، وهذا معناه أنها مسألة ذاتية إلى أبعد الحدود حيث (ينخرط) المؤرخ فى عملية اختيار لمادته ومعلوماته.

ويعتبر كتابه الذى ظهر فى ١٩٣٢ باسم « مدينة القرن الثامن عشر السماوية» The Heavenly City of The Eighteenth Century أكبر إنجازاته، حيث لم يكتف بيكر فى هذا الكتاب بفحص أفكار الفلسفات المختلفة مثل الاعتقاد أو الإيمان بالتقدم والكمال الإنسانيين، وإنما ركز- أبعد من ذلك - على فحص وتحليل المبادئ والتعاليم الأساسية للمسيحية الأرثوذكسية وعلمانية عصر التنوير بأفكاره فى التقدم العلمى . وإن كان قد عاد أثناء فترة الحرب العالمية الثانية فأعاد صياغة الكثير من تصوراته وأفكاره التشاؤمية المبكرة ليجعل من هذه الصياغة محاولة يؤكد فيها مدى حاجة الإنسان إلى العودة للتمسك بالقيم الأخلاقية وبالمبادئ الانسانية، وبخاصة وهو يعرض لأحداث التاريخ. وهو موقف يغلفه التشاؤم الدفين ولا شك حتى على الرغم مما قد يبدو فيه من نزعة للتفاؤل. وربما كان ذلك بالذات هو سر ذلك الطابع الخاص الذى جعله مقروءاً على نطاق واسع حتى خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

● **قراءات مقترحة●**

- Kammer, Michael.;(ed.); Where is the Good History? Selected Letters of Carl Becker. (1900-1945). 1973.
- Smith Charlotte W., Carl Becker : On History and the Climate of Opinion. 1936.
- Strout Cushing .; The Pragmatic Revolt in American History: Carl Becker and Charles Beard. 1978.
- Wilkins Burleigh.; Carl Becker : A Baiographical Study in American Intellectual Theory. 1961.

★ ★ ★

١٨ ـ بل، دانيال

18 - Bell , Danial

عندما ترك دانيال بل عمله الصحفى ليلتحق بالجامعة كأستاذ لعلم الاجتماع لم يكن الأمر بالنسبة له أكثر من مجرد نقلة فى المكان لأنه ظل يمارس مهنته الجديدة بنفس حسه الصحفى وعينه الناقدة وبنفس القدرة على تحسس المشكلات وتناولها وتحليلها.

ولقد ولد بل فى العاشر من شهر مايو فى نيويورك عام ١٩١٩، وتلقى تعليمه فى سيتى كوليج City College التى حصل منها على درجته العلمية الأولى عام ١٩٣٩ ليبدأ عمله الصحفى الذى استمر يمارسه لأكثر من عشرين عاماً عمل خلالها محرراً لمجلة الرائد الجديد The new Leader (١٩٤١ - ١٩٤٥) ثم محرراً عمالياً لمجلة فورشن Fortune (١٩٨٤ - ١٩٥٨) وهى فترة تميزت بكتاباته المنوعة فى مختلف الموضوعات والقضايا الاجتماعية والسياسية. وفى عام ١٩٥٦/١٩٥٧ انتقل إلى باريس حيث عمل رئيساً لبرنامج الندوات والسيمنارات الذى كان ينظمه مجلس الثقافة الحرة، وبدأ فى العام نفسه يستعد للحصول على درجة الدكتوراه التى نالها من جامعة كولومبيا فى عام ١٩٦٠، وكان ذلك بداية طريقه الأكاديمى الجديد فعين أستاذا لعلم الاجتماع بالجامعة نفسها (١٩٥٩ - ١٩٦٩) وهو العام نفسه الذى انتقل فيه إلى جامعة هارفارد أستاذاً لعلم الاجتماع . والمهم فى كل هذا هو أنه كان لعمله الصحفى أثره الواضح ليس فقط فى تحديد اتجاهاته الأكاديمية ولكن أيضاً فى تحديد نظرته للعلم الاجتماعى نفسه، وتصوره لدور علم الاجتماع فى التقدم الاجتماعى وهو تصور ينبثق من الإيمان بضرورة الاستعانة بالنظرية الاجتماعية فى معالجة ما يعتقد أنه التناقضات الجذرية التى تكمن فى بناء المجتمعات الغربية .

ولكن هذا الموقف ينطوى على أمرين على غاية من الأهمية . فمن ناحية هناك رؤيته الخاصة التى تكونت لديه فى ضوء خبرته العلمية والأكاديمية بصدد الدور الذى تلعبه الأيديولوجيا فى صياغة حياة الأفراد بل وتشكيل الوجود الإنسانى بأكمله، فالأيديولوجيا فى نظر بل تخفى دائماً أو على الأقل تغلف شيئاً ما، ولا تكون واضحة إلا عندما تظهر المصلحة الموضوعية التى تكمن وراء الفكرة. ومن الواضح هنا مدى تأثر بل بفكرة نهاية عصر الأيديولوجيا التى تأصلت أساساً فى أوربا بتأثير هجوم رايمون آرون على الستالينية الذى تضمنه كتابه «أفيون المثقفين»، وكذلك كتابات كامى Camus وهى الكتابات التى انتشرت فى الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة كتابات دانيال بل وليبست Lipset على وجه الخصوص.

ثم هناك من الناحية الثانية طبيعة المشكلات التى توجدها هذه الانتماءات الأيديولوجية ذاتها وهى مشكلات اعتقد بل أنها تبلغ ذروة التشابك والتعقيد فى المجتمع الغربى المعاصر على وجه التحديد. وبالرغم من أن معظم كتابات دانيال بل كانت تدور بصفة أساسية حول المشكلات الاقتصادية والسياسية والظروف التى تتدخل بها القوى المختلفة فى تشكيل حياة الأفراد وفى عملية صياغة القرارات واتخاذها فإن الشىء المهم هو أن هذه الرؤية ذاتها التى نظر بها بل للانتماءات الأيديولوجية كانت بدورها منطوية على نوع من التبنى الأيديولوجى وهو ما تعكسه بوضوح بعض كتاباته الرئيسية على الأقل فى بعض مراحل تطوره الفكرى.

ويعتبر كتابه «نهاية الأيديولوجيا» The End of Ideology : On Exhaustion of Political Ideas in the Fifties (١٩٦٠) أفضل مثال على ذلك، فهو يكشف عن (التحولات) الفكرية والأيديولوجية التى خضع لها تفكيره وخاصة فى الخمسينات التى قام خلالها بكثير من المراجعات لمواقفه الفكرية وهى المراجعات التى انتهت برفضه لمختلف أشكال التمميط المذهبى التى تعكسها لفظة (Ism) التى تلتصق بالمقولات المذهبية التى تعبر عن هذه الأيديولوجية أو تلك، مثل الرأسمالية Capital (ism) والاشتراكية Social (ism) والنزعة الانسانية Human (ism) والشيوعية Commun (ism) إلى آخر تلك التوصيفات التى شاع استخدامها فى الثلاثينات والأربعينات

على وجه الخصوص. وهى ثورة لم تكن على المستوى النظرى فحسب، ولكن صاحبها تحوله عن «اليسار» الذى ظل مرتبطاً به لفترة طويلة، اعتبر خلالها من أشد الاشتراكيين تطرفاً واندفاعاً .

ولقد سعى بل إلى بلورة هذا الموقف وتطويره فى ثلاثة كتب على الأقل، ظهرت فى الخمسينات والستينات وبخاصة فى الخمسينات التى اصطبغ فيها المناخ السياسى فى أمريكا بالاتجاهات الرجعية المرتبطة بالحرب الباردة وظروف التضخم والمشكلات الاقتصادية، وأول هذه الكتب هو كتابه «الاشتراكية الماركسية فى أمريكا» (١٩٥٢) وثانيها كتابه «الحق الراديكالي» (١٩٦٣) وأخيراً « اصلاح التعليم العام» (١٩٦٦) وهو كتاب حاز على جائزة بوردن Borden Award .

أما كتبه ومؤلفاته الأخرى فقد مثلت رد فعل لظروف المجتمعات الصناعية المتقدمة التى كان يقصد بها المجتمعات الغربية بعامة والمجتمع الأمريكى بخاصة، ففى عام ١٩٧٣ ظهر كتابه «بزوغ مجتمع ما بعد التصنيع» The Coming of Post Industrial Society وقصد بذلك نموذجاً متميزا من المجتمعات التى تختلف عن المجتمع الصناعى الذى نعرفه حالياً حيث يتميز بالآلية والوفرة وبأنماط وأشكال جديدة من الصراعات الاجتماعية. ففى تصوره أنه يمكن الانتقال (واقعياً) إلى مثل هذا المجتمع مثلما تم الانتقال من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشر. وقد سعى فى هذا الكتاب إلى تحديد العلاقات المتشابكة بين العلم والتكنوولجيا والرأسمالية، كما أكد على الأهمية البالغة للمعرفة النظرية فى نظام الانتاج والتحول من اقتصاد المصنع إلى إقتصاد الخدمات، وأبرز فى ذلك الشخصية التاريخية لمثل هذا المجتمع وإمكاناته .

ولقد صدر كتابه الثانى فى الاتجاه نفسه عام ١٩٧٦ باسم «التناقضات الثقافية فى الرأسمالية» والكتابان معاً يعتبران بمثابة مدخل للكتاب الهام الثالث فى ذات الاتجاه، والذى نشر فى ١٩٨٠ تحت عنوان مثير وغريب هو «الممر الملتوى » The Winding Passage وهو عبارة عن دراسة تحليلية نقدية للإنسان اللامنتمى الذى يعيش كل صنوف الاغتراب فى المجتمع المعاصر، وإن كان من المهم مع ذلك القول

بأن هذا الكتاب إنما يمثل دراسة تأصيلية لهذا المفهوم الذى يرجع أساساً إلى كارل ماركس وهو ما لا يظهر بشكل واضح فى تناول الكتاب المحدثين الذين وقفوا بالمفهوم عند ماكس فيبر و توكوفيل، وابتعدوا بذلك عن المعنى الذى كان يرمى إليه ماركس،وفى هذا يذهب إلى أن هؤلاء الكتاب أصبحوا يرون فى فكرة الاغتراب نوعاً من النقد الراديكالى للمجتمع المعاصر أكثر منه ذلك التحليل العميق للطبقة، وهذا لا يشير إلى ماركس فى شىء حيث ركز على إبراز أهمية التحليل لعلاقات الملكية فى ظل الرأسمالية، وأهمية فلسفة التاريخ. وكله يجعل من هذا الكتاب وكأنه إعادة كشف للأبعاد الحقيقية والأصيلة لمفهوم الاغتراب عند ماركس وهيجل.

• قراءات مقترحة•

Works: Ideology : A Debate , Commentary; Vol. 38 (Oct. 1964).

; The Radical right . 1964.

• وانظر أيضا :

- Birnbaum , Norman; The Crisis of Industrial Society. 1969.
- Bottomore, T.B; Sociology as Social Criticism,. 1975.
- Lipset, M.Seymour; Political Man : The Social Basis of politics 1960.
- Nisbet, R. A.; The Soiological Tradition, 1973.
- Patterson, Sheila; Immigrants in Industry. 1968.
- Waxman, Chaim I.; The End of Ideology Debate. 1968.

★ ★ ★

١٩ - بندا، جوليان (١٨٦٧ - ١٩٥٦)

19 - BENDA, Julien

عندما التقى جوليان بندا بالفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون Bergson فى حلقات باريس الثقافية التى كانت تجمع صفوة المثقفين والمفكرين من وقت لآخر بطريقة شبه منتظمة منذ الثمانينات على الأقل من القرن الماضى، وربطت بينهما صداقتهما الفريدة باعتبارهما يشاركان معا فى الحياة الثقافية والفكرية الفرنسية علاوة على انتمائهما الدينى الواحد باعتبارهما من أصل يهودى، لم يكن يخطر ببال أحد أن بندا سوف يصبح بعد سنوات قليلة من أكبر معارضى برجسون، وأن معارضته «للبرجسونية» سوف تستمر إلى ما يزيد على الأربعين عاما، حتى أصبحت هذه المعارضة أهم ملامح الحياة الفكرية لبندا نفسه، أو هى إشارة عليه بتعبير آخر.

ولد الفيلسوف والروائى جوليان بندا فى ٢٦ ديسمبر ١٨٦٧ فى باريس، أى بعد ثمانى سنوات فقط من مولد برجسون ١٨٥٩، وتوفى وهو فى التاسعة والثمانين فى ٧ يونيو ١٩٥٦ فى فونتنى أو-روز Fontenay aux- Roses بالقرب من باريس.

ولقد كان للظروف الأسرية التى نشأ فيها بندا أثر بعيد فى اكتسابه الطابع أو الخصائص العامة لشخصيته، فقد ولد فى أسرة يهودية متواضعة لأبوين قال عنهما بعدما تقدمت به السن أنهما خلفا له الكثير من حساسيتهما المفرطة ومزاجهما العصبى. ويبدو أن هذه المرحلة المبكرة من حياته كانت بالفعل بالغة الأثر فى شخصيته لأنه تعرض لها فى كتاباته المتأخرة، وبخاصة كتابه «شباب كاتب» La Jeunesse d'un Clerc الذى ظهر فى عام ١٩٣٧ حيث وصف نفسه بأنه «نتاج يهودى ينتمى إلى الشرق القديم وأنه يعشق الأبدية والخلود ويحتقر الصدفة

والاحتمال ويشعر دائما برغبة محمومة فى الكتابة» وهى مشاعر لئن كانت غرست فيه نوعا من الطمأنينة الداخلية التى لم تفارقه فى أى وقت من الأوقات إلا أنها جعلت منه شخصية حادة تسير رأسا إلى ما يريد أن يقوله دون أن يتمسك بأواسط الأمور. وحتى عندما بلغ سن التعليم فإننا نجده لا يلتحق بواحدة من تلك المدارس الشهيرة التى يتجه إليها الشباب الباريسى الذى يعد نفسه للحياة الفكرية والذى قد يسيطر عليه تصور أنهم يفضلون غيرهم، وأنهم قادة أجيالهم، ولكنه على العكس من ذلك التحق بإحدى المدارس العامة دون أن يشارك أبناء جيله ذلك «التطلع المريض» بل ولم يكن لديه فى الحقيقة إحساس قوى بجيله، ولهذا قبع بعيدا راضيا بأن يتمثل النماذج الإنسانية العملاقة التى كانت تجد متعتها فى الانفراد بنفسها فى غرفة صغيرة وبين يديها ورقة وقلم. بتعبير آخر كان بندا يتمتع بنوع من الاستقلالية فى حدود ما يمكن للعالم الحديث أن يقدم للانسان. فله دخله الخاص الذى يكفيه ليحيا حياة مناسبة بلا زوجة وبلا ولد وبلا أى مشاكل حادة. وربما كانت الواقعة أو التجربة الخطيرة الوحيدة التى عاشها حتى أواخر الثلاثينات من عمره هى قضية الكابتن دريفوس Dreyfus التى أثارت فى ذهنه كل قيم ومعايير ومفهومات العدل والظلم السياسيين، الأمر الذى لم يفارقه أبدا طوال حياته. فحين تفجرت هذه القضية التى انقسم الرأى العام الفرنسى إزاءها كان بندا ونخبة من مثقفى العصر من أمثال إميل دور كايم وبرجسون وسوريل Sorel وبيجى Péguy فى مقدمة الذين دافعوا عنه ووقفوا فى وجه الاتهامات التى وجهت إليه.

ومواقف بندا الفكرية وأعماله كلها نوع من الجدل الفلسفى فى مشكلات العصر وفى أسبابها، أو ربما أمكن القول أنها جدل مع روح العصر الثقافى. كما تكشف فى الوقت نفسه عن قدرته الفائقة على (تعرية) الأمور ومهاجمتها. ولئن كنا رأينا جانبا من هذا فى موقفه من قضية دريفوس التى أشرنا إليها، فإن أحداث الأعوام ١٩١٧ و ١٩٢٢ كانت بدورها مناسبات حقيقية لكى ينظر بشكل أعمق فى تصوراته ومعتقداته الأساسية بصدد عقلانية الإنسان. أو لا عقلانيته بتعبير أدق.

وقد تطرق بندا لذلك فى عدد من أعماله الهامة وبخاصة فى كتابه «خيانة المثقفين» La Trahison des Clercs الذى ظهر فى باريس فى ١٩٢٧ وبدا فيه بندا مثاليا رافضا بشكل واضح. ففى هذا الكتاب لا يكشف بندا عن توجهاته الفكرية فحسب كواحد من زعماء الحركة المضادة للرومانسية فى الأدب والفكر عموما، وكواحد من كبار المدافعين عن العقل وحرية العقل وقدراته الفائقة على الوصول إلى المعرفة اليقينية مما يعنى رفضه لمختلف الدعاوى والنزعات والمذهبيات الآلية والميكانيكية والحدسية، ولكنه يكشف أيضا - وهذا هو المهم - عن مدى الزيف الذى دأب المثقفون والمفكرون على الإيهام والخداع به. وكانوا بذلك يضحون بالحقيقة وبالقيم الثقافية والإنسانية العليا لاعتبارات سياسية دون ما اكتراث بحياة الأفراد أو الشعوب.

هذا الموقف لم يكن مجرد صوت نذير يطلقه بندا ضد كل انتصارات لينين وموسولينى وهتلر وسائر حركات القمع والاستبداد التى روج لها عن قصد وعن غير قصد مثقفو العصر ومفكروه، ولكنه يمثل بالدرجة الأولى إدانة لتاريخ المثقفين وتاريخ الثقافة الغربية بأكلمه، فمنذ العصور الوسطى يرى بندا أن المثقفين قد شكلوا دائما طبقة متعالية تعيش بعيدا عن الأرض وتكرس جهودها على اهتمامات غير واقعية.

أما خيانتهم فى العصر الحديث فيذهب بندا إلى أنها تصدر عن رغبتهم فى تدمير، أو على الأقل، سوء استخدام قيم المعرفة وقيم الفعل والتطبيق. فالمثقفون فى كل مكان وبخاصة فى فرنسا وفى ايطاليا وفى ألمانيا يدركون تماما ومنذ وقت مبكر فى حوالى ١٨٩٠ مدى الخطورة التى تنطوى عليها مختلف المذاهب السلطوية والديكتاتورية والدعاوى اللاعقلية التى قد تبهر الإنسان ولكنها بالضرورة تلعب بالعقل وتخنق الحرية وتؤكد نزعات الحرب والعبودية والطبقية والعنصرية. ولكنهم بدلا من أن يقفوا فى وجهها ويقاوموها فيحولوا بذلك دون اتساع الهوة بين الطبقات وتعميق الفوارق والاختلافات وتغذية الاتجاهات القومية والنزعات اللاعقلية أصبحوا هم أنفسهم المتحدثين باسم هذه الحركات والمروجين لشعاراتها.

وفى ضوء هذا قد نستطيع فهم بعض مواقفه الفكرية والفلسفية التى عبر عنها فى بعض كتبه ورواياته مثل رواية «الرسامة» L'ordination التى ظهرت فى ١٩١١ وترجمت إلى الإنجليزية فى ١٩١٣ بعنوان «بؤرة الشفقة» The Yolk of pity حيث شجب فى هذه الرواية التى تعتبر أفضل رواياته، وقبلما يكتب «خيانة المثقفين» بسنوات طويلة، سلوكيات وأخلاقيات الخونة الذين يتلاعبون بالحقائق وبالعدالة لمصلحة سياسية أو ذاتية ضيقة. وهو الخط نفسه الذى عمقه وبلوره فى كتابه «خيانة المثقفين» على ما سبقت الإشارة.

كذلك قد يكون بمقدورنا الآن فهم دواعى هجومه الحاد العنيف الذى شنه على الفلسفة البرجسونية وهو الهجوم الذى تابعه على الأقل فى أربعة من أعماله الرئيسية بخلاف كتابين كرسهما كلية لإبداء وجهة نظره وظهر أولهما فى ١٩١٢ بعنوان «البرجسونية أو فلسفة الحركة La Bergsonisme ou une Philosophie de la Mombilité بينما ظهر كتابه الثانى وهو بعنوان «حول نجاح البرجسونية» Sur le Succés de Bergsonisme فى عام ١٩١٤.

وقد يرى الكثيرون أن معارضة أو هجوم بندا على نسق برجسون الفلسفى وبخاصة مقولة الحدس Intuition التى تعتبر المحور الجوهرى لهذا النسق هو أهم إنجازات جوليان بندا الذى نظر إلى برجسون - على الرغم من الصداقة الوطيدة التى تربط بينهما - على أنه لا عقلانى وذو نزعة لا عقلية نتيجة تأكيده على الحدس. وقد نختلف كثيرا مع الكثير مما ذهب إليه هنرى برجسون كما قد نختلف كثيرا فى الكثير مما ذهب إليه جوليان بندا. ولكن تظل مع ذلك حقيقة جوهرية هى أنه على الرغم من كل ما تتصف به مواقفه الفكرية من حدة فقد كان يصدر فى ذلك عن إيمان مطلق بالإنسان وبقيمة الإنسان وبحريته وكرامته، وكلها مما يعلو فوق الرؤى العتيقة التى سعى بها أصحابها لإخضاع هذا الإنسان والسيطرة عليه. قصة الخدعة الكبرى التى عكسها باستمرار تاريخ التطور السياسى والاجتماعى للحضارة الغربية، وروج لها المثقفون والمفكرون أكثر من غيرهم.

● قراءات مقترحة●

- **Works** ; Un Régulier dans le Siécle. 1938.

● وانظر أيضا:

- Robert J. Niess; Julien Benda. Ann. Arbor Mich. 1956.
- Stuart Hughes ; Consciousness and Society: The Reorientation of European Social Thought. (1890 - 1930). 1967.

★ ★ ★

٢٠ - بنديكت ، روث
20 - BENEDICT, Ruth

ولدت روث فولتون بنديكت عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية الشهيرة فى الخامس من شهر يونيو عام ١٨٨٧ فى نيويورك، وتوفيت فى السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٤٨ فى نيويورك أيضا، بعد حياة حافلة بكتاباتها وبنظرياتها التى أثرت تأثيرا عميقا فى الأنتروبولوجيا الثقافية، وبخاصة فى مجال دراسة الثقافة والشخصية، وهو المجال الذى وضح فيه اتجاهها الذى يعطى أهمية فائقة للثقافة باعتبارها أساسا لا يمكن الاستغناء عنه فى فهم السلوك من النواحى المعرفية Cognitve والعاطفية، والذى اتفق على تسميته بالمنهج النمطى أو الصياغى الذى عبرت عنه فى مؤلفها الشهير «أنماط الثقافة» Patterns of Culture الذى ظهر لأول مرة فى عام ١٩٣٤، وارتبط به اسمها وحققت بسببه شهرة واسعة خاصة بعدما ترجم إلى ١٤ لغة، واعتبر من وجهة نظر الكثيرين أبرز أعمالها، على الرغم من أنه قد وجهت إليه الكثير من الانتقادات التى شملت بعض أفكاره ومبادئه المحورية، وامتدت إلى المنهج النمطى ذاته الذى مثل العمود الفقرى للعمل بأكمله.

والظاهر أن اهتمام روث بنديكت بهذه النواحى كان متأصلا فى توجهاتها الفكرية والثقافية المبكرة. فانتماؤهاإلى الأنثروبولوجيا كان من خلال اهتمامها بالإنسانيات عموما. فقد درست الأدب الإنجليزى فى Vassar College فى باوكيبساى Poughkeepsie فى نيويورك فى الفترة من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٩. وهى دراسة ظلت آثارها عالقة بها حتى بعدما تخصصت فى الأنثروبولوجيا فى العشرينات من القرن، حيث ظلت تمارس ميولها الأدبية وتقرض الشعر باسم مستعار هو آن سينجلتون Singleton واستمرت فى ذلك حتى أوائل الثلاثينات.

خلال هذه الفترة أخذت روث بنديكت على أية حال تشق طريقها إلى ميدان العلوم الاجتماعية، حيث نجح عالم الثقافة فى جذب انتباهها، فبدأت من ثم تتبلور نظرتها إلى الثقافات على أنها بناءات كلية Total Constructs من العناصر الذهنية والعقيدية والجمالية التى تتداخل وتمتزج جميعا، وهى النظرة التى ربطتها بالشخصية الانسانية التى ذهبت إلى أنها تتشكل بفعل هذه الثقافات وبتأثيرها، وأعلنت فى ذلك مقولتها الشهيرة التى تقول بأن ثقافة المجتمع هى شخصيته بأوسع معانيها. فالثقافة فى رأى روث بنديكت ليست مجرد مجموعات أو فئات متفرقة من الأفكار والأشياء المادية المصنوعة، ولكن كل مجتمع يستمر كيانه وتماسكه ووحدته نتيجة لوجود مبادئ تنظيمية معينة بحيث يكشف النمط الثقافى الناجم عن ذلك عن أنماط أو صيغ Configurations محددة ومتميزة خاصة بهذا النسق المعين بالذات. وهو موقف تأثرت فيه ولاشك بأفكار فرانز بواس Boas الذى أشرف على رسالتها للدكتوراه فى جامعة كولومبيا عن «مفهوم الروح الحارسة فى شمال أمريكا» The Concept of the Guardian Spirit in North America وهو المفهوم الذى يعتبر واحدا من الملامح الثقافية الهامة لدى الهنود الحمر فى شمال أمريكا. واستمر هذا التأثير يلاحقها بعد أن نالت درجة الدكتوراه فى ١٩٢٣ وعينت بجامعة كولومبيا حيث أصبحت أستاذا مساعدا من عام ١٩٣٠ وأستاذا فى عام ١٩٤٨.

ولقد انشغلت روث بنديكت فى معظم هذه الفترة بدراساتها الحقلية التى أجرتها بين قبائل جنوبى غرب الولايات المتحدة، وبخاصة قبائل «السيرانو» Serrano فى كاليفورنيا وقبائل «بلاك فوت» Blak Foot الكندية، وهى الدراسات التى ركزت فيها على جوانب الفولكور والعقيدة والدين بصفة خاصة، وأسفرت عن كتابها «أساطير الزونى» Zuni Mythology الذى ظهر من جزءين فى عام ١٩٣٥.

وطبقا لاعتقادها الأساسى بأن ثقافة أى جماعة من الجماعات الإنسانية تتميز عادة بوجود نمط أو «مبدأ» كلى مسيطر، بمعنى أنه يتجسد فى كل مناشط وأوجه حياة الجماعة، فقد انتهت روث بنديكت إلى أن قبيلة الزونى ينطبق عليها

ما سبق للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشة أن وصفه بالمبدأ أو الأسلوب الأبولونى Appollonian حيث يتسم تفكيرهم بالميل إلى الاعتدال والتأمل، كما تتسم سلوكياتهم بغير قليل من الاتزان وبالخضوع إلى القانون والمعايير وبالثقة فى الآخرين. وذلك على العكس من بعض القبائل الأخرى مثل الكواكيوتل التى وصفت بنديكت الطابع النفسى المسيطر عليها بأنه أميل إلى النموذج الديونيزى Dionysian الذى يتسم بالاندفاع والتطرف وبدرجة عالية من الأنانية وحب الذاتية بالإضافة إلى التشكك فى الآخرين.

وبالرغم من الأهمية التى يمثلها هذا الكتاب فى التراث الأنثروبولوجى فمازال كتابها أنماط الثقافة يعتبر أهم أعمالها وأكثرها تعبيرا عن منهجها التنميطى أو منهج النمط الكلى، والذى يظهر فيه أيضا مدى تأثرها بكتابات ديلتاى Dilthey عن رؤى العالم. ففى هذا الكتاب الذى يدور أساسا حول دراسة ثلاث ثقافات هى ثقافة الدوبو Dobu وثقافة البويبلو Pueblo وثقافة الكواكيوتل Kwakiutl، أوضحت روث بنديكت الكثير من الجوانب المتعلقة بمسائل الانتقال والانتشار الثقافى، حيث ذهبت إلى أن هناك من الملامح الثقافية والمظاهر السلوكية فى مختلف الثقافات ما يخضع لنوع من الإبراز والبلورة والتضخيم، مما يساعد على تثبيتها لا فى الثقافة أو المجتمع المعين نفسه، ولكن فى غيره من المجتمعات التى لم تكن هذه الملامح موجودة فيها أصلا. وإن كانت هذه المسألة تخضع ولاشك للظروف النسبية لكل ثقافة، مما يجعل اعتبار السياقات الثقافية والاجتماعية مسألة لابد من أخذها فى الحسبان عند تقويم أية ثقافة أو الحكم عليها.

ومع أن مبدأ النسبية الثقافية قد أصبح من المبادئ المسلم بها فى البحوث والدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية عموما، فإن الإطار العام الذى تناولت فيه روث بنديكت هذا المبدأ، وهو ما يتمثل فى فكرة «النمط الكلى» قد وجهت إليه العديد من الانتقادات التى ركزت أغلبها على قولها بوجود «نمط» أو «مبدأ» سلوكى واحد يسيطر على سلوك وتفكير أفراد الجماعة. فمن الصعب التسليم بصحة ذلك سواء على مستوى الفكر أو مستوى الواقع.

وقد لا يكون هناك خلاف حول فكرة أن ثقافة أى مجتمع من المجتمعات لها طابعها الخاص الذى يميزها عن غيرها من الثقافات، أو حتى أن هذه الثقافة أو تلك تطبع شخصية أعضائها بملامح وسمات عامة مميزة. ولكن الواضح أن هذا القول يعنى شيئا بينما القول بوجود نمط أو مبدأ واحد مسيطر يعنى شيئا آخر. فثقافة المجتمع لا تتميز عن ثقافة مجتمع آخر بفضل وجود هذا المبدأ الوحيد المسيطر، ولكن لأن هناك واقعيا العديد من الأنماط أو المبادئ الأساسية هى التى يمكن القول بأنها ما يعطى الثقافة طابعها النهائى نتيجة اجتماعها وتفاعلها معا. وهذا موقف يؤيده الكثيرون لعل فى مقدمتهم موريس أوبلر Opler وكلكهون Kluck-hohn الذى درس هنود النافاجو والكيفية التى يتصورون بها خبراتهم، وينظرون بها إلى الموضوعات التى تنطوى عليها قوانين الفكر.

وعلى العموم فقد أخذت كتابات روث بنديكت وبخاصة فى السنوات الأخيرة من حياتها تتسم بطابع إنسانى عام وضح فى الاهتمام الذى أخذت توليه للقضايا الإنسانية الأساسية. فقد ظهر فى عام ١٩٤٠ كتابها «العنصر والعلم والسياسة» Race, Science and Politics الذى سعت فيه إلى تطبيق المناهج الأنثروبولوجية المعترف بها، وهى المناهج التى عادت إلى استخدامها بشكل مركز فى دراستها لليابانيين وللثقافة اليابانية بتكليف من الحكومة الأمريكية. وظهرت نتائج هذه الدراسة فى كتابها المعنون: «زهرة الكرزانتيم والسيف: أنماط الثقافة اليابانية» The Chrysanthe-mum and the Sword: Patterns of japanese Culture (١٩٤٦)، وكان لهذه النتائج أكبر الأثر فى تحديد اتجاهات السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية حيال اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك على اعتبار أن الكتاب هو فى الأساس دراسة لنظرة اليابانيين للعالم وموقفهم منه. أو هو كتاب فى الثقافة بمعنى أدق. ومع أنها اعتمدت فى هذا الكتاب على التراث والوثائق والكتابات، بمعنى أنها لم تجر دراسة ميدانية عن الموضوع، فإنه يعكس بوضوح وجهة نظرها فى الثقافة وارتباطها بالشخصية.

ولقد ظلت روث بنديكت حتى اللحظات الأخيرة من عمرها مشغولة بعملها.

فكانت قبل وفاتها بعام واحد رئيسة للرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية، كما كانت تخطط لأحد المشروعات الضخمة التى كانت تزمع فيه القيام بدراسة الثقافات الأوربية والآسيوية المعاصرة. وهو مشروع لم يقدر على أى الأحوال أن تنفذه حيث توفيت فى عام ١٩٤٨. وبعد ذلك بأكثر من ربع قرن أقدمت مارجريت ميد Mead على نشر السيرة الذاتية لأستاذتها روث بنديكت ١٩٧٤، فوضعتها، بالرغم من بعض الأخطاء التى تضمنتها السيرة، فى المكانة اللائقة بها بين كبار الأنثروبولوجيين الذين قدموا للعلم أجل الخدمات.

● قراءات مقترحة●

- Argyle. Michael; Psychology and Social Problems. 1967.
- Collingwood. R. G. The Ideas of History, 1946.
- Erikson, ErikH.; Ruth Fulton Benedict: A Memorial, 1949.
- Eysenck. H. J : The Structure of Human Personality. 1960.
- Harris, Marvin; The Rise of Anthropological Theory. 1968.
- Mead, M. ;Benedict: An Anthropologist at Work, (ed.) 1966.

  ; Ruth Benedict. 1974.
- Sprott. W. J. H; Human Groups. 1967.

★ ★ ★

٢١ - برلين، السير إيزايا (١٩٠٩ -)
21 - BERLIN, Sir Isaiah

على الرغم من أصوله الروسية فإن السير إيزايا برلين يعتبر واحدا من أشهر الفلاسفة والمؤرخين البريطانيين الذين مازجوا فى كتاباتهم بين عقلية المؤرخ، وحس الأديب، وتأمل الفيلسوف، لدرجة أن اعتبرت مقالاته وكتاباته أنموذجا للكتابات النقدية والأدبية، بل والكتابة السياسية والاجتماعية فى القرن العشرين.

كان مولد السير إيزايا برلين فى ريجا Riha فى لاتفيا Latvia فى السادس من شهر يونيو عام ١٩٠٩. وكان بالكاد قد تجاوز العاشرة من عمره عندما هاجرت أسرته من الاتحاد السوفياتى فى عام ١٩٢٠، وتمكن بذلك من تلقى تعليمه فى مدرسة سان بول St. Paul ثم فى كوربس كريستى كوليج Corpus Christi College بأكسفورد. وبعدها استمر فى دراسته كطالب متميز حتى نال درجته العلمية الأولى، ومن ثم بدأ عمله كمدرس للفلسفة فى نيوكوليج بأكسفورد وهوعمل ولئن كان قد استغرقه لفترة طويلة نسبيا (ما بين ١٩٣٨ و١٩٥٠) إلا أنه تخللته فترات نجح فيها فى ممارسة العمل الدبلوماسى، حيث عمل أثناء الحرب العالمية الثانية خبيرا فى مكتب نيويورك للاتصال والمعلومات، كما عمل سكرتيرا أول فى السفارة البريطانية بواشنطن (٤٢ - ١٩٤٥)، ثم عين بعد ذلك فى السفارة البريطانية فى موسكو (٤٥/ ٤٦) وهى فترة نجح خلالها فى أن يكتسب ثقة رؤسائه وإعجابهم وبخاصة السير ونستون تشرشل Churchill، وعلى أية حال فقد عاد ثانية إلى اكسفورد ليتولى التدريس فى أول سولز كوليج ما بين عامى (١٩٥٠و ١٩٦٦) ثم ليعين عميدا بعد ذلك لكلية ولفسون Wolfson من ٦٦ إلى ١٩٧٥ وبعدها أستاذا فى أول سولز كوليج ثم رئيسا للأكاديمية البريطانية من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٨.

وربما كانت رشاقة الأسلوب وسلاسته أبرز الخصائص التى تميزت بها كتابات السير إيزايا برلين، وهى خصائص لا يلمسها القارئ فى كتاباته الأدبية فحسب، ولكن أيضا فى دراساته التاريخية والاجتماعية التى أسهم بها فى تشكيل وصياغة التوجهات الجديدة التى اتخذها مسار الفكر الاجتماعى بالإضافة إلى كتاباته السياسية النقدية الخالصة.

فى عام ١٩٣٩ أصدر برلين كتابه «كارل ماركس: حياته وبيئته» Karl Marx: His Life and Environment الذى تناول فيه بالمناقشة والتحليل المؤثرات البيئية والخارجية التى أثرت فى تشكيل فكر كارل ماركس وتكوينه. كما قدم فى عام ١٩٥٥ كتاب «الحتمية التاريخية» Historical Invitability الذى يعتبر انتقادا متعمقا لمذاهب الحتمية Determinism المختلفة، وأعقب ذلك بكتابه «عصر التنوير» The Age of Enlightenment ١٩٥٦ الذى ناقش فيه مناقشة تحليلية كتابات ومواقف فلاسفة القرن الثامن عشر. ثم بعد ذلك «أربع مقالات عن الحرية» Four Essays on Liberty. (١٩٦٩).

والواقع أن كتابات برلين يمكن القول بأنها كانت تدور فى مجملها حول محورين رئيسيين: فهو من ناحية كان يهتم، وبخاصة فى فلسفته السياسية، بمعالجة مشكلة الحرية والإرادة الحرة، وهى القضية الأساسية التى عرض لها فى كتاباته عن المجتمعات والأنظمة الشمولية التى تخضع لنظام الحكم الفردى. كما كان يهتم - وهذا من الناحية الثانية - بالتعرف على المقومات الرئيسية فى فكر كبار الفلاسفة والكتاب والمفكرين، ومن هنا كان ميله الواضح إلى اتخاذ كتاباتهم (حتى الأدبية والفنية) مادة لتحليله ودراسته. وتعتبر مقالته «الثعلب والقنفذ» The Headgehog and the Fox التى نشرها فى عام ١٩٥٢، (ثم عاد لنشرها ضمن «وثائق ومقالات اكسفورد السلافية» Oxford Slavonic Papers وهى مجموعة من الوثائق التى نشرت فى شكل كتاب عام ١٩٥٣)، واحدة من أروع المقالات التى كتبت فى النقد الأدبى والاجتماعى، حيث تناول فيها بالتحليل العناصر والمقومات البارزة فى شخصية ليوتولستوى Leo Tolstoy اعتمادا على تحليله لنظرياته التاريخية. وهو جانب فى كتابات تولستوى أهمله الباحثون ولم يسلطوا عليه الضوء الكافى. وفى

هذا الاتجاه نفسه نجده يهتم أيضا بجمع الكتابات والمقالات وسائر أعمال المثقفين الأدبية والفنية التى كتبها هؤلاء عن الحياة فى روسيا والخبرات السياسية والتاريخية والفكرية، وكانت حصيلة هذا الجهد أربعة مجلدات نشرها برلين عن المفكرين الروس Russian Thinkers فى عام ١٩٧٨. كما نشر فى العام نفسه كتابه «مفهومات ومقولات» Concepts and Catogries، وتبع ذلك كتابه «ضد التيار» Against the Current ١٩٧٩ و«انطباعات شخصية» Personal Impressions ١٩٨٠ بالإضافة إلى بعض مترجماته لأعمال إيفان تورجنيف Turgenev.

كان إيزايا برلين من القلائل الذين أصابهم التكريم أثناء حياتهم فقد نال العديد من الجوائز والأوسمة تقديرا لأعماله ولخدماته أثناء الحرب العالمية الثانية. كما منح لقب أمير الأمبراطورية البريطانية Commander of British Empire عام ١٩٤٦، ثم نصب فارسا عام ١٩٥٧ واختير عضوا فى مجمع الخالدين عام ١٩٧٣.

● قراءات مقترحة ●

Works; Essays on J. L .Austin. 1973.

● وانظر أيضا:

- Briggs. Asa; The Language of "Class" in Early Nineteenth Century England. 1960.
- Williams, Raymond; Culture and Society (1780 - 1950), 1960.

★ ★ ★

٢٢ - بير، هنرى (١٨٦٣ - ١٩٥٤)

22 - BERR, Henri

قليلون هم الأفراد الذين يمتلئ ذهنهم بفكرة أو بمشروع يكرسون كل حياتهم لتحقيقه وإنجازه. وهنرى بير، كان واحدا من هؤلاء القلائل الذين أرقتهم على مدى عمره الطويل (٩١ عاما) فكرة مسيطرة ملكت عليه كل حواسه: أن يضع أمام الناس تلك الملحمة الفريدة التى تطورت فيها البشرية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى العصر الحاضر.

ولد هنرى بير فى ٣١ يناير ١٨٦٣ فى لونيفى Lunévill بفرنسا وتوفى فى باريس فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٤ عن ٩١ عاما. عاش ما يزيد على نصفها منكفئا على تنفيذ مشروعه الكبير، جنبا لجنب كتاباته ومؤلفاته التى جعلت منه واحدا من أكبر الفلاسفة والمؤرخين الذين أنجبتهم فرنسا وتألق نجمهم على مدى سنوات النصف الأول من القرن العشرين.

وهو كمعظم كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين تعلم فى مدرسة المعلمين العليا «النورمال سوبيريور» École Normale Superieure فى باريس فيما بين عامى ١٨٨١ و١٨٨٤. عمل بعدها فترة فى التدريس ليصبح فى عام ١٨٦٩ أستاذا فى ليسيه هنرى الرابع Lycée Henri IV وهو عمل استمر يمارسه لفترة طويلة قاربت الثلاثين عاما، نال خلالها درجة الدكتوراه فى ١٨٩٩ عن رسالته التى قدمها بعنوان «الفلسفة والتاريخ».

وقد لا يكون فى كل ذلك ما ينبئ - حتى الآن - بتفرده أو حتى تميزه. فهناك الآلاف ممن ينال الدكتوراه فى كل عام. ولكن القليلين هم الذين يختطون مع

ذلك، الطريق التى سار هو فيها. ذلك أنه يرجع إليه الفضل فى تأسيس مجموعة من المجلات والمؤسسات التى كرست جهودها لنشر الدراسات التاريخية والفنية عن طريق تقديم المنح الدراسية، وتسهيل مهام الباحثين.

فى عام ١٩٠٠ أسس هنرى بير مجلة «المركب التاريخى» Revue de Synthése Historique، وهى مجلة كرست جهودها للتوفيق بين التاريخ والعلوم الاجتماعية. وبالرغم من ضخامة هذه المسئولية، فقد أقدم فى عام ١٩٢٤ على تأسيس المركز الدولى للتأليف Centre International de Synthése فى باريس، ليكون نواة لمشروعه الضخم الذى وقف حياته عليه. إذ شرع بير فى التخطيط لإنجاز مشروع «تطور الإنسانية» L' Evolution de Humanité، فى مائة مجلد، نشر منها ٦٥ مجلدا فيما بين ١٩٢٠ و١٩٥٤. أما المشروع نفسه فهو عبارة عن سلسلة من الدراسات والمقالات المطولة التى قصد بها إلى إبراز عوامل التأليف والتركيب فى الحضارة الإنسانية أثناء تطورها من عصور ما قبل التاريخ، إلى العصر الحاضر. وذلك فى ضوء نظريته الخاصة التى أقامها فى التاريخ. والتى ميز فيما بين ٣ أنماط للعلاقات السببية هى تتابع الحقائق والعلاقات الدائمة، والضرورة والارتباط الداخلى، والارتباط المنطقى فيما بين هذه الحقائق والعلاقات. وهى نظرية لا تقف بالبحث التاريخى عند مجرد الواقعة أو الحدث، ولكنها تستقصى العلاقات ودوافع الارتباطات وأسبابها فى علاقاتها أيضا بالظروف والواقع الاجتماعى نفسه. وكأنما المؤرخ هنا هو باحث اجتماعى أيضا، بل وفيلسوف.

كذلك تضمنت أعماله الفكرية الأولى سلسلة من النشاطات إذ أسس فى عام ١٩٣٦ مجلة «العلم» Science وهى خطوة تعكس اتجاهه للتقريب بين الفلسفة والعلم كدعامتين لفهم روح العصر الذى لم يكن بعيدا عن أحداثه على ما ظهر بصفة خاصة فى مؤلفاته التى كتبها عن مسألة الإلزاس واللورين، وعن الواقع السياسى والقومى لألمانيا، إضافة إلى عمل روائى وفلسفى وحيد قدمه باسم «أنشودة الحياة» L'Hymne de la Vie عام ١٩٤٢، وكأنما أراد بذلك أن يعلو صوت الحياة على كل مظاهر الدمار التى سببتها سنوات الحرب القاسية.

- Elias, Norbert; The Civilising Process . 1978.

- Hempel. C. G. and Oppenheim, P.; Studies in The Logic of Explanation ,Philosophy of Science. Vol. 15. 1948.

- Rayan. Alan; The Philosophy of Social Sciences. 1970.



٢٣ - بينجهام، حيرام (١٨٧٥ - ١٩٥٦)
23 - BINGHAM, Hiram

دخل ميدان السياسة من أوسع أبوابها، فقد انتخب مساعدا لحاكم ولاية كونيكيكت Connecticut الأمريكية فى عام ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤. وفاز فى انتخابات عام ١٩٢٤ كحاكم للولاية، ولكنه استقال من منصبه ليصبح عضوا فى مجلس الشيوخ الأمريكى عام ١٩٢٦، ومن وقتها وهو يكرس جهوده للقضايا والشئون العامة إلى أن عين مستشارا ومسئولا عن الخدمات المدنية فى عام ١٩٥١ فى عهد الرئيس الأمريكى السابق هارى ترومان Truman.

ومع ذلك فإن الشهرة التى تحققت له لم تكن بسبب عمله السياسى فى هذا المنصب أو ذاك، ولكنها انبنت أساسا بوصفه أحد علماء الآثار الأمريكيين، ونتيجة لكشوفه الأثرية التى ألقت الضوء على كثير من صفحات التاريخ الأمريكى القديم.

هو الأركيولوجى الأمريكى حيرام بينجهام، من مواليد هونولولو Honolulu فى ١٩ نوفمبر ١٨٧٥ وتوفى فى ٦ يونيو ١٩٥٦ فى واشنطن. وأحد القلائل المبرزين الذين استهوتهم محاولة الكشف عن ملامح وأصول الحضارات الكبرى التى عرفتها أمريكا. وكان أول من نجح فى عام ١٩١١ فى تحديد موقع عاصمة حضارة الانكا Inca وهى العاصمة المعروفة باسم فيلكابامبا Vilcabamba بالقرب من ماشو بيتشو Machu Picchu التى تقع فى قلب منطقة وعرة من الأنديز فى بيرو.

ولقد كان اهتمامه بالبحوث والتنقيبات الأثرية أشبه بالهواية والميل الشخصى فى أول الأمر. فقد عشق بينجهام منذ الصغر رياضة تسلق الجبال. وربما تضافر هذا العشق مع رحلاته التى كان يلازم فيها أباه الذى كان يعمل

مبشرا فى الكشف عن حقيقة ميوله وتنميتها، لأنه أخذ منذ عام ١٩٠٦ يشبع ميله للتعرف على تاريخ أمريكا اللاتينية الذى بدأ ينجذب إليه بشكل شديد.

كانت نقطة البداية بالنسبة إليه معرفته أن أمريكا الوسطى وبيرو بصفة خاصة هما المركزان الرئيسيان اللذان يكشفان عن أهم الملامح الحضارية التى عاشتها هذه المناطق من العالم. ولهذا نجده يسافر فى ١٩٠٦ عن طريق الأنديز الذى كان قد استخدمه سيمون بوليفار Bolivar فى ١٨١٩ من فنزويلا Venezuela إلى كولومبيا. ثم تبع بعد ذلك فى عام ١٩٠٨ طريق التجارة الأسبانية القديم عبر الأنديز من بوينس إيريس Buenas Aires إلى ليما Lima فى بيرو.

ولم تكن مهمة ارتياد هذه المناطق والتنقيب فيها مهمة سهلة بأى حال من الأحوال، فحتى ذلك التاريخ كانت الصور والخرائط والرسومات التى تحدد المواقع والأماكن قليلة للغاية وغير دقيقة، لدرجة أن الغزاة الأسبان أنفسهم لم يتمكنوا من اكتشاف موقع فيلكابامبا رغم محاولاتهم.

وعلى أية حال فقد ساعده عمله كعضو فى كلية التاريخ بجامعة ييل Yale من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٤ على توجيه البحوث الآركيولوجية وبعثات التنقيب التى ترسلها الجامعة نحو هدفه الأساسى. وبالرغم من فقر المعلومات وقلة المعارف المتوافرة لدى هذه البعثات فقد استطاع أن يحدد موقعا تقريبيا لفيلكابامبا التى اعتقد أنها لابد أن تكون على مسافة ما من كوزكو Cuzco فى بيرو.

ولقد نجح فى شهر يونيو عام ١٩١١ فى الوصول إلى أحد المواقع القريبة من كوزكو. وكشفت تنقيباته فى هذا الموقع عن بقايا من المصنوعات الحجرية التى تحتفظ بشكلها، وقد أدهشته كثيرا مظاهر الشبه بين بعض الأبنية ومعبد الشمس Temple of the Sun الموجود فى كوزكو، وإن كان الغريب أنه لم يكن يعرف حتى ذلك الحين أنه قد وصل بالفعل إلى فيلكابامبا.

وعلى العموم فقد تمكن فى أغسطس من العام نفسه من العثور على موقع آخر من مواقع حضارة الانكا هو فيتكوس Vitcos. وقد حفزه ذلك إلى أن يعود فى

عام ١٩١٢ إلى الموقع الأول بالقرب من كوزكو، وأن يقوم بتنقيبات واسعة تأكدت بها شكوكه أنه فوق أرض عاصمة الأنكا التى ظلت مجهولة لقرون عديدة.

ولقد خلف بينجهام العديد من المؤلفات التى تدور حول هذه الكشوفات فى أمريكا الجنوبية، فى مقدمتها «أرض الانكا» Inka Land فى ١٩٢٢ وبعده «مدينة الأنكا المفقودة» Lost City of the Inkas الذى صدر فى ١٩٤٨. وهى كتابات مازالت تتمتع بكثير من التقدير على الرغم من تقادم العهد بها.

● قراءات مقترحة ●

- Bushnell, G. H. S: (eds), Peru. 1976.

- Sellards, E. H ; Early Man in America. 1952.

★ ★ ★

٢٤ - بليك ، ماكس
24 - BLACK, Max

التساؤل البسيط الذى طرحه بليك فى مقدته الضافية لكتابه القصير الممتع «تيه اللغة» The Labyrinth of Language عما يميز الإنسان عن غيره من سائر الحيوانات، أو بتعبير آخر الأسباب والخصائص التى جعلت الإنسان إنسانا أو ما هو عليه الآن، ثم إجابته القصيرة التى اختزل بها مسيرة ملايين السنين وهو يجيب على ذلك بأن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على النطق والكلام Homo Loquens لأنه الكائن الوحيد الذى ينتمى إلى ذلك النموذج الفيزيقى الذى يطلق عليه فى العادة اسم الإنسان العاقل Homo Sapiens: ما كاد ماكس يتساءل هذا التساؤل ويجيب عليه بهذه الإجابة حتى انفتح طريق طويل أمام البحوث والدراسات اللغوية التى تهتم بقضية الاكتساب اللغوى وبكيفية النطق الإنسانى والقدرة على إصدار الأصوات. وليضيف بذلك إلى الدراسة العلمية الجادة للغة خاصة وهو يسلم بأسبقية الكلام وبحقيقة أنه لو لم تكن هذه القدرة الفطرية لدى الإنسان وقدرته على الفهم والإدراك وأيضا قدرته على اختزان التجربة وكلها من ذات تكوينه لاستحال أن يكون هناك تخيل أو فكر أو معرفة من أى شكل أو لون.

وماكس بليك الذى ولد فى الرابع والعشرين من شهر فبراير عام ١٩١٥، روسى المولد أمريكى الجنسية، يعتبر فى مقدمة فلاسفة اللغة التحليليين الذين سعوا فى دراساتهم وبحوثهم إلى المزج بين ماهية اللغة الإنسانية وتحليل عناصرها ومكوناتها، وبين الوظيفة أو الوظائف الاجتماعية التى تقوم بها اللغة، وكان بذلك من بين الأوائل الذين ربطوا بين نشأة اللغة وسياقاتها الاجتماعية والثقافية، وهى النظرة التى أصبحت ركيزة فى البحث اللغوى المعاصر.

تلقى تعليمه الأساسى فى إنجلترا ثم رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث نال درجة الدكتوراه فى المنطق من جامعة كورنل Cornell وخلال الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٦ عمل مدرسا ثم أستاذا لفلسفة اللغة بجامعة كورنل وجامعة ألينوى Illinois، كما زار عددا من الجامعات فى مختلف أنحاء العالم كأستاذ زائر ومحاضر له جماهيره الواسعة. ثم بعد ذلك فى عام ١٩٥٠ أصبح محررا مسئولا للمجلة الفلسفية The Philosophical Review التى لعبت دورا كبيرا فى نشر أفكاره وآرائه وترسيخ شهرته ككاتب لا تقف نشاطاته العلمية عند حدود أسوار الجامعة.

وتكشف كتابات ماكس بليك اللغوية والفلسفية عموما عن معرفة واسعة تميل به إلى السعى وراء توضيح المعنى باعتبارها القضية الأساسية التى ينبغى أن تشغل الباحث اللغوى. وقد سار فى هذا الاتجاه نفسه الذى اتخذه لودفيج فتجنشتين Wittgenstein. وبالرغم من أنه أكد فى ذلك على حقيقة أن اللغة قد أصبحت وسيلة للتفاهم مع الآخرين إن لم تكن أهم وسائل الاتصال الإنسانى وأبعدها تأثيرا، وهو الأمر الذى لا يختلف عما نجده عند فتجنشتين وحتى عند إدوارد سابير Sapir، فإن الملاحظ مع ذلك أن كتاباته تنطوى على فهم خاص لهذه الناحية يجعله يبدو غير متفق تماما مع كثير مما ذهب إليه سابير على وجه الخصوص.

ويمكن توضيح هذه الناحية إذا أخذنا فى الاعتبار نظرة إدوارد سابير للغة وتعريفه لها، فقد كان سابير واضحا فى تقريره أن اللغة هى وسيلة إنسانية خالصة بمعنى أنها غير غريزية بالمرة. كما قرر أيضا أنها وسيلة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة إرادية، وقد حدد ذلك بشكل أوضح فذهب إلى أن اللغة من حيث البناء هى فى هيئتها الباطنة قالب للفكر.

ولكن هذا بالضبط هو ما أنكره بليك على موقف سابير، فاللغة فى رأيه ليست مرآة للحقيقة كما ذهب سابير، وإنما المشكلة هى فى الاستخدام المتعدد والمتشابك أيضا للكلمات والألفاظ والتعابير، وفى الربط بين ما يصدر عن الإنسان

من أصوات وبين الخبرة الواقعية أو الخبرة بالواقع بمعنى أدق. وإذ يقرر بليك هذا فإنه يقترب كثيرا من الموقف العام الذى نجده لدى التحليليين الذين يرون أن المشكلات الفلسفية وبالتالى المشكلات الاجتماعية ليست أصلا مشكلات ولكنها تنتج بصفة أساسية نتيجة لسوء استخدام اللغة ونطقها، وبالتالى فإن النجاح فى حل هذه المشكلات لن يتم إلا إذا استخدمنا اللغة استخداما صحيحا. وهو ما يستدعى لا التعرف فحسب على النواحى البنائية للغة، ولكن أيضا اعتبار تغيرها كنسق من الوظائف المرتبطة باحتياجات الإنسان فى المجتمع. والناحيتان معا يطرأ عليهما من غير شك غير قليل من التغيير بتغير الملامح الثقافية أو المقومات البنائية لكل من الثقافة والمجتمع سواء بسواء.

مشكلة المعنى إذن وتداخل المعانى وسوء المفهم هى المشكلة المحورية فى فكر ماكس بليك، والتى ترددت فى كل كتاباته. ففى عام ١٩٥٤ ظهر كتابه «مشكلات التحليل» Problems of Analysis ثم بعد ذلك كتابه «اللغة والفلسفة» Language and Philosophy وأيضا «طبيعة الرياضيات» The Nature of Mathematics ثم «الصياغات والمجاز والاستعارة» Models and Metaphors (١٩٦٢)، و«مرافق لرسالة فتجنشتين» A Companion to Wittgenstein's Tractatus فى (١٩٦٤)، و«الفلسفة اللغوية والتحليلية» Analytic and Linguistic Philosophy و«تيه اللغة» (١٩٧٢).

• قراءات مقترحة•

Works: Linguistic Relativity: The Views of Benjamin lee Whorf. Philosophical Review. 68. 1959.

"Reasoning with Loose Concepts", Dialogue, Vol. I (1963 - 4).

• وانظر أيضا:

- Lyons, John; Structural Semantics. 1963.

; Introduction to Theoritcal Linguistics. 1968.



٢٥ - بلجين، كارل (وليام)
25 - BLEGEN,Carl (William)

يصنف كارل وليام بلجين كواحد من أشهر علماء آثار ما قبل التاريخ Prehis-toric الأمريكيين، ذلك العلم الذى يعتبره الكثيرون فرعا من فروع الأنثربولوجيا الثقافية والذى يهتم بدراسة المجتمعات البشرية القديمة وثقافاتها منذ أول ما ظهر الإنسان العاقل Homo Sapines. وأيضا كواحد من الذين أضافوا باكتشافاتهم وتنقيباتهم إلى معرفتنا بالمراحل قبل التاريخية للحضارة اليونانية على وجه الخصوص.

ولقد ولد بلجين فى السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٨٧ فى مينابوليس Minneapolis بالولايات المتحدة الأمريكية. وباعتباره واحدا ممن جذبتهم منذ سن مبكرة ثقافة الأغريق القدماء كما ترددت فى أعمال كبار المفكرين والفلاسفة والشعراء اليونان وبخاصة هوميروس، فقد اهتم بدراسة الكلاسيكيات وانكب بصفة خاصة على الإلياذة Illiad والأوديسة Odyssey حيث أخذت تشده الصور التى رسمها هومير Homer عن طروادة Troy. وهى الصور التى أصبحت فيما بعد محورا لاهتماماته التى كرس حياته العلمية كلها بحثا عما يؤكد واقعيتها تاريخيا.

وهو لم يزل دون الثلاثين من عمره وأثناء انضمامه للمدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية American School of Classical Studies بأثينا Athens فى الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩٢٧ بدأ بلجين تنقيباته فى عدد من المواقع الأثرية فى الشمال الشرقى للبيلوبونيز Peloponnes وهى مواقع تصور أن لها أهميتها الخاصة لإعادة بناء المراحل قبل التاريخية لليونان. والمدهش أنه تمكن بعد ذلك بسنوات فى عام ١٩٣٩ من اكتشاف عدد من اللوحات المصنوعة من الطين الطفلة منقوش عليها واحدة من أقدم المنقوشات الأوربية التى يرجع تاريخها إلى ١٢٥٠ ق. م. كما نجح

خلال الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩١٨ فى نشر ما يعتبره علماء الأنثربولوجيا الثقافية وعلماء آثار ما قبل التاريخ خطوة رئيسية متقدمة فى طريقة تحديد تاريخ ثقافة ما قبل الحضارة الميسينية Pre- Mycenaean اعتمادا على بقايا الفخاريات التى عثر عليها بالمنطقة، وذلك بالاشتراك مع الآركيولوجى البريطانى أ. ج. ب واس A. J. B. Wace الذى شاركه بحوثه وتنقيباته فى المواقع التى سبق له تعيينها بهذه المنطقة.

ولكن جانبا كبيرا من الفضل فى نجاحاته اللاحقة يرجع بالتأكيد إلى مساعدة جامعة كينكيناتى Cincinnati (أوهايو Ohio) التى عمل بها استاذا للآركيولوجيا الكلاسيكية Classical Archaeology فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٧، فقد ساعدته الجامعة فى توجيه تنقيباتها إلى حصارليك Hisarlik وبعض المواقع الأخرى التى كان بلجين موقنا من أنها موقع مدينة طروادة القديمة.

وأثناء تنقيبات هذه البعثة (١٩٣٢ - ١٩٣٨) تمكن هو وزملاؤه من اكتشاف أن الفترات التسع الرئيسية التى كانت تحدد فى ضوئها أحداث بناء طروادة وتدميرها ثم اعادة بنائها وتجديدها ثانية إنما تمثل كل منها طورين أو أكثر. ونجح الفريق فى ضوء دراسته للطبقات الجيولوجية فى اكتشاف وتعيين ستة وأربعين طورا من هذه الأطوار. بل ونجح فى تقديم بعض الشواهد التى تثبت أن بقايا طروادة الملك بريام Priam التى ترجع إلى الفترة الرئيسية السابعة VII أى إلى ١٢٥٠ ق. م قد شهدت الكثير من مظاهر التدمير والتخريب البشرى. وقد وصف مراحل هذه البحوث والتنقيبات وما أسفرت عنه من كشوف فى المجلدات التى أصدرتها جامعة كينكيناتى وأشرف هو على إعدادها وتحريرها. والتى صدر منها أربعة أجزاء تحت عنوان «طروادة: تنقيبات قامت بها جامعة كينكيناتى فيما بين عامى ١٩٣٢ و١٩٣٨) Tory: Excavations Conducted by the University of Cincinnati. 1932 - 1938. (وهى الأجزاء التى ظهرت فيما بين ١٩٥٠ - ١٩٥٨)، وإن كان هو قد نشر بعد ذلك بسنوات قليلة طبعة شعبية عامة بمحصلة بحوثه وكشوفاته، وذلك فى مؤلفه «طروادة والطرواديون» Troy and the Trojans (١٩٦٣).

وفى نفس الاتجاه الذى كانت تشده إليه المواقع التى وصفها هومير فقد عاد

بلجين مرة ثانية إلى اليونان فى عام ١٩٣٩، وخطط لتحديد موقع قصر الملك نستور Nestor فى بيلوس Pylos وعين لذلك منطقة إيبانو انجليانوس Epano Englia-nos فى ميسنيا (موكناى)، على بعد خمسة أميال شمال خليج نافارينو Navarino كمنطقة يرجح كثيرا أنها موقع هذا القصر.

والواقع أن عمليات التنقيب كشفت عن بقايا بناء أو مجموعة من البنايات الضخمة. وربما كان أكثر كشوفاته قيمة ودلالة النماذج الأولى والمبكرة جدا للكتابة الإغريقية التى تشبه لوحة نقش الحرف B التى كان قد تم العثور عليها فى وقت أقدم فى كريت Crete. وبمواصلة التنقيب بداية من عام ١٩٥٢ تمكن من اكتشاف ما يزيد على ١٠٠٠ لوحة منقوشة فى بيلوس، وكذلك أحد القصور الميسينية البديعة التى ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلادى.

وإزاء هذا النجاح فقد أقام فى بيلوس حتى عام ١٩٦٤ حيث تمكن خلال هذه الفترة من العثور على عدد من المقابر التى عثر فيها على بقايا ومخلفات تنبئ عن أنها كانت لطبقة النبلاء والأثرياء. وقد قام بلجين بالاشتراك مع ماريون راوسون Rawson بتسجيل هذه الكشوفات جميعا فى مؤلفهما الذى نشره تحت عنوان «قصر نستور فى بيلوس بمسنيا الغربية» The Palace of Nestor at Pylos in Western Messinia والذى ظهر فى ٣ أجزاء أولها عام ١٩٦٦ وآخرها عام ١٩٧٣ بعد وفاته فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٧١.

• قراءات مقترحة•

Works: Excavation Reports, American Journal of Archaeology (1939 - 1957).
and Orhers; 4 Vols. 1950, 1951, 1953, 1958.

• وانظر أيضا:

Wace. A. J. B; Mycenae, 1969.

★ ★ ★

٢٦ - بلــوخ، إرنســت

26 - BLOCH, Ernst

يعتبـر إرنست بلوخ نموذجا بارزا للفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين الذين ساهموا فى مراجعة الماركسية مما كان له أثره فى صياغة فلسفة ماركسية متفائلة اصطلح على تسميتها «فلسفة الأمل» Philosophie der Hoffnung تنادى بالتقدم وبالتحرير السياسى الأمر الذى اعتبره بلوخ تصحيحا للنظرة الجزئية المتميزة التى نظرت بها الماركسية التقليدية للحقيقة.

ولد إرنست بلوخ فى الثامن من شهر يوليو عام ١٨٨٥ فى لود فيجشافن Lud-wigshafen بألمانيا، وتوفى فى الرابع من أغسطس عام ١٩٧٧ فى شتوتجارت Stutt-gart بألمانيا أيضا.

وقد بدأ طريق حياته فى جامعة ليبزج Leipzig متأخرا بعض الشىء عام ١٩١٨. ولكنه أمام تصاعد موجات الفكر النازى هرب من ألمانيا إلى سويسرا عام ١٩٣٣، ثم رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث استقر وتمكن من إنجاز الجزء الأول والجزء الثانى من عمله الرئيسى الذى اشتهر به وهو مؤلفه «مبادئ التفاؤل» Das Prinziphoffnung الذى جاء فى ثلاثة أجزاء نشرت فيما بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٩.

ومع أن بلوخ كان قد عاد إلى ألمانيا فى عام ١٩٤٨ حيث التحق ثانية بجامعة ليبزج التى هيأت له مناخا علميا مناسبا هيأه لأن يفوز فى عام ١٩٥٥ بالجائزة القومية National Prize لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وهى الجائزة التى تعتبر أرقى الجوائز الرسمية وأعلاها شأنا، واستمر يمارس عمله فى الجامعة حتى عام ١٩٥٧ إلا أن كتاباته الاجتماعية والسياسية التى كان ينشرها فى جريدة Deautsche Zeits-

chrift Fur Philosophic التى أشرف على تحريرها منذ عام ١٩٥٣، جعلته يبدو فى عين السلطات كمحرض خطير ضد حكم الحزب الشيوعى وموظفيه الرسميين، ومن ثم أخذت فى اضطهاده متهمة إياه بالثورية (من وجهة نظرها ومفهومها الخاص طبعا) ومنعته من النشر، وصادرت كتاباته، بل واعتبر مرتدا ومنشقا من عام ١٩٥٧، وبلغ من ذلك أن أعدمت كتاباته فى عام ١٩٦١ فلم يجد مفرا من الهرب إلى ألمانيا الاتحادية (الغربية) Fedral Republic of Germany حيث عمل أستاذا زائرا بجامعة توبنجن Tubingen التى فتحت له أبوابها بمزيد من الترحيب والتقدير.

وعلى أية حال فقد اشتهر ارنست بلوخ على مدى حياته العلمية والعملية بكونه أحد كبار النقاد المناهضين للفكر الماركسى، وبخاصة تلك المبادئ والأفكار التى تضمنتها الماركسية باعتبارها فلسفة فى الطبيعة، وأيضا تلك المتضمنات المرتبطة بموقفها بصدد المعرفة والمصالح البشرية. وإن كان البعض من النقاد مازال يأخذ على بلوخ امتزاج فكره وفلسفته بغير قليل من العناصر البوذية حتى ليبدو أقرب ما يكون تعبيرا عن مسيحية بوذية يرى فيها خلاص الإنسان وتحرره من مشكلاته، وهو انتقاد لا يخلو فى الحقيقة من الصدق.

● قراءات مقترحة●

- **Works**; Natural Law and Human Dignity. Tran. 1986.
;Utopie et Marxism, Archives de Sociologie des Religions. 1966.

★ ★ ★

٢٧ - بلوم، فرانز فردينان

27 - BLOM, Frans Ferdinand

لا ترجع أهمية العالم الداينماكى فرانز فردينان بلوم إلى أنه يقف فى مقدمة الآركيولوجيين الذين سعوا إلى إعادة بناء الثقافات القديمة فى ضوء ما يعثرون عليه من بقايا مخلفات مادية يعاملونها بمناهجهم وبأساليبهم لتحديد الفترات الزمنية التى ترجع إليها، ولكن ترجع أهميته أيضا إلى أنه يعتبر حجة فى حضارة المايا Maya التى تعتبر أعظم الحضارات القديمة فى العالم الجديد، والتى انتشرت فى جزء من المكسيك وفى بعض المناطق التى تعرف اليوم باسم يوكاتان Jucatan وكامبش Campeche وتابسكو Tabasco وهندوراس Honduras البريطانية وجواتيمالا Guatemla، حيث قادته بحوثه وتنقيباته إلى اكتشاف عدد من المدن المفقودة التى تنتمى إلى العصر الكلاسيكى Classical Period الذى امتد ما بين عامى ٣٠٠ إلى ٩٠٠ ميلادية، وهى الفترة التى يصفها علماء آثار ما قبل التاريخ بأنها شهدت ازدهار هذه الحضارة ومظاهر التقدم التى عاشها شعب المايا الذى ترجع أصوله التاريخية إلى الثقافات المحلية التى ازدهرت فيما قبل ألفى عام حوالى ٥٠٠ ق. م.

ولقد ولد بلوم عام ١٨٩٣ فى كوبنهاجن، وما أن حصل على درجته العلمية الأولى من جامعة كوبنهاجن حتى هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٩ حيث حصل على درجة الماجستير من جامعة هارفارد عام ١٩٢٥. وبالرغم من أنه كانت قد أتيحت له قبل ذلك (٢٢ / ١٩٢٣) فرصة المشاركة فى إحدى البعثات العلمية فى المكسيك مما أكسبه ولاشك بعض الخبرات التى ساعدته على بلورة أساليبه فى البحث وفى جمع المادة والحقائق وكيفية معالجتها والربط بينها. بالإضافة إلى عمليات التصنيف والتبويب وكلها جوانب تحدد بها طابع شخصيته

العلمية المتميزة، فإن الشيء اللافت للنظر أنه قضى معظم حياته فى أدغال شياباس Chiapas إلى أن توفى فى سان كريستوبال San Cristobal بالمكسيك عام ١٩٦٣، حيث ارتبطت شهرته أكثر ما ارتبطت بجهوده التى توجها بإزالة النقاب عن كثير من فنون المايا وبخاصة فنهم المعمارى فى بالينك أوكساكشين Palenque Uxaac-tun بجواتيمالا وفيراكروز Veracruz. وهى الجهود التى يرجع إليها الفضل فى معرفتنا بملامح حضارة المايا وخصائصها وخاصة بالنسبة لفن الزخرفة والنقوش. ومن المهم هنا أن نذكر أنه على الرغم من تميز حضارة المايا بفن العمارة وخاصة بناء الأهرامات، فقد أكدت تنقيبات بلوم أن هذا الشعب لم يستخدم المعادن على نطاق واسع وإنما كان فنهم من المشغولات الخشبية وفى الحجر السلى، وهى مشغولات برعوا فى تشكيلها وتلوينها بألوان زاهية ومزركشات بديعة، علاوة على أن كتاباتهم التى يعتبرها البعض أشد تعقيدا من الهيروغليفية لم تكن منقوشة فوق الحجر فحسب، وإنما كانت تنقش أيضا بالألوان فوق الجلود والألواح الخشبية وعلى لحاء الأشجار بعد ضغطها لتصبح رقيقة. كما يرجع الفضل أيضا لهذه التنقيبات فى أنها كشفت عن ملامح تقدم هذه الحضارة فى بعض العلوم وبخاصة علم الحساب وعلم الفلك، بالاضافة إلى كون المايا من أوائل الشعوب التى أدخلت استخدام (الصفر) فى حساباتهم. ويزيد من معنى هذه الكشوف ودلالتها أنه يرجع الفضل إلى فرانز بلوم فى اكتشاف آخر بقايا شعب لوكاندن Laucandon الذى يعتبر من سلالات المايا، وذلك أثناء تنقيباته فى هذه المنطقة عام ١٩٤٨.

وعلى العموم فقد تشعبت جهود بلوم ومسئولياته بشكل كاد ينعكس على بحوثه وتنقيباته الميدانية. فقد عمل فى الفترة من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٤١ مديرا لمعهد بحوث أمريكا الوسطى التابع لجامعة تولان Tulane فى نيوأورليانز. ولكنه بعد أن استقر فى المكسيك فى ١٩٥٠ أنشأ بالاشتراك مع زوجته فى سان كريستوبال دولاكاس San Cristobal de las Cases مركزا للبحث بالإضافة إلى متحف يعتبر من أكبر متاحف الآركيولوجى والأثنوجرافيا فى العالم. فضلا عن تأسيسه مكتبة ضخمة ملأها بالكتب والمؤلفات التى تحتوى على قدر هائل من المعلومات عن حياة المايا وحضارتهم.

ولقد سجل فرانز بلوم أفكاره واكتشافاته فى عدد من المؤلفات التى تضمنت الكثير جدا من المعلومات التى أصبحت ركيزة للمهتمين بدراسة هذه المناطق وثقافاتها، ويعتبر كتابه «قبائل ومعابد» Tribes and Temples الذى أصدره فى عام ٢٦/٢٧ بالاشتراك مع أوليفر فارج Farge العمل الرئيسى الذى يعكس منهجه فى البحث والتنقيب. ولا يقل أهمية عن هذا الكتاب كتابه الآخر الذى ظهر فى ١٩٣٦ بعنوان «فتح يوكاتان» The Conquest of Jucatan الذى يعتبر دراسة متخصصة لأسباب عظمة الأمم والشعوب وأسباب انهيارها كذلك.

● قراءات مقترحة●

- Morley S, G. and Brainerd, G. W.; The Ancient Maya. 1956.

- Thomson, J. E. S; Maya Hieroglyphic Writing: "Introduction". 1955.
  ; The Rise and Fall of Maya Civilization. 1962.

★ ★ ★

٢٨ - بلومفيلد، ليونارد
28 - BLOOMFIELD, Leonard

يعتبر ليونارد بلومفيلد واحدا من أكبر علماء وفلاسفة اللغة فى النصف الأول من القرن العشرين، وربما أبعدهم تأثيرا. ويعتبر كتابه «اللغة» Language (١٩٣٣) كتابا نموذجيا ومن أهم ماكتب فى اللغويات؛ حتى أن البعض قد ذهب إلى أنه نقطة تحول أساسية حددت بدرجة كبيرة مسار الاتجاهات والدراسات اللغوية بعد ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد ولد بلومفيلد فى شيكاغو عام ١٨٨٧ ونال تعليمه فى أكثر من جامعة واحدة فدرس فى هارفارد ووسكونسن وشيكاغو. كما قام فى الفترة من عام ١٩٠٩ - ١٩٢٧ بالتدريس فى ثلاث من أكبر الجامعات الأمريكية هى جامعة ألينوى وأوهايو ستيت وشيكاغو، وذلك قبل أن يصبح أستاذ الفقة وفلسفة اللغة الجرمانية Philology فى جامعة شيكاغو (١٩٢٧ - ١٩٤٠) وبعدها أستاذا للغويات بجامعة ييل فى الفترة من ١٩٤٠ حتى وفاته فى الثامن عشر من أبريل عام ١٩٤٩ فى نيوهافن بولاية كونيكتيكت Connecticut الأمريكية.

فى كتاباته الأولى المبكرة وضح اهتمامه بالبحوث والدراسات المقارنة للغات الهندوأوربية وبخاصة اللغات الجرمانية التى سعى إلى تحليل أصواتها وتفاصيلها البنائية وإلى الكشف عن كيفية بناء الكلمات وترابط العبارات ارتكازا على فهم طبيعة المادة التى تتكون منها. ولكنه تحول بعد ذلك إلى مجالات أوسع من البحث والدراسة، الأمر الذى يظهر بصفة خاصة فى مؤلفه «مقدمة لدراسة اللغة» An Introduction to the Study of Language الذى نشر فى عام ١٩١٤، وهو كتاب مازال موضع تقدير إلى يومنا هذا. ثم أخذ بداية من عام ١٩١٧ فى إنجاز مجموعة من

البحوث والدراسات الرائدة عن اللغات الملايوية بولينيزية Malayo - Polynesian ضمن مجموعة اللغات الأوسترونسية Austronesians وبخاصة لغة التاجالوج Tagalog فى الفيلبين، كما شرع فى أوائل العشرينات فى عمله الكلاسيكى الضخم الخاص بلغات هنود أمريكا الشمالية، فأضاف بذلك كما هائلا من المعلومات الوصفية والمقارنة الدقيقة التى أثرت الدراسات المقارنة الخاصة بعائلة اللغات الألجونكينية Algonquian . على العموم فقد نشرت نتائج هذه الدراسات والبحوث فى عدد كبير من المقالات التى تناولت شتى الموضوعات وبخاصة فى الفونيتكس Phonetics (علم الأصوات اللغوية من حيث ما يلقيه من ضوء على الجانب النطقى بمعنى الوسط الذى تحدث فيه اللغة المنطوقة) واللغويات التاريخية والسيمانتيك Semantics (العلم الذى يهتم بدراسة معنى الكلمات والعبارات والعلاقات الدلالية المختلفة وما يطرأ على هذه النواحى بفعل التغيير) وكذلك كيفية تدريس اللغات الأجنبية.

ومع ذلك يظل كتابه «اللغة» Language ١٩٣٣. هو عمله الضخم الرئيسى الذى يكشف بوضوح عن نظريته فى اللغة ومنهجيته فى البحوث اللغوية. فقد تناول فى هذا الكتاب المميز الفونولوجى الوصفية Descriptive Phonology وهو يعنى بذلك وظيفة الأصوات فى البناء اللغوى وما يقوم بينها من علاقات لتبدو فى آخر الأمر كنظام أو نسق محدد له دلالته بالإضافة إلى مختلف القضايا المتعلقة بالنحو وبالتغير اللغوى. ويرى الكثيرون أنه كان لهذه الجهود أثرها فى تطوير علم الأصوات اللغوية وعلم الأصوات التركيبى معا مما أسهم فى تشييد ما أصبح يعرف وخاصة بعد جهود فردينان دوسوسير De Saussure باسم اللغويات البنائية Structural Linguistics التى أصبحت إحدى السمات الأوربية منذ منتصف القرن.

ويمكن التعرف على ملامح المنهج عند بلومفيلد من خلال الوقوف على ما يمكن اعتباره المسلمات الأساسية التى نادى بها. فهو - من ناحية - قد رفض تماما فكرة إخضاع الدراسة اللغوية أو تبعيتها لأية مقولة سيكولوجية. وباعتباره - وهذا من الناحية الثانية - واحدا من أتباع المدرسة السلوكية فقد ركز على التفسيرات والشروح السلوكية عموما، وذهب إلى أن اللغويات ينبغى أن تدرس كعلم

تجريبى وبعيدا عن أية تأثيرات غير لغوية، بمعنى أنه لم يكن يثق إلا فى الوصف التجريبى الذى يقوم على المشاهدة والملاحظة.

ويبدأ منهج بلومفيلد الوصفى بوصف أصغر الأصوات الكلامية (الفونيمات) ليقيم بعد ذلك بناء أو نسقا من الأشكال والعناصر اللغوية يتم من خلاله التمييز بين المورفيمات ويسهل عملية تصنيفها. ولاتبدو هذه المسألة سهلة بأى حال ولكنها بالغة التعقيد فى الحقيقة؛ لأنها تهتم بإقامة المشابهات والمماثلات بين الأصوات والجمل والتراكيب، وذلك كخطوة أولية لدراسة الأنماط التى تتخذها هذه المشابهات والمماثلات مع محاولة إبراز أوجه الاختلافات القائمة بين البناءات التى تنتمى إليها اللغات المختلفة، ومن ثم تفسير هذه الاختلافات وتوضيح أسبابها.

ولكن هذه الجهود لم تسلم مع ذلك من الانتقاد، فقد ذهب بعض اللغويين المحدثين إلى أن منهج بلومفيلد لا يهتم إلا بوصف البناءات السطحية للغة. وأنه تجاهل بذلك البناءات الأعمق التى قد تكون لها صفة العمومية فى اللغة. وبالرغم من استمرار الجدل بين أنصار بلومفيلد وأولئك الذين يأخذون عليه تمسكه بمدخله التجريبى، فمن الصعب إنكار النجاح الذى حققته دراساته والأثر الذى تركته على الدراسات اللغوية. وربما كان فى الكتاب الذى نشره تشارلز هوكيت Hockett بعنوان «مختارات أدبية لبلومفيلد» A Leonard Bloomfield Anthology (١٩٧٠) أبلغ دليل على ما تمتع به من احترام وتقدير.

• قراءات مقترحة•

Works: ASet of Postulates for the Science of Language. in Joos. 1957.

• وانظر أيضا:

- Bolinger, D. L; Aspects of Language. 1968.
- Greenberg, Joseph; Universals of Language. 1963.
- Hymes Dell; Language in Culture and Society: A Reader in Linguistics and Anthropology, 1964.

★ ★ ★

٢٩ - بلومر، هربرت

29 - BLUMER , Herbert

ينتمى عالم الاجتماع الأمريكى هربرت بلومر إلى جيل الكتاب المعاصرين الذين يركزون على دراسة مظاهر السلوك الجمعى و العمليات الاجتماعية والاتصالية ، كمدخل لفهم الواقع الاجتماعى والتعرف على مكوناته ، بغرض الوصول إلى أفضل السبل للتدخل والتأثير فيه .

وباعتباره واحداً من كبار العلماء الذين تربوا على تقاليد مدرسة شيكاغو التى تعتبر مركزاً لازدهار التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism ، فقد ظل اهتمامه الأصيل يدور دائماً حول دراسة الحركات الاجتماعية Social Movements التى تستهدف- باعتبارها سلوكاً منظماً وصورة من صور السلوك الجمعى - تغيير المعتقدات الشعبية أو النظم الموجودة فى المجتمع . واهتم فى ذلك بمناقشة كيفية تكوين هذه الحركات الاجتماعية وتوضيح الخطوات التى اعتقد أنها ضرورية لمساندتها، وركز فى هذا الصدد على أهمية وجود أيديولوجية معينة يلتف الأفراد من حولها وتكون بؤرة لاهتمامهم. وقد دفعه هذا الاهتمام إلى الحديث عن الرأى العام Public Opinion وعن آراء الجمهور وعن الزمر الاجتماعية والحشود والجماهير والجماعات الصغيرة؛ ليبرز خصائص عقلية الجماهير وسلوكها الانفعالى والعاطفى وطرق التدخل فى تشكيل سلوكيات أفرادها من خلال فهم عاداتها الجمعية والديناميات التى تعمل بداخلها ، وهى جوانب وإن كانت قد ظهرت فى أماكن متفرقة من كتاباته إلا أنه تناولها بشكل منهجى ومنظم فى عدد من أهم كتبه لعل فى مقدمتها «السينما والسلوك» Movies and Conduct (١٩٣٣) الذى تناول فيه علاقة السينما بالنظم الاجتماعية ومعايير وقيم الأفراد والجماعات

وكيف أنها تؤثر فى عقول الجماهير وفى مشاعرهم وتحول الفكر إلى إتجاهات بعينها يساعد على انتشارها ودعمها برامج الإذاعة والتليفزيون، وكلها جوانب نجح فى معالجتها من خلال إطار أشمل سعى به إلى توضيح طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وكذا نطاق السلطة وحدود الحرية الفردية .

ولكن يبقى مع ذلك أن جانباً كبيراً من من اهتمام بلومر قد انصب على دراسة المشكلات الاجتماعية والأخلاقية ومشكلات التكامل الثقافى والتمييز العرقى والعنصرى. ونجح بذلك فى أن يصبح من العلامات البارزة التى استطاعت التمييز بوضوح بين الحركة الإصلاحية والثورة، على اعتبار أن هدف الأولى العمل على تغيير جوانب محددة من النظام الاجتماعى العام على حين تستهدف الثورة إحداث تغيير جذرى فى النظام الاجتماعى وإعادة بنائه من جديد. وعرض لذلك بشكل تفصيلى فى كتابه الشهير الذى أشرف على تحريره وصدر فى ١٩٥١ بعنوان «السلوك الجمعى» Collective Behavior وهو كتاب استقبلته الأوساط الأكاديمية بحفاوة كبيرة على اعتبار أنه من أفضل الكتب التى عالجت بشكل موضوعى مظاهر الصراع الاجتماعى والثقافى بين الأقليات وقضايا الانقسام والصراعات بين السود والبيض فى أمريكا. ولقد كان من نتائج هذه الاهتمامات المتشعبة التى تناولتها كتاباته المنوعة أن استطاع بلومر خدمة النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعى عموماً ربما بشكل أفضل بكثير ممن اقتصروا فى تفسيرهم للمجتمع على تحليل المظاهر الخارجية للسلوك.

والواقع أن قضية العلاقة بين النظرية والممارسة والتطبيق كانت الشغل الشاغل لهربرت بلومر أثناء عمله بجامعة كاليفورنيا (باركلى) . ففى مقالة تعتبر من أشهر المقالات التى نشرتها المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع بعنوان « ما الخطأ فى النظرية الاجتماعية» What is Worng with Social Theory نجده يناقش دور النظريات والمفهومات والتصورات النظرية وعلاقاتها بالمادة الإمبريقية. وقد برز فى ذلك موقفه الخاص الذى ظهر فى كل كتاباته والذى مؤداه أنه فى البحث الميدانى ينبغى أن يكون هناك تفاعل مستمر بين الفرضيات الأولية والملاحظة

الأمبريقية والتصورات النظرية . وقد عبر هو نفسه عن أهمية وقيمة ذلك بقوله أنه من خلال مثل هذا التفاعل بين التوجه النظرى والملاحظة الإمبريقية سوف تظهر أمام الباحث الفرص التى لا تعوض للابتكار والأصالة والإبداع .

وللحق فقد وجدت آراء بلومر ومواقفه فيما يتعلق بمجالات النظرية والمناهج وتصميم البحوث غير قليل من التقدير الذى نجد صداه فى كتابه الموسوم «نقد البحث فى العلوم الاجتماعية» الذى صدر فى عام ١٩٣٩ . ففى عام ١٩٣٧ أى بعد حوالى عقد من ظهور كتاب توماس Thomas وزنانيكى Znaniecki «الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا» The Polish Peasent in Europe and America ، طلب مجلس البحوث الاجتماعية إلى بلومر أن يقوم بعمل تقييم مفصل لهذا الكتاب نظراً للضجة الهائلة والنقاش الطويل اللذين دارا من حول ما تضمنه من مشكلات نظرية ومنهجية . ومع أن مجلس البحوث الاجتماعية كان قد عقد حلقة مناقشة لهذا العمل بعدما نشر الكتاب فقد عاد بعد هذه السنوات يطلب إلى بلومر إعداد هذا التقييم فى ضوء النتائج التى توصلت إليها حلقة المناقشة .

وعلى العموم فقد دار تقييم بلومر لهذا العمل حول عدد من المحاور التى أبرز أهميتها، وهى: أولاً، هدف الدراسة وغرضها، وثانياً، مدى ما حققته الدراسة من نجاح، وثالثاً، التعميمات التى توصلت إليها، ورابعاً، درجة اعتماد هذه التعميمات على المادة الميدانية (الخام) التى أمكن جمعها والتى اعتمد المؤلفان عليها.

وبالرغم من اعتراف بلومر بأن هذا الكتاب يعتبر نقطة تحول أساسية فى تطور منهج العلم الاجتماعى باعتبار أنه يمثل أول دراسة حقلية ضخمة تهتم بموضوع محدد وتتميز بكفاية المناهج المستخدمة حيث أكدت على استخدام منهج البحث الميدانى كمنهج لاستكشاف الواقع القائم بالفعل وكما هو موجود بعيداً عن آية افتراضات متخيلة ، فقد أبرز فى تقريره الذى قدمه بعنوان « تقييم لدراسة توماس وزنانيكى .... إلخ » An Appraisal of Thomas and Znaniecki "The Polish Peasant in Europe and America : Critique of Research in the Social Sciences" بعض آوجه القصور التى شابت هذه النواحى، وإن لم تؤثر فى القيمة البالغة للعمل ككل .

وأيًا كان الأمر فقد لا يتفق الكثيرون مع كل ماذهب إليه هربرت بلومر فى نظرته إلى القضايا والمشكلات النظرية والمنهجية التى دارت أعماله من حولها، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف أنه نجح فى تكوين رؤية واضحة وموقف محدد لا يختلف مؤرخو الفكر الاجتماعى فى أنهما لقيا الكثير من المساندة إن لم يكن تبنى الكثيرين من العلماء والباحثين لهما .

• قراءات مقترحة•

Works : The Mass, The Public and public Opinion, in Berelson, Bernard , Janowitz, Morris, (eds.), Reader in Public Opinion and Communication- 1953.

------- : Public Opinion Pollying - and Public Opinon Polling.

• وأنظر أيضاً :

- Chase, Stuart, The Proper Study of Mankind : An Inquiry into the Science of Human Relations. 1960.
- Meltzer, Bernard N.,(et al) , Symbolic Interaction ism: Gensesis, Varieties and Criti cism, 1945.
- Reynolds, Paul Davidson; Ethics and Social Science Research. 1982.
- Roll, Charles W. and Cantril, Albert H.; Polls: Their Use and Misuse in Politics.1972.

* * *

٣٠ - بواس، فرانز

30 - BOAS, Franz

على الرغم من أن فرانز بواس قد ولد فى ألمانيا وتلقى تعليمه فى مدارسها وفى ثلاث من أكبر جامعاتها، وهى جامعة هايدلبرج وجامعة بون وجامعة كييل التى نال منها درجة الدكتوراه فى الطبيعة عام ١٨٨١ عن رسالة بعنوان «إسهامات للتعرف على لون الماء» Contributions Towards the Understanding of the Colour of Water، فإنه يعتبر من وجهة نظر مؤرخى الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الأب المؤسس للأنثربولوجيا الأمريكية ، فقد أدت أعماله العديدة والمتشعبة التى تتراوح من جمع المعلومات الاثنواجرافية إلى الدراسات الاحصائية والرياضية فى الأنثربولوجيا الفيزيقية، إلى الدراسات الوصفية للغات الهنود الأمريكيين ، بالإضافة إلى الموضوعات المنوعة التى تناولتها مقالاته وكتاباته التحليلية إلى نشرالاتجاه الوظيفى فى الاثنولوجيا (الأنثربولوجيا الثقافية)، وإلى تشكيل منهج البحث الأنثربولوجى كعلم له أصوله ويتمتع بذاتية مستقلة ، علاوة على تأثيره البالغ الذى خلفه فى الأجيال الأصغر من العلماء والباحثين حيث درب جيلاً كاملاً من الأنثربولوجيين فى مقدمتهم ألفريد كروبير Kroeber وروث بنديكت Benedict وروبرت لوى Lowie ومارجريت ميد Mead وإدوارد سابير Sapirوملفيل هرسكوفيتز Herskovits وبول رادين Radin وعشرات غيرهم ممن تأثروا بطريقته فى البحث الأنثربولوجى وتحليله للمعلومات الاثنواجرافية .

ولقد ولد فرانز بواس فى مدينة مندن Minden (وستفاليا) فى التاسع من شهر يوليو عام ١٨٥٨ ، وكان أبوه تاجراً وواحدا من كبار رجال المال والأعمال اليهود ومن أولئك الليبراليين الذين يتمسكون بالمثاليات التى تمخضت عنها ثورة

١٨٤٨، فأتاحت تلك الظروف التى تضافرت مع أحوال الصغير الصحية التى لم تكن على ما يرام دائما، الفرصة للابن لأن يقضى معظم وقته فى القراءة التى عمقت مشاعره تجاه ألمانيا التى شب وهو يشعر بانتمائه الكامل إليها ، بالرغم من أنتمائه الدينى اليهودى. ومع أنه أظهر منذ الخامسة تفوقاً ملحوظاً فى العلوم الطبيعية كالجغرافيا وعلم النبات والحيوان والجيولوجيا والفلك، فقد أخذ وهو فى المدرسة الثانوية يبدى شغفاً ملحوظاً بتاريخ الثقافة على الرغم من عدم وجود هذا التخصص فى مدرسته. وكان للاستاذ ثيوبالدفيشر Fischer أكبر الأثر فى تحوله إلى الجغرافيا الثقافية حيث أخذ يوجهه توجيهاً تاريخياً ويعده إعداداً إثنولوجيا. وهو تحول تضافرت على تعميقه كتابات فردريك راتسل Ratzel وفيلهلم فونت Wundt ، حيث أخذت تتكشف اهتماماته العميقة بالعلاقة بين البيئة والثقافة. وعلى أية حال ما أن أنهى عاماً فى الخدمة العسكرية حيت أخذ يواصل دراسته فى برلين ، ليشارك بعد ذلك فى إحدى البعثات العلمية لجزيرة Baffin بالقطب الشمالى استغرقت عامى ١٨٨٣، ١٨٨٤، وهى رحلة أسفرت عن عدد من المقالات الجغرافية والاثنوجرافية التى دارت حول حياة الاسكيمو (١٨٨٨) وكذلك كتابه الذى نشر بعنوان The Central Eskimos فى عام ١٨٨٨ أيضا. وإن كان الأهم من ذلك أن هذه الرحلة قد ساعدته كثيراً فى إرساء أسس توجهاته الرئيسية فى تفكيره الأنثربولوجى ، وأقصد بذلك انتباهه إلى حقيقة التعقد اللامتناهى للثقافات الإنسانية وتطور هذه الثقافات وكيفية نشأتها وانتشارها. وقد ساعد على ترسيخ هذه التوجهات عمله الذى التحق به كمساعد فى المتحف الاثنواجرافى فى برلين (١٨٨٥) الذى كان يشرف عليه الأستاذ أدولف باستيان Bastian . ولهذا فقد وجدت أفكار باستيان صدى لها عند فرانز بواس، وبخاصة فيما يتعلق بدعوته إلى ضرورة جمع أكبر قدر ممكن من الأدلة والبراهين والمعلومات للدلالة على وجود علاقات مفترضة بين الشعوب والثقافات قبل الإقدام على حكم بوجود هذه العلاقات.

غير أنه فى هذا العام أيضاً بدأ يتطلع إلى إجراء دراساته الميدانية عن هنود الكويكيوتل Kwakiutl فى كولومبيا البريطانية . وفى العام التالى (١٨٨٦) أثناء

عودته من دراسته الحقلية لهنود جزيرة فانكوفر Vancouver نجده يقرر الهجرة إلى أمريكا ، فتوقف فى نيويورك التى قرر الاستقرار فيها بعدما وجد وظيفة متواضعة كمحرر مساعد بمجلة العلم Science . ولكنها ساعدته على أى الأحوال فى أن يتزوج مارى أ.أ. كراسكوفيزر Krackowizer ليبدأ من ثم مشواره الأكاديمى الطويل. فقد عمل مدرساً للأنثربولوجيا فى جامعة كلارك الأمريكية التى أنشئت عام ١٨٨٩ ، وبعد ذلك قضى فترة من الوقت فى شيكاغو حيث ساهم فى الإعداد لبعض البعثات الأنثروبولوجية التى كانت ترسلها جامعة كولومبيا (١٩٨٣) ثم أصبح أميناً لمتحف شيكاغو ، وبعدها أصبح أميناً للمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى (١٨٩٦) وهو نفس العام الذى أصبح محاضراً للأنثربولوجيا الفيزيقية ليصير بعد ذلك عام ١٨٩٩ أول أستاذ للأنثربولوجيا فى جامعة كولومبيا وهو المنصب الرئيسى الذى ظل يشغله حتى تقاعده فى عام ١٩٣٦، وعلى العموم فقد قام بواس خلال هذه السنوات كلها بتحرير العديد من التقارير العلمية الخاصة ببعثات شمال الباسفيكى التى اهتمت بصفة خاصة ببحث العلاقات بين الشعوب الهامشية بالإضافة إلى مشاركاته الضخمة فى تأسيس العديد من المنظمات والروابط المهنية فكان محرراً لمجلة أمريكان أنثربولوجيست ومجلة الفلكلور الأمريكى Journal of American Folklore . كما أسس المجلة الدولية للغويات الأمريكية، وأسهم فى تأسيس الرابطة الأمريكية للأنثربولوجيا وعمل رئيساً للرابطة الأمريكية لتقدم العلوم (١٩٣١) علاوة على عضويته فى العديد من الجمعيات العلمية. ولكن يبقى بعد ذلك كله أن أعماله ودراساته الميدانية التى قام بها هى التى هيأت له تلك المكانة الرفيعة فى تاريخ العلم، وإن لم يقلل ذلك من قيمته ومكانته كمدرس ومحاضر لا يضارع. فما كاد يبدأ القرن العشرون حتى كان بواس يمسك بزمام الأنثربولوجيا. وبلغ من تقدير زملائه له أنهم أهدوا إليه وهو لم يزل فى الثامنة والأربعين من عمره (١٩٠٦) ميدالية شرفية لم تكن تقدم إلا للأساتذة الكبار عند تقاعدهم ، ولم تكن السنوات الست والثلاثون التى أعقبت ذلك أقل غزارة فى الإنتاج أو التأثير والعطاء .

ومع ذلك فمن الصعب فهم تأثير فرانز بواس الثورى بعيداً عن المناخ العام والمواقف السائدة التى كان الأنثربولوجيون يأخذون بها، وبخاصة فيما يتعلق بنظرتهم للإنسان . فمعظم الأنثربولوجيين كانوا يرتبطون بالاعتقادات المسيطرة عن وحدة الجنس البشرى، وإن لم يكن معظمهم يؤمن بقدرة الجنس البشرى على خلق وتطوير الاشكال المنوعة والمتعددة من الثقافة .

ولكن كما قلنا من قبل كان بواس يرى بوضوح مدى التعقد فى الظاهرة الثقافية والنمو الثقافى ، ونتيجة لهذا فقد ذهب إلى أن النظرة إلى الثقافة تتطلب من الأنثربولوجى أن يكون قادراً على فهم كل العوامل التى قد تؤثر فى توزعات وحركات الشعوب ، ومؤكداً بذلك على حقيقة أن الاختلافات الثقافية ليست نتيجة للاختلافات البيولوجية بقدرما هى نتيجة للعلاقات والتعاملات المتشعبة والمتشابكة بين الإنسان والبيئة . وقد نجح هنا فى توظيف مفهوم التاريخية Historicity أو النزعة التاريخية لتوضيح تصوره للعوامل التى اعتقد أنها تتدخل فى تشكيل الثقافات، وهو ما أرجعه إلى العديد من عمليات التكيف والاستعارة من الثقافات الأخرى. مما يعنى أنه مع وجود عامل الزمن تقوم علاقة دينامية فى داخل كل ثقافة وبين الثقافات بعضها وبعض وبين الثقافات والبيئة كذلك. ومن الواضح أنه يعارض بذلك الفرض الأساسى عند الانتشاريين الذين يتمسكون بوجود قوانين عامة وشاملة تحكم تطور الحضارات ، وفى الوقت نفسه نظريات الحتمية البيئية فالثقافة ذاتها هى العامل الأكثر تأثيراً فى تشكيل الحضارة الإنسانية .

ولقد عبر بواس عن ذلك الموقف المتشابك فى إحدى مقالاته الشهيرة التى نشرها عام ١٩٤٠ بعنوان « النقاء العنصرى» Racial Purity فى مجلة Asia حيث ذهب إلى أن تاريخ الجنس البشرى يثبت أن التطورات الثقافية إنما تعتمد أساساً على الفرص التى تتيح للجماعة أن تتعلم من خبرات وتجارب جيرانها. فالاكتشافات والاختراعات التى تتم فى جماعة ما تنتقل إلى الآخرين وبذا فكلما تعددت الروابط والصلات كانت الفرصة أكبر للتعلم ولتطور المعرفة ونموها .

وقــد يكون من الصـــعب إدراج إســـهـــامـــات فـــرانز بواس تحت النظرية الأنثربولوجية الأمر الذى يرجعه الكثيرون إلى حقيقة أنه تعود على صياغة وجهات نظره فى صورة انتقادات لما يعتبره الكثيرون من المسلمات أو الفروض الواجب التمسك بها .

غير أن موقفه من انتقال الثقافة وانتشار الملامح الثقافية ينبغى مع ذلك أن ننظر إليه بشىء من الحرص . وكما يرى البعض فإن هذا الموقف لا يعنى أبداً أنه يساند المنهج الانتشارى والتطورى، أو أنه يعتنق موقف الانتشاريين فالواضح أنه قد انتقد المنهج التطورى القديم الذى يكتفى بدراسة أصول النظم والظواهر الاجتماعية عن طريق جمع المعلومات فى المجتمعات المختلفة عبر مختلف الأزمنة. وربما كان هذا من الأسباب الرئيسية التى جعلته يعارض بشدة الآراء والأفكار التطورية عند كل من أدوارد تايلور ولويس مورجان على وجه الخصوص، وعلى العكس من ذلك ظهر على يديه الاتجاه الوظيفى فى الاثنولوجيا أو الأنثربولوجيا الثقافية. فمنذ وقت مبكر تأثر بواس بالتطبيقيين الأوائل وبكل أصحاب الاتجاه الوظيفى القديم كما يظهر عند باخوفن Bachofen وفوستيل دو كولانج du Coulanges فتتلمذ عليهم وقرأ كتاباتهم ودرس نظرياتهم واتجاهاتهم الوظيفية حتى تشربها .

ومع أن الوظيفية فى الأنثربولوجيا قد نمت أساساً وتطورت كرد فعل ولكى تواجه النزعة التطورية Evolutionary والإنتشارية وتعارضهما، فإن ما لا شك فيه هو أن بواس قد سعى جاهداً إلى تخليص الدراسات الأنثربولوجية من ملامح الفكر التطورى والتأملى ، وأكد فى ذلك على الروابط بين الظواهر الاجتماعية ، وخضعت النزعة الوظيفية بذلك لتأثير الاتجاه الثقافى الأمريكى عند بواس الذى اعتبره روبرت لوى Lowie أكبر أنصار الوظيفيين إن لم يكن الوظيفى الوحيد .

ويقرر فرانز بواس صراحة أنه ينبغى أن يعتمد فهمنا للثقافة على الدراسة التكاملية التى تسعى لتحليل عناصرها ومكوناتها فى علاقاتها بعضها ببعض وعلاقتها بالظواهر الأخرى . فالمنهج الحقيقى لدراسة الثقافة كما يراه إنما يكون بإلغاء منهج الظن والتخمين Conjectural والاستعانة بمنهج التحليل العلمى الذى

يستند إلى الدراسة التكاملية للأنساق الثقافية ودراسة العناصر الثقافية ورد الظواهر الجزئية إلى سياقها الكلى .

هذا الموقف نجد أفضل تعبير عنه فى مقدمته التى كتبها لكتاب روث بنديكت «الأنماط الثقافية» Patterns of Culture ، ففى هذه المقدمة حدد بواس معالم منهجه فى دراسة الثقافة استناداً إلى ما أطلق عليه منهج التحليل المركز، وهو تحليل يقوم على جمع المادة التى تتعلق بتفاصيل الحياة الاجتماعية ، تلك التى تؤدى إلى الفهم الواضح لكل نواحى الحياة الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية والفن والتنظيم الاجتماعى والدين ... إلخ . أما إذا درسنا الثقافة من جانب واحد فلن يعطى هذا سوى صورة مشوهة للثقافة أو للظاهرة الثقافية موضوع البحث .

ولا ينفصل هذا المنهج التحليلى عن موقفه من النظرية اللغوية عموماً ، فعلى الرغم من أنه قد اعتمد على جهده فى دراساته اللغوية ، فإن تأثره بالنزعة الإنسانية التى نجدها عند همبولدت Humboldt وأيضاً عند هيردر Herder وستانتيال Steinthal كان جليا. ولقد علمته دراسته للغات الهندية أن هذه اللغات تعمل من خلال مقولات خاصة بعيدة عن تلك تفترضها وتعمل من خلالها اللغات الهندوأوربية Indo-European . وعلى ذلك فإنه يلزم وصف وتحليل هذه اللغات فى ضوء مصطلحاتها ومقولاتها الذاتية والخاصة بها ، حتى لا يتم تشويهها بتدخل مقولات اللغات الهندوأوربية. ولقد أعطانا هو نفسه أكثر من مثال على هذا التحليل اللغوى فى دراسته لنحو الشينوك Chinook والتسمان Tsimshion والكواكيتول KwaKiutl وهى الدراسة التى ظهرت فى كتابه « دليل اللغات الهندية الأمريكية» The Handbook of American Indian Languages (١٩١١) . ففى هذا الكتاب يتضح أن التحليل اللغوى من وجهة نظره ليس غاية فى ذاته ولكنه جزء من التحليل الاثنوجرافى.

وكما أوضح هو نفسه فى مقدمته التى كتبها لهذا الكتاب فإن اللغة باعتبارها كشفا للعقل الإنسانى ما زلنا قادرين على ملاحظته إمبريقيا ، تساعدنا على الوصول إلى فهم أوضح للظاهرة الاثنولوجية وبخاصة من حيث طبيعتها التى

لا تخضع تماماً للوعى والشعور نظراً لأن الطبيعة الذاتية للغات سواء أكانت مرتبطة بالصياغات النحوية أو بالمعنى ، إنما تشير إلى الطرق المختلفة التى تتشكل بها التجربة الإنسانية . والواقع إن مثل هذه المفهومات والتصورات الجديدة قد فتحت الطريق أمام ظهور بعض الفرضيات الأكثر حداثة وراديكالية فيما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والنظرة إلى العالم، وهى الفرضيات التى تطورت ونمت بعد ذلك على أيدى تلميذه أدوارد سابير Sapir وأيضا بنيامين فورف Whorf .

والإنتاج العلمى الذى خلفه فرانز بواس إنتاج متنوع وضخم بكل المقاييس، وإن كان الجانب الأكبر من كتاباته يتكون من الكم الهائل من المادة والمعلومات التى جمعها عن هنود ساحل الباسيفيكى . فعلى مدى ستة عقود نشر بواس مايزيد على ١٠ آلاف صفحة عن ثقافات هذه المناطق. ومع أن هذه الكتابات تشتمل على تقارير مركبة وتفصيلية على النحو الذى نجده فى «التنظيم الاجتماعى» والجمعيات السرية عند الكواكيتول The Social Organization and Secret Societies of the Kwakiutl Indians الذى ضمنه تقريره للمتحف الوطنى الأمريكى (١٨٩٥/١٨٩٧) وهو التقرير الذى أعيد نشره مؤخراً فى كتاب بعنوان «اثنوجرافية الكواكيتول» Kwakiutl Ethnography (١٩٦٦) ، فإن إحدى السمات المميزة لتناوله أن باقى المعلومات والمادة المتوافرة لديه كانت عبارة عن مجموعات من النصوص التى سجلها بلغات الأهالى الوطنيين أنفسهم أى باللغات واللهجات المحلية. وقد تسنى له ذلك بمساعدة أحد الإخباريين (جورج هنت George Huut) الذى يقول عنه إنه ساعده كثيراً فى وصف وترجمة وتحرير آلاف الصفحات التى تعتبر مرجعاً أصيلاً يشتمل على الأساطير والتواريخ العائلية والأعراف والعادات والتقاليد والأحلام بالأضافة إلى كم هائل من المادة حول المعتقدات الدينية والشعائر والطقوس الاحتفالية. فقد كان بواس يؤمن بأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تمكننا من فهم الثقافة من الداخل ، وخاصة أنه لم يكن يثق تماما فى الاكتفاء بوصف السلوك غير الرسمى، على اعتبار أن طريقة حياة الهنود الأمريكية تخضع للكثير من التغيرات نتيجة لجهود الرجل الأبيض التى تهدد بضياعها واختفائها، وبخاصة تلك الجوانب الرمزية التى تعكس عقلية السكان الأصليين ونظرتهم إلى المحيطات .

وليس بالإمكان التعرض هنا لكل مؤلفات فرانز بواس، ولهذا نكتفى بمجرد الإشارة إلى بعضها مما يعتبر أهمها. ففى عام ١٩١١ صدر مؤلفه «عقلية الإنسان البدائى» The Mind of Primitive Man ، وبعد ذلك ظهر كتابه «الأنثربولوجيا والحياة الحديثة» Anthropology and Modern Life (١٩٢٨) ومن بعده «توزع جغرافى لأسماء الكواكيتول» Geographical Names of the kwakiutl Indians (١٩٣٤) ثم «العنصر واللغة والثقافة» Race, Language and Culture (١٩٤٠) .

وكتابه عقلية الإنسان البدائى عبارة عن سلسلة من المحاضرات عن الثقافة والعنصر ألقاها فى العشرينات، وكانت مرجعاً للمعارضين لسياسات أمريكا التى كانت تفرض قيودا صارمة على الهجرة ، وهى قيود تتصل بالاختلافات الأجناسية. وقد أقدم النظام النازى فى الثلاثينات على حرق هذا الكتاب، كما حرم بواس من درجة الدكتوراه التى حصل عليها من جامعة كيبيل عام ١٩٣١. ولكنه أقدم فى عام ١٩٣٧ على إعادة كتابة بعض فصول الكتاب كما أدخل عليه بعض التعديلات والإضافات، وكان لذلك تأثيره على حركة الحقوق المدنية التى ظهرت فى الخمسينات.

أما كتاب « الفن البدائى» Primitive Art فقد سعى فيه بواس إلى بلورة قضية أساسية مؤداها أننا لن نستطيع فهم فن أى شعب من الشعوب والتعرف على أسلوبه المميز إلا إذا درسنا هذا الفن فى ارتباطه بالظروف الحياتية كلها التى يعيشها هذا الفن. بينما سعت بقية كتبه إلى دحض وتفنيد وجهة النظر التى يعتنقها التطوريون فيما يتعلق بنظرتهم إلى الشعوب، والتى تذهب إلى أن هناك بعض الشعوب قد نجحت فى تحقيق مرحلة تقدمية (أعلى) مما يوجد لدى غيرها. وهذه نظرة عرقية ولا شك تقسم الشعوب إلى شعوب أرقى وأخرى أدنى ولا تصمد أمام القول بالنسبية الثقافية التى ترى أن الجماعات الإنسانية كلها قد خضعت لتأثيرات التطور وإنما بطرق مختلفة .

وهكذا تظل المهمة التى يتعين على الباحث الأنثربولوجى أن يقوم بها متمثلة فى التوصل إلى أكتشاف قوانين العلية الثقافية أكثر من مجرد افتراض وجودها. وهو الأمر الذى لن يتهيأ إلا بمعرفة الكثير من الجوانب المتعلقة بالهجرة والتربية

والتربيب والأمراض، وأيضاً تلك الحركات والعلاقات المتبادلة ما بين الشعوب وثقافاتها.

• قراءات مقترحة •

- Goldschmidt, W., (ed.). The Anthropology of Franz Boas. 1959.
- Herskovits, M.; (ed.). Franz Boas, The Science of Man in the Making. 1943.
- White, L.; The Ethnogaphy and Ethnoliogy of Franz Boas. 1963.

★ ★ ★

٣١ - بوهانان ، بول

31 - BOHANNAN, Paul

ترجع شهرة عالم الأنثربولوجيا الأمريكى بول بوهانان إلى أنه أحد الذين شغلتهم دراسة الانساق القانونية والسياسية فى المجتمعات الأفريقية ، وهى الدراسات الى ازدهرت فى الثلاثين سنة الأخيرة على وجه الخصوص ، واحتلت فيها كتاباته عن القانون فى المجتمعات البدائية والبسطية مكانة مرموقة وهى تتناول المشكلات القانونية والسياسية فى علاقتها بالتنظيم الاجتماعى لبعض هذه المجتمعات ، وذلك من خلال نظرة واقعية للأفراد ولطبيعة هذه المشكلات فى ارتباطها بالظروف الاقتصادية والايكولوجية العامة ، مما يمكن القول معه بأن دراسته للقانون البدائى إنما تنبئ باهتمام وشغف بالغين بقضايا الضبط الاجتماعى، وبدراسة الإجراءات والوسائل التى تلجأ إليها مثل هذه المجتمعات لفض المنازعات ولمواجهة الخروج على قواعد السلوك والمتعارفات المتفق عليها فى المجتمع ، ولمصادرة ما يوجد من انحرافات .

ولقد تلقى بوهانان تعليمه ونال درجاته العلمية من جامعتى أريزونا وأكسفورد. كما تلقى تدريبه فى أكسفورد التى قام بالتدريس فيها، وكذلك فى جامعة برينستون Princton وجامعة نورث ويسترن Northwestern التى عمل فيها أستاذا لعلم الاجتماع والأنثربولوجيا . كما أصبح زميلاً فى مركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية Center for Advanced Studies in the Behavioral Sciences فى العامين ٦٣- ١٩٦٤.

ومع ذلك فمن المهم القول بأن تركيز بول بوهانان على دراسة القانون البدائى وعلى قضايا الضبط الاجتماعى عموماً فى هذه المجتمعات لا يعنى أن عطاءه

العلمى كان أسير هذا النطاق، ذلك لأن كتاباته واهتماماته كانت من التنوع والتشعب لدرجة قل أن نجد لها مثيلاً بين أفراد جيله من العلماء ، فقد كتب فى قضايا الجنس Sex والأخلاق، كما درس مشكلات الطلاق وكتب فى الدين وفى الفن. بالإضافة إلى قيامه بالعديد من الدراسات الميدانية التى غطت هذه المواضيع فى كثير من المجتمعات والقبائل الأفريقية، بل وفى بعض المناطق والمدن الأمريكية ذاتها. حيث أجرى دراسته الشهيرة عن الطلاق فى مدينة سان فرانسيسكو. على الرغم من أن أفريقيا قد ظلت مع ذلك المسرح الرئيسى لمعظم بحوثه ودراساته.

ولقد انطلق بوهانان فى دراساته الحقلية التى أجراها بالقارة الأفريقية من مسلمة أساسية تقول بأنه لأجل دراسة تاريخ إفريقيا والتعرف على شعوبها ونظمها الاجتماعية وفنونها وأيضاً مستقبلها فى عالم متغير . فلابد من الوقوف على تراثهم الثقافى وفهم هذا التراث بشكل عميق يمس الجذور. ومع أنه عبر عن هذه المسلمة فى كتابه «أفريقيا والأفريقيون» Africa and Africans الذى ظهرفى عام ١٩٦٤ وأعيد طبعة ثانية عام ١٩٧١ بالاشتراك مع فيليب كيرتن Curtin أستاذ التاريخ بجامعة ويسكنس Wisconsin إلا أن الملاحظ أنها (المسلمة) كانت تنعكس باستمرار فى كل أعماله حتى تلك الأعمال التى ظهرت قبل هذا التاريخ، بداية من دراسته الحقلية التى أجراها عن قبائل التيف Tiv فى نيجيريا الوسطى ما بين عامى ١٩٤٩ - ١٩٥٣، والتى أمضى فيها هو وزوجته لورا بوهانان Laura ثمانيةوعشرين شهراً، وكذلك دراسته الحقلية الهامة التى أجرها بين الوانجا Wanga فى كينيا، ونجح أثناء هذه الدراسات فى أن يجمع كما هائلاً من المعلومات الاثنوجرافية التى كانت بمثابة نواة لمعظم كتاباته عن أفريقيا .

ونحن بالطبع لن نتعرض لهذه الأعمال والكتابات كلها، ولكن يكفى القول بأنه قدم عدداً من الكتب والمقالات التى ما زالت تتمتع بالتقدير كمراجع لها أهميتها. ففى عام ١٩٥٧ صدر كتابه الهام « العدالة والحكم بين التيف فى نيجيريا» Justice and Judgment Among The Tiv of Nigeria ، و« التيف فى نيجيريا الوسطى» The Tiv of Central Nigeria الذى ألفه بالاشتراك مع زوجته ، وكذلك «اقتصاديات التيف» Tiv

Economy وبعدها كتابه «الأسواق فى أفريقيا» Markets in Africa (١٩٦٥) ، و«الإطار الأفريقى» (١٩٦٦) الذى تناول فيه عمل النظام الانقسامى الذى تقوم عليه البدنة والدور الذى تلعبه فى المناشط والمجالات التى تعجز العائلة الصغيرة عنها . أما بالنسبة إلى مقالاته فقد كانت تدور فى معظمها حول مختلف المظاهر الاجتماعية فى القارة وربما كان فى مقدمتها مقالته عن «هجرة التيف وانتشارهم » The mi- gration and Expansion of the Tiv التى نشرها عام ١٩٥٤ فى مجلة Africa و«أثر النقود على اقتصاد المعيشة الأفريقى The Impact of Money on African Subsistance Economy (١٩٥٩) ، و«الزواج والعائلة ونمط الإقامة» Marriage, Family and Resi- dence (١٩٦٨) و «الطلاق وما بعده Divorce and After (١٩٧٠) إلى جانب عدد آخر من المقالات والبحوث التى يضيق المقام هنا عن ذكرها.

النقطة الرئيسية التى ركز عليها بوهانان فى كل هذه الكتابات ، وبخاصة كتابه عن العدالة والحكم بين التيف فى نيجيريا هى مناقشته لمختلف الوسائل التى يلجأ إليها المجتمع لحسم النزاعات التى تنشب بين المتخاصمين، وهى وسائل يرى أنها تهدف بالدرجة الأولى، إلى إرضاء الشاكى وإنزال العقوبة المناسبة بالمعتدى أو على الأقل التعويض عن الضرر وما إلى ذلك من الإجراءات التى تستهدف إنهاء حالة التوتر والنزاع اللذين يهددان الاستقرار الاجتماعى. وذلك من خلال تحليله لبعض الأفعال والتصرفات الاجتماعية التى تحقق هذه الغاية .

وعلى العموم فقد ساعدت هذه الكتابات فى إلقاء كثير من الأضواء على مختلف جوانب الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية فى أفريقيا ، ومثال ذلك أنه عرض فى كتابه « الأسواق فى أفريقيا » لأنساق الإنتاج والتوزيع فى المجتمعات البدائية البسيطة وركز فى ذلك على مبدأ تبادل الخدمات والسلع وبذلك يعتبر دراسة متكاملة للأسواق ودورها الاقتصادى والاجتماعى ومدى تأثر هذه الأسواق التى تعتبر عصب الحياة الاقتصادية بالنقود وبالآليات الحديثة الوافدة إليها . وإذا كان كتابه عن « القرابة والتنظيم الاجتماعى » Kinship and Social Organization الذى كتبه بالاشتراك مع ج. ميدلتون Middleton قد اعتبر دراسة رائدة عن الدور الذى

يلعبه النسق القرابى فى الحفاظ على تضامن المجتمع وتماسكه، فإن كتابه عن الطلاق يصير من الناحية الأخرى معالجة موضوعية لأشكال الزواج والالتزامات التى يفرضها المجتمع على الزوجين وبخاصة الزوج فى حالة وفاة الزوجة . وفى ذلك نجده يستعرض مكانة المرأة المتزوجة وكيف أن المجتمع يلجأ إلى إعادة تزويج الأرملة التى يموت عنها زوجها كوسيلة لإعادة دمجها فى حياة المجتمع . علاوة على توضيحه لمقومات الحياة العائلية الهنيئة ، وكذا العوامل التى ينتج عنها تحلل الروابط الأسرية وتفككها .

وبالرغم من كل هذا فإن دراسته لقانون الإسكيمو وتلك التى أجراها عن التودا Todas فى الهند تظل من أمتع الدراسات وأعمقها التى أجريت عن القانون فى المجتمعات البدائية التى يتصف تنظيمها الاجتماعى بدرجة عالية جدا من البساطة. ففى دراسته لقانون الإسكيمو نجد بوهانان يسعى إلى إبراز ما أطلق عليه مبدأ الاعتماد على النفس الذى يلجأ إليه المجتمع فى حل أكثر قضايا النزاع والخصام ، وهو مبدأ يتمتع بالشرعية وباعتراف المجتمع نظرا لعدم وجود الضبط الرسمى (البوليس) لدى الإسكيمو، وإنما على الفرد أن يعتمد على نفسه وعلى مجهوداته فى أخذ حقوقه واسترجاعها إذا ما اعتدى عليها ، كما أن له أن يطلب مساعدة أقاربه فى هذا .

ومع أن كبار السن يلعبون هنا دورا له قيمته فى فض المنازعات وإنهاء الخصومات وذلك عن طريق إسداء النصح والتوجيه والإرشاد والتقريب بين وجهات النظر، فإن قانون الإسكيمو يمكن القول بأنه يخضع للظروف ذاتها التى يعيشها أعضاء المجتمع وبخاصة فيما يتعلق بحوادث خطف الزوجات التى يعتبرها المجتمع من أشد أنواع الجرائم وأكثرها انتشارا كذلك، وخاصة أن عملية الخطف ترتبط بنظام المكانة الاجتماعية، بمعنى أن خطف الرجل زوجة رجل أخر يتمتع بمكانة ومنزلة اجتماعية مرموقتين مما يسبغ على الخاطف منزلة اجتماعية ويرفع من قدره فى المجتمع .

ومع أن من عادات المجتمع أن يقدم الزوج زوجته لضيفه مدة إقامته فى بيته

ويعتبر هذا التصرف منتهى الكرم وقمة المراعاة لأصول الضيافة ، فالمدهش أن الزوج لا يمكن أن يسكت إذا ما اغتصبت زوجته .

ومن الطريف هنا أن الاسكيمو لا يعدمون الوسائل والأساليب التى يضيقون بها من اتساع نطاق المنازعات التى تقوم بسبب خطف الزوجات ، وما قد يؤدى إليه هذا من أفعال انتقامية بين جماعة المعتدى والمعتدى عليه . فهم يلجأون إلى المناظرات والمساجلات الهجائية التى يهاجم فيها أزواج المخطوفات أو المغتصبات أعداءهم خطابيا، ويذهب بوهانان إلى أنه بهذه الطريقة ينجح المجتمع فى تجنب مظاهر الصدام الدموى التى قد تمتد إلى جماعات كثيرة مما يهدد أمن المجتمع واستقراره علاوة - كما يذهب بوهانان - إلى أن مثل هذه الوسيلة كفيلة بأن تنفس عن العواطف المكبوتة والمشحونة بمشاعر الكراهية والرغبة فى الانتقام العنيف وهى طريقة تعتبر مؤثرة حيث إنها تفقد الشخص المعتدى منزلته الاجتماعية، وهذا أقصى عقاب يمكن أن يتوقعه رجل الإسكيمو.

وعلى العموم فإن هذه الكتابات جميعها تعكس بدرجة أو بأخرى اعتماد بوهانان على مفهوم التوازن الدينامى الذى نجده فى المدخل الوظيفى البنائى لدراسة المجتمع ، فقد قدم بوهانان فكرة نسق الحدث Event System ويعنى بذلك ضرورة تحليل أى بناء للعلاقات الاجتماعية، سواء أكانت فى داخل الأسرة أو الجماعة أو المجتمع المحلى فى ضوء دورة الأحداث البشرية والتى تقع بصفة دائمة ومستمرة داخل بناء هذه العلاقات، وهى فكرة تبدو مفيدة وقد عرض لها تفصيلا فى كتابه الشهير « الانثربولوجيا الاجتماعية Social Anthropology الذى قدمه عام ١٩٦٣، واعتبر أن الأخذ بها ضرورى للإحاطة بشبكة العلاقات الاجتماعية وطبيعة الظروف التى تدفع إلى الفعل والسلوك .

- Bohannan, Laura: Political Aspects of Tiv Social Organization. J. Middleton and D Tait (eds.), Tribes Without Rulers.

- -------------- and P. Bohannan; Land Rights: Social Relations in Terrestrial Space " in the Tiv Economy. 1968.

- Hoebel. A.; The Law of Primitive Man. 1954.

- LLewellyn, karl and Hoebel, E. A.; the Cheyenne way. 1953.

- Paden, John and Soja, Edward W.; The African Experience. 3 Vols. 1970. 1971.

★ ★ ★

٣٢ - بوتومور، ت . ب.

32 - BOTTOMORE, T.B.

اشتهر عالم الاجتماع البريطانى توماس ب. بوتومور بإصداراته المتعددة لكتب كارل ماركس وبدراساته المتشعبة فى الطبقات والصفوات الاجتماعية وكتاباته المنوعة فى ميادين النظرية الاجتماعية والتدرج الاجتماعى والنظرية الماركسية على وجه الخصوص، علاوة على أنه يعد واحدا من أبرز علماء الاجتماع البريطانيين الذين يتمتعون بنظر ثاقب ودراية عميقة ليس فحسب بعلم الاجتماع الأوربى، ولكن أيضا بقضايا الرأسمالية المعاصرة ومشكلات المجتمع الصناعى الحديث، وكذلك طبيعة القضايا الملحة التى تصاحب عمليات التطور الاجتماعى فى المجتمعات النامية عموما، وكله أتاح له فرص التدريس لا فى إنجلترا وحدها، ولكن أيضا فى جامعات أمريكا وفرنسا وكندا، فضلا عن عضويته ورئاسته لعدد من الجمعيات والروابط الاجتماعية المحلية والدولية، فقد عمل أستاذا لعلم الاجتماع بمدرسة لندن للعلوم السياسية والاقتصادية من عام ٥٢ إلى ١٩٦٤، وقضى ثلاث سنوات كأستاذ ورئيس لقسم العلوم السياسية والاجتماع والأنثربولوجيا فى جامعة سيمون فريزر Simon Fraser فى فانكوفر Vancouver بريطانيا . ثم أصبح منذ عام ١٩٦٨ أستاذا لعلم الاجتماع فى جامعة سسكس Sussex، علاوة على أنه شغل لفترة طويلة منصب رئاسة الجمعية الاجتماعية البريطانية، ومنصب نائب رئيس الرابطة الدولية لعلم الاجتماع . كما أشرف فى الفترة من ٥٣ إلى ١٩٦٢ على تحرير مجلة Current Sociology والمجلة الأوربية لعلم الاجتماع .

ولا جدال فى أن بوتومور قد اعتبر دائما واحدا من أهم علماء الاجتماع

الذين انشغلوا بمناقشة كارل ماركس Marx والماركسية Marxsim ومع ذلك فقد نجح فى أن يبلور لنفسه موقفا خاصا يتسم بالأصالة والعمق . ويمكن القول بأن بوتومور قد أقام هذا الموقف على مسلمة أساسية مؤداها أن ماركس قد جعل كل همه أن يدرس فحسب وبشكل تفصيلى نوعا واحدا من الجماعات الإنسانية هى الجماعة (المجتمع) الرأسمالية التى كانت فى إنجلترا فى أخريات القرن التاسع عشر، ولهذا فإنه من هذا المنظور تبدو نظرية ماركس مقبولة، وإنما فى حدود ما إذا أخذنا ظروف إنجلترا فى هذه الفترة .

من الناحية الثانية احتل موضوع الطبقات الاجتماعية مكانة محورية فى نسق بوتومور الفكرى . ولا يرجع هذا فحسب إلى ارتباطه بالنظرية الماركسية، ولكن أيضا لأن دراسته للطبقات الاجتماعية تمثل موضوعا سياسيا له مكانة خاصة فى علم الاجتماع البريطانى، باعتبار أن التغيرات الاقتصادية والصناعية التى شهدتها بريطانيا قد صاحبها تغيرات جذرية فى البناء الطبقى وهو الأمر الذى تعكسه لا كتابات بوتومور وحده، ولكنا نجده فى أعمال أخرى كثيرة وبخاصة أعمال مارشال Marshall الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أول من اهتم بهذه الناحية بين كتاب جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ما يظهر فى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » Classes in Modern Society (١٩٥٥) الذى يعتبر مناقشة جادة للطبقة الاجتماعية كمفهوم اجتماعى، وحيث وجه بوتومور العديد من الانتقادات لرؤية كارل ماركس للطبقات الاجتماعية، واتهمه بأنه بسط دون مبرر طبيعة السلم الاجتماعى بهدف أن يظهر الاتساق فى نظريته عندما ذهب إلى أن هناك طبقتين رئيسيتين تتصارعان على الرغم من أن طبيعة المجتمعات الصناعية المتقدمة لا يوجد بها واقعيا مثل هذه السمة القاطعة والحادة وإنما تتميز على العكس من ذلك بوجود تفرقة وتمييزات دقيقة وواضحة بين مختلف المكانات والمنزلات الاجتماعية، الأمر الذى يؤدى بالضرورة إلى مزيد من التعقيدات فى السلم الاجتماعى .

وبدلا من ذلك فقد عالج بوتومور قضية الطبقة الاجتماعية من خلال تركيزه

على البناء الطبقى Class Structure فى كل من المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الاشتراكية، واستخدام العديد من المفارقات التى يكشف عنها الواقع الاجتماعى كمحكات لاختبار النظرية الماركسية فى الصراع الطبقى والوعى الطبقى، ومثيرا بذلك العديد من القضايا النظرية والمنهجية التى يدعمها الواقع الإمبريقى دون ما تحيز إيديولوجى ملحوظ . وإن كانت مسألة التحيز هذه تظل مع ذلك من المسائل التى ينبغى النظر إليها بمزيد من الحرص وربما عدم الاطمئنان .

الكتاب الهام الثانى لبوتومور هو الذى قدمه بالإشتراك مع مكسمليان روبل Rubel (١٩٥٦) بعنوان « كارل ماركس : كتابات مختارة فى علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية» Karl Marx : Selected Writings in Sociology and Social Philosophy . وإن كانت الستينيات والسبعينيات هى التى شهدت مع ذلك أكثر كتبه عمقا وأصالة. ففى عام ١٩٦٢ قدم كتابه الممتاز « علم الاجتماع : مرشد للقضايا والتراث» Sociology : A Guide to Problems and Literature وهو كتاب وصفه البعض بأنه فريد فى موضوعه باعتباره مدخلا أو مقدمة فى علم الاجتماع بمعناه الواسع . بمعنى أن بوتومور لم يكتبه للمتخصصين فحسب، ولكن ليقدم معرفة علمية واضحة إلى القارئ العادى. وبلغ من هذا التقريظ أن وصفه أرنست جلنر Gellner بأنه أحسن كتاب شامل قدم فى إنجلترا خلال العقود الأخيرة . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعل اليونيسكو Unesco تعيد طباعته بعد ذلك بعدة سنوات فى عام ١٩٧١، وهى طبعة أقدم فيها بوتومور على إعادة النظر فى بعض القضايا التى كان قد أثارها من قبل فى الطبعة الأولى، بالإضافة إلى معالجته للفكر الماركسى عموما وللتطورات التى لحقت البنائية، علاوة على مناقشته لبعض القضايا الهامة فى علم الاجتماع مثل مشكلة القيمة، وارتباط كل هذا بمشكلات المجتمع الصناعى الحديث وبالحركات السياسية والتى تظهر هنا وهناك، وبخاصة فى الدول النامية كاشفا بكل هذا عن طبيعة الدور الذى تقوم به القوة فى الحياة الاجتماعية وبخاصة فى الحروب والثورات.

أما الكتاب الهام الثالث فهو كتابه « الصفوة والمجتمع » Elites and Society

(١٩٦٤) وهو كتاب يقدم فيه منظورا جديدا لموضوعه يختلف عن المعالجات التى نراها عند كتاب الصفوة الكلاسيكية من أمثال موسكا وميتشلز وباريتو وغيرهم. كما يختلف أيضا عن محاولات التوفيق بين الاتجاهات المختلفة تلك التى يمكن رؤيتها فى كتابات أمثال رايت ميلز وبيرنهام على الرغم من أهميتها .

ولقد أدى به هذا إلى أن يحاول منذ البداية تحديد مفهوم الصفوة من خلال منظور معين بوصفها مفهوما علميا، وأيضا كأداة لتحليل النظم السياسية وكتعبير عن أيديولوجية عامة يرى أنها أصبحت تحكم المجتمعات وتتحكم فيها. وفى هذا كله نجده يناقش بعض المفهومات الأساسية كمفهوم الطبقة الحاكمة ومفهوم القوة ومفهوم صفوة القوة كاشفا عن الديناميات التى وصفها بأنها ديناميات الصفوة . وإنما الأهم من كل هذا أنه أقدم على تحليل لبعض الصفوات التى حصرها فى جماعات المثقفين والمديرين والبيروقراطيين وأبرز فى تحليله خصائص كل منها وطبيعة العلاقات التى تقوم بينها وبين باقى الفئات الاجتماعية ليبرز الدور الذى تقوم به كل من هذه الصفوات فى حياة المجتمع اعتمادا بالدرجة الأولى على ما تعتنقه من أيديولوجيات ومواقف فكرية .

بعد ذلك صدر كتابه الممتع « النقد فى المجتمع : التفكير الراديكالى فى أمركيا الشمالية » Critics of Society (Radical Thought in North America) الذى ظهر عام ١٩٦٧ وهو كتاب كان فى الأصل مجموعة من الأحاديث التى أذاعتها الإذاعة الكندية فى الفترة ما بين مارس ومايو ١٩٦٦ وقد قام اتحاد الإذاعة الكندية بجمع هذه الأحاديث وإعادة نشرها فى شكل كتاب تحت العنوان المذكور .

ومع ذلك يظل كتابه « علم الاجتماع كنقد اجتماعى » Sociology as Social Criticism (١٩٧٥) ربما أفضل كتبه على الإطلاق. والكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التى نشرت خلال الستينيات ويبرز تصوره للفكر الاجتماعى كأداة فاعلة لتحليل ونقد النظريات والمذاهب الاجتماعية والنظم السياسية .

ولكن الكتاب إلى جانب هذا يعالج أيضا وبصفة رئيسية بعض الرؤى

المحافظة المسيطرة فى علم الإجتماع والتى يعتقد أنها من بين المعوقات الأساسية لتطور العلم وتقدمه، كما يتناول ايضا كيفية انبثاق الفكر الراديكالى والحركات الاجتماعية الحديثة، ومن هنا اعتباره بمثابة نظرية نقدية فى المجتمع وخاصة أنه يثير العديد من القضايا والمشكلات الاجتماعية المعاصرة .

ومع أن البعض يذهب إلى أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون تطويرا إن لم يكن ترديدا لبعض رؤاه ومواقفه التى سبق أن عبر عنها فى مناقشته لقضايا الطبقات الاجتماعية وقضايا الرأسمالية والاشتراكية فلا ينفى هذا أبدا اتصافه بوحدة التفكير وبأنه ينطوى على محاولة نقدية واعية لصياغة أسس عقلية جديدة يعتقد أنها لازمة للتطور الثقافى والسياسى فى المستقبل . ومن ها هنا بالذات تبدو أهميته الفائقة .

• قراءات مقترحة•

- Douglas, Jack D. (ed.); The Impect of Sociology. 1970.
- Gellner, E., Thought and Change. 1964.
- Horowitz, Irving L.; Three Worlds of Development. 1966.
- Lockwood, D.; The Blackcoated Worker. 1958.
- Thompson, E. P.; The Making of the English Working Class. 1968.
- Touraine, Alain; La Conscience Ouvriére, 1966.

★ ★ ★

٣٣ - بريثويت، ريتشارد.
33 - BRAITHWAITE, Richard

أخذت مشكلة وجود علم اجتماع علمى بالمعنى الدقيق جانبا كبيرا من تفكير الفيلسوف البريطانى ريتشارد بريثويت الذى اشتهر بنظرياته فى فلسفة العلوم وبدراساته وبحوثه فى فلسفة الدين والأخلاق . فقد كان من العلماء القليلين الذين أرقتهم أزمة العلم الاجتماعى، حيث رأى أن العلماء لا يهتمون أساسا بالأحداث أو الظواهر المتفردة، أو المنعزلة، أو حتى بنماذج من هذه الأحداث التى قد تتكرر على نطاق ضيق، ولكنهم يستهجنون ذلك كا يستهجنون أن يكون العلم مستخلصا من مثل هذه المواقف وما تنطوى عليه من خبرات. وباعتباره واحدا من كبار فلاسفة العلوم البريطانية فقد كان يرى أن العلم يهدف على العكس من ذلك إلى كشف ما يقوم وراء السطح، وأن العلماء يتوجب عليهم من ثم أن يسعوا إلى الكشف عن سبب (أسباب) الوحدة والتوافق بين كل مظاهر الاختلاف والتغاير. فمن حول عوامل الوحدة هذه يتم بناء منطقى، يكون وسيلة للوصول إلى نوع من التعميم الوصفى. وذلك على اعتبار أن النظرية فى العلم هى طاقم من الفروض أو الفرضيات التى تترابط فى نسق منطقى محكم . ولقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله أنه بهذه الكيفية وحدها يصل العالم إلى نسق استدلالى (استنتاجى) deductive يتم ترتيبه وتنظيمه بشكل يسهل استنتاج كل الفرضيات، من بعض المقدمات والفرضيات النهائية فالنظرية فى العلم ليست نتيجة تأمل نظرى ولكنها نتيجة لنمو تدريجى ودراسة تراكمية وبنائية للحقائق العديدة التى تخضع لفرضيات يتم التحقق منها امبريقيا فى فترة زمانية، بغرض الكشف عن طبيعة العلاقات الأساسية أو المبادئ المنطقية التى يمكن صياغتها بشكل مقبول . فالنظرية كما قرر بريثويت فى كتابه

الشـهـيـر الذى نشـر فى عـام ١٩٥٥ بعنوان Scientific Explanations: A study of the Function of Theory, Probability and Law in Science. 1955. تؤكـد علـى الاعـتـقـاد بوجود نوع من الانتظام الذى يخضع للقانون، وهو الذى يعطى الأحداث أو الوقائع المتكررة معناها الحقيقى .

ولقـد ولد ريتـشـارد بريثـويت فى الخـامس عـشـر من يناير عـام ١٩٠٠ فى بانبيرى Banbury بأكسفورد شاير Oxfordshire ببريطانيا وكان لتدريبه العملى وبنائه العلمى أثرهما العميق فى أن يصبح فى وقت قصير نسبيا فى مقدمة فلاسفة العلوم الذين أنجبتهم بريطانيا . فقد تلقى تعليمه فى جامعة كامبريدج حيث درس فى أول الأمر الطبيعيات والرياضيات، وذلك قبل أن يتحول إلى دراسة الفلسفة: أما مرحلة انطلاقته العلمية فيمكن القول بأنها بدأت عندما أصبح زميلا فى الجامعة فى عام ١٩٢٤ حيث أخذ يحاضر فى علم الأخلاق فى الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٥٣ ليصبح بعد ذلك استاذا لفلسفة الأخلاق منذ عام ١٩٦٣ إلى ١٩٦٧ .

ولقـد كـان لعـمل بريثـويت فى فلسـفـة العلوم أهمـيـة بـالغـة بـالنسـبـة لتطوير النظريات المتعلقة بطبيعة البحث العلمى، ففى كتابه السابق الإشارة إليه ناقش العديد من الجوانب النظرية فى العلم، وتعرض للصراع فى العلاقة بين النظرية والامبريقية، واهتم بكيفية بناء النظرية العلمية وبطبيعة العلم نفسه، وكيفية صياغة القوانين العلمية والتوصل إلى التعميمات .

غير أن اهتمامات برثيويت من الخطأ القول بأنها تنصب على هذه النواحى فحسب أو حتى تلك التى تدور حول النماذج وتصميم الموديلات وكيفية الإفادة بكشل تام من قوانين الاحتمالات والبدائل المتاحة أمام الباحث العلمى التى تنتجها هذه الأطر والأساليب، فقد أفادت - وهذا من الناحية الأخرى - خلفيته العلمية فى دراساته التى أجراها عن القضايا الأخلاقية وفلسفة الدين والتى حاول أن يطبق فيها نظرية المباراة الرياضية. وذلك على النحو الذى نراه بصفة خاصة فى كتابه «نظرية المباراة كأداة للفيلسوف الأخلاقى » Theory of Games as a Tool for the Moral Philosopher الذى صدر فى ١٩٥٥ وركز فيه على إبراز الكيفية أو الطرق التى يمكن

بهـا اسـتـخـدام نظرية المبـاراة (اللعب) للتـوصل إلى بعض المواقف والاخـتـيـارات الأخلاقية، علاوة على فائدتها فى عملية صنع القرارات الأخلاقية ذاتها وتطبيقها، وهى قضية شائكة على أى الأحوال، وما زالت تثير الكثير من الجدل والمناقشات بين جماهير الباحثين ودوائر المثقفين .

• قراءات مقترحة •

- Bung. M.; the of Simplicity. 1963.
- Hampel, C. G.; Aspects of Scientific Explanation, 1965 .
- Dickinson, John p., Science and Scientific Researches in Modern Society. 1984.
- kurtz, p.; Decision and the Condition of Man. 1958.
- Popper, k.; Objective Knowledge: An Evolutionary Approach.

★ ★ ★

٣٤ - بروسفيتز، اكسل.

34 - BRUSEWITZ, Axel (Karl Adolf)

ينتمى عالم الاجتماع وأستاذ العلوم السياسية أكسل كارل أدولف بروسفيتز لأبوين سويديين، ولكنه ولد فى التاسع من شهر يونيو عام ١٨٨١ فى فيشتز Vichtis بفنلندا، وهى البلدة التى قضى فيها مراحل تعليمه الأولى ليعود إلى السويد ويلتحق بجامعة أوبسالا Uppsala التى انهى فيها تعليمه الجامعى وحصل منها أيضا على درجة الدكتوراه عام ١٩١٣ عن رسالته التى دارت حول «التمثيل النيابى فى الدورة البرلمانية بالسويد من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٠» .

ومنذ حصوله على الدكتوراه امتزجت حياته العلمية بحياته العملية امتزاجا ملحوظا لدرجة أنه لعب دورا متعاظما فى كل من الناحيتين عن طريق إسهاماته فى تدعيم الأفكار الديمقراطية سواء من خلال عضويته للجان التى تشكل لتطبيق الممارسات الديمقراطية وبخاصة لجان التصويت الشعبى أو بكتابته فى تاريخ الفكر الدستورى فى السويد وعن الديمقراطية الشعبية فى سويسرا وهى الكتابات التى كان لها تأثيراتها فيما أصبحت تمارسه السويد وسويسرا، من آليات ونظم تدعم المثال الديمقراطى وتعمقه. فقد عمل فور تخرجه فى عام ١٩١٣ محاضرا فى العلوم السياسية كما عمل مساعدا فى مكتب المقاطعة فى الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩٢٠، ثم مدرسا بالجامعة فيما بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٣، وليصبح أستاذا للعلوم السياسية والنظرية السياسية والاجتماعية فى جامعة أوبسالا من عام ١٩٢٣ وهو المنصب الرئيسى الذى ظل يشغله حتى عام ١٩٤٧ .

وتعتبر كتاباته ودراساته عن الأزمة الدستورية التى شهدتها السويد عام ١٨٠٩ والتى تناولها فى مؤلفه الذى نشره عام ١٩١٧ بعنوان « دراسات فى أزمة

١٨٠٩ الدستورية » Studies on the Constitutional Crisis of 1809 من أهم الدراسات التى ظهرت فى الموضوع ومن أكثرها ثورية فى تاريخ الفكر الدستورى، حيث أسفرت عن إدخال كثير من التعديلات التى أخذت بها العديد من الدساتير فى أنحاء مختلفة من العالم، فقد أوضح فى هذه الكتابات تأثيرات النظرية السياسية والاجتماعية وبخاصة نظريات الفيلسوف الفرنسى مونتسكيو Montesquieu مما كان له أثره على فقهاء القانون الدستورى الذين ساندوا رؤيته السياسية والاجتماعية التى تذهب إلى أن الدستور لم يكن تعبيرا عن الوحدة القومية بقدر ما كان نوعا من التوفيق بين مختلف القوى والعوامل المتصارعة التى تعمل فى داخل السويد، وهى الرؤية التى أصبحت على أية حال بمثابة ركيزة فى مختلف دساتير العالم التى تستهدف نشر الديمقراطية وتقليل الفوارق بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة، ومواجهة الآثار السلبية والمدمرة لتفاقم مظاهر الصراع الاجتماعى .

من الناحية الأخرى قدم بروسفيتز أيضا فى عام ١٩٢٣ مؤلفه الموسوعى «نظام التصويت الشعبى والديمقراطية السويسرية » The Institution of the Popular Vote and Swiss Democracy وهو عبارة عن دراسة حافلة لأعمال اللجان التى خولت العمل فى هذه الناحية نظريا وتطبيقيا ما زال ينظر إليها الكثيرون على أنها أفضل وأعمق ما كتب فى الموضوع حتى الآن .

ولقد توفى بروسفيتز فى الثلاثين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٠ فى أوبسالا بالسويد، وبالرغم من مرور حوالى نصف قرن على وفاته فما زال يذكر كحجة فى الأدوار الهامة التى تقوم بها الحكومة السويدية والبرلمان السويدى فى أمور السياسة الخارجية، والشىء نفسه بالنسبة للتاريخ البرلمانى لإنجلترا وقانون الملكية السويدية والحقوق التى يخولها القانون للملك والمسئوليات الملقاة على عاتقه .

• قراءات مقترحة •

- Bourdieu, Pierre; Outline of a Theory of Practice. 1977.
- Hägerström. Axel; The Roman Notion of Obligation in the Light of the General Roman View of Law 2. Vol. (1927 - 1941).

★ ★ ★

٣٥ - برايانت، السير آرثر واين مورجان
35 - BRYANT, Sir Arthur

من كبار الكتاب الذين انطلقوا فى كتاباتهم التاريخية من خلفية اجتماعية، فهو لم يكتف برصد الحدث التاريخى وإنما سعى إلى وضعه فى قلب السياقات الاجتماعية التى وجد فيها، وركز فى تناوله للأحداث وفى تحليله لها على ابراز ديناميات العصر، الأمر الذى جعل «تواريخه» وكأنها معايشة جديدة لكل أبعاد الواقع الاجتماعى والسياسى، أو كأنها « بعث » جديد لهذا الواقع .

من الناحية الأخرى يعتبر أيضا من بين القلائل الذين ترتبط أسماؤهم بمؤلف واحد أو عمل واحد يشير إليهم . ذلك بالإضافة إلى أن طريقته فى التأريخ قد تميزت بمسحة ملحمية غالبة تناول بها حياة الأبطال والمشاهير مما أكسب كتاباته طابعا شعبيا ساعد على الإقبال عليها وانتشارها لتتأكد له بذلك شهرة عالمية تجاوزت حدود بلاده إنجلترا .

هو السير آرثر واين مورجان برايانت المؤرخ البريطانى الأشهر الذى سجلت كتاباته صفحات من التاريخ الاجتماعى والسياسى من خلال نظرة بارانومية واسعة تنظر إلى التاريخ الإنجليزى ككل أو كمتصل تتفاعل على مداه الأحداث بقدرات الإنسان وإبداعاته .

ولقد ولد السير آرثر برايانت فى ديرز نجهام Dersingham بمقاطعة نورفولك Norfolk بانجلترا فى الثامن عشر من فبراير عام ١٨٩٩ . واشتهر بصفة خاصة بمؤلفه الضخم الذى صدر فى ثلاثة أجزاء عن حياة صامويل بيبى Pepys فى السنوات ١٩٣٣ و ١٩٣٥ و ١٩٣٨ . فصدر أولها بعنوان « مرحلة التكوين The Man

In the Making والثانى بعنوان « سنوات الخطر » Thre Years of Peril والثالث بعنوان «منقذ البحرية» The Saviour of the Navy .

ولقد ترك برايانت دراسته فى هارو Harrow وهو فى سن الثامنة عشرة ليصبح واحد من أكفأ الطيارين فى السلاح الجوى الملكى البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى . ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى عاد يواصل دراسته . وبعد أن تخرج فى إكسفورد أصبح مديرا لمدرسة كمبردج للفنون والحرف والتكنولوجيا Cambridge School of Arts, Crafts, of and Technology فى الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٥ ثم عمل بعد ذلك محاضرا فى التاريخ فى برامج أكسفورد الإضافية ما بين عامى ١٩٢٥ و ١٩٣٦ .

ولقد صدر للسير آرثر برايانت عدد ضخم من الكتب والمؤلفات التى لقيت تقديرا متزايدا من كافة الأوساط العلمية والحكومية، فأنعم عليه بلقب فارس فى عام ١٩٥٤ . كنوع من التقدير والعرفان .

إلى جانب مؤلفه الضخم الذى أشرنا إليه عن حياة صامويل بيبى ظهر له العديد من المؤلفات التى أسهمت فى نسج خيوط شهرته ومكانته العلمية . وقد بدأت أعماله المبكرة بسلسلة من السير الذاتية Biographies التى تناولت الملك شارل الثانى King Charles II (١٩٣١) وسيرة ماكولى Macaulay (١٩٣٢) «وجورج الخامس» George V (١٩٣٦) وستانلى بالدوين Stanley Baldwin (١٩٣٧) . وقد ظهر فى هذه المرحلة أيضا اهتمامه بتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية فصدر له كتابه « النموذج الأمريكى American Ideal عام ١٩٣٦ .

المرحلة الثانية التى يمكن تمييزها فى إنتاج السير آرثر برايانت تلك التى بدأت مع الحرب العالمية الثانية، وهى مرحلة انعكست فيها رؤيته البانورامية للتاريخ الإنجليزى بوضوح حيث بدأها بكتابه «سنوات المحنه : ١٧٩٣ - ١٨٠٢» The Years of Endurance (١٩٤٢) ومن بعده مؤلفه «سنوات الانتصار : ١٨٠٢ - ١٨١٢» Years of Victory (١٩٤٤) ثم أعقبهما بمؤلفه «عصر الأناقة والازدهار : ١٨١٢ -

١٨٢٢» The Age of Elegance (١٩٥٠) ثم بعد ذلك أعماله المتأخرة والتى من أشهرها كتابه عن نلسن Nelson (١٩٧٠) و«الدوق العظيم. ولينجتون» The Great: Wellington (١٩٧١)، على حين تضمنت تواريخه التى جاءت بعد ذلك ومن بينها «ألف عام للملكية البريطانية A Thousand Years of British Monarchy (١٩٧٥) و«روح إنجلترا The Spirit of England الذى أصدره عام ١٩٨٢ قبل وفاته فى سالسبورى Salisbury بإنجلترا فى الثانى من شهر يناير عام ١٩٨٥ .

★ ★ ★

٣٦ - بيرجس، إرنست واطسن

36 - BURGESS, Ernest Watson

يعتبر عالم الاجتماع الأمريكى إرنست واطسن بيرجس (ومعه فى الحقيقة زميله روبرت بارك Park) أشهر أقطاب مدرسة شيكاغو التى تعتبر مركز البحوث الأيكولوجية، فقد نجحت بحوثه ودراساته المنوعة التى اهتم فيها بقضايا علم الاجتماع الحضرى، ومعالجة أوضاع العائلة كوحدة اجتماعية، وبطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وصور السلوك الاجتماعى المختلفة، فى أن تترك تأثيرا عميقا فى أجيال من العلماء الذين جذبتهم البحوث الأيكولوجية التى تعنى أول ما تعنى بدراسة العلاقات بين السكان أو الجماعات البشرية وبيئاتها، وتحليل عمليات التكيف بينهما، وما يصاحب ذلك أو ينجم عنه من مشكلات النمو الحضرى، وبذا انصب اهتمامهم بصفة خاصة على دراسة مناطق التحول والأحياء المتخلفة التى تسهم فى ظهور الجريمة والانحراف والأمراض الاجتماعية وما إلى ذلك من صور التفكك الاجتماعى والعائلى .

ولقد ولد بيرجس فى السادس عشر من شهر مايو ١٨٨٦ فى تيلبرى Tilbury بكندا، وتوفى عن ثمانين عاما فى السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ فى شيكاغو، وتلقى تعليمه فى كلية كينج فيشر King Fisher College بأوكلاهوما حيث حصل على درجته العلمية الأولى فى عام ١٩٠٨. ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام ١٩١٣ وهى الجامعة التى ظل اسمه مرتبطا بها على الرغم من أنه قام بالتدريس فى جامعات توليدو Toledo وكانساس Kansas وأوهيو Ohio قبلما يبدأ طريقه الطويل الذى استمر خمسين عاما فى جامعة شيكاغو فى الفترة من ١٩١٦ إى ١٩٦٦، وحتى بعد أن أصبح أستاذا فخريا منذ تقاعده فى ١٩٥١ Professor emeritus.

أثناء هذه الرحلة الطويلة تبلورت اهتمامات بيرجس بصفة خاصة حول مسألة التناظر بين المناطق الطبيعية والظواهر الاجتماعية والثقافية، ولذا فقد عمل جاهدا على جمع أكبر قدر من المادة والمعلومات والحقائق الاجتماعية التى تتيح المقارنة، وقد استخدم هذه المعلومات والمادة الضخمة فى كتابة عدد كبير من الكتب والبحوث والمقالات سواء تلك التى قدمها بمفرده أو بالاشتراك مع آخرين.

ويعتبر كتابه « مقدمة علم الاجتماع » Introduction to the Science of sociology الذى قدمه عام ١٩٢١ بالأشتراك مع ربرت بارك Park فى مقدمة أهم أعماله وأكثرها شيوعا وانتشارا، باعتباره مرجعا لا غنى عنه للدارس الاجتماعى والمهتمين بشئون المجتمع، ولا يقلل من هذه الفائدة أن الكتاب قد يعتبر اليوم ضمن كلاسيكيات العلم لأنه نجح فى إثارة الكثير من القضايا الأكثر حداثة فى علم الاجتماع والتى ما زالت تلح غلى أذهان المشتغلين به علاوة على أنه قد استخدم فى هذا الكتاب لأول مرة مصطلح « الأيكولوجيا البشرية » Human Ecology الذى أصبح من المصطلحات المحورية فى الإتجاه الأيكولوجى عموما . وحيث ركز بيرجس على عمليات التفاعل بشكل يظهر فيه تأثير مدرسة شيكاغو كمدخل لدراسة المجتمع ضمن المداخل الأخرى سواء منها تلك التى تركز على القيم والمعايير الاجتماعية كما نجد عند سمنر Summner على سبيل المثال أو على الطبقة والمصلحة والصراع مثلما عند ماركس Marx، أو اهتمت بالفعل الاجتماعى على ما نجد عند تولكوت بارسونز Parsons، وبدلا من ذلك ركز بيرجس اهتمامه على دراسة التفاعل الاجتماعى، حيث أكد على مسئولية علم الاجتماع فى تحليل وتصنيف العلاقات الاجتماعية، لا لأنها تمثل فحسب شيئا مشتركا أو شائعا، ولكن لأنها تمثل أيضا طريقة أساسية لتنظيم المعلومات والحقائق الاجتماعية، على اعتبار أن المجتمع يمكن النظر إليه كنسق من العلاقات الاجتماعية.

وفى هذا الاتجاه أقدم بيرجس فى عام ١٩٢٣ على نشر دراسته الهامة بعنوان «نمو المدينة» The Growth of the City الذى تضمن فرضيته الأساسية التى تركز عليها الأيكولوجيا الحضرية والقائلة بأن المدينة تنمو فى شكل دوائر مركزية

حول قلب المدينة الذى يمثل المنطقة التجارية. وهنا يتجلى اهتمام بيرجس بأسباب ظهور المجتمع الحضرى وأسباب نموه، وكذلك طبيعة التفاعل بين البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية، وانعكاسات ذلك على مظاهر هذا النمو وعلى طبيعة الأنشطة التى يقوم بها السكان فى المناطق المختلفة، بل وتوزع هذه الأنشطة وكثافاتها وما يرتبط بذلك من وجود مناطق السكن ومناطق العمل والأسواق ومناطق التبادل التجارى بل وبؤر الجريمة والانحرافات باختلاف طبيعة العلاقات المتبادلة بين البيئتين الطبيعية والاجتماعية من ناحية، وطبيعة ما يقوم بين الجماعات المختلفة التى تدخل فى تكوين البناء الاجتماعى الكلى من ناحية ثانية، مما يعكس فى النهاية نوعا من التقارب بين الاتجاه الأيكولوجى والاتجاهات الوظيفية فى دراسة المجتمع .

وبوجه عام فقد نظر بيرجس إلى المدينة على أنها ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة عوامل طبيعية يصعب التحكم فيها . كما ذهب إلى أن لكل مدينة طابعها وتنظيمها الخاص الذى تنقسم به إلى مناطق مختلفة صناعية أو تجارية أو سكنية، بالإضافة إلى الملامح الثقافية والاجتماعية المميزة لها، وهو ما ظهر أيضا فى كتابه «المجتمع الحضرى» The Urban Community الذى قدمه فى عام ١٩٢٦ وكان فى الأصل مجموعة من المقالات عن المدينة الحديثة، ألهمت الكثير من البحوث الإيكولوجية أن تفكر تفكيرا اجتماعيا عند النظر إلي المدن حيث ركز على توضيح طبيعة هذا المجتمع كنمط مكانى، وصلة ذلك بالنمط الأخلاقى والثقافى العام .

ومنذ أن نشر بيرجس هذه الكتابات وبدأ العلماء يميلون إلى الأخذ بنظرته الخاصة إلى الجماعة الاجتماعية وإلى العمليات الاجتماعية ذاتها . فقد وضح من خلال كتاباته أنه يمكن الإشارة إلى أية جماعة بأنها جماعة اجتماعية Social إذا كانت تتصف بالقدرة على العمل الدائم أى إذا توافر الفعل الشعورى الذى يستهدف غاية معينة باعتبار أن هذا يمثل الرابطة التى تربط الأفراد أو ما أطلق عليه علاقات التكافل Symbiotic Relationships .

وفى ضوء هذا فقد جعل بيرجس أهمية خاصة لتصور الأفراد لغيرهم

وشعورهم بوجودهم، إذ رأى أن هذا كفيل بإيجاد قدر من التفاعل الاجتماعى والتأثيرات المتبادلة بين كائنات شاعرة وواعية وليس بين مجرد أشياء، الأمر الذى يفيد ولا شك فى تحليل السلوك الجمعى وفهمه على الرغم من أنه يعكس منظورا سيكولوجيا واضحا .

والحقيقة أن هذا الإدراك لطبيعة الجماعة الاجتماعية قد مثل بالنسبة إليه مدخلا لتصنيف العمليات الاجتماعية ذاتها. فنجده يصنف هذه العمليات إلى أربعة أنواع، هى التكيف والتمثل والمنافسة والصراع . والتكيف بالنسبة إليه هو عملية تتضمن نشاط الأفراد والجماعات وسلوكياتهم التى ترمى إلى تحقيق الإنسجام بين الفرد أو الجماعة والبيئة الاجتماعية، وهو عملية دينامية باعتبار أن المجتمع فى تغير مستمر . وهنا نجده يبرز مفهومه للتكيف الاجتماعى الذى رأى أنه يختلف عن التكيف الثقافى الذى يقصد به اكتساب الفرد لثقافة مجتمعه. أما فيما يتعلق بالمنافسة فهى عملية اجتماعية، تقوم بين طرفين يعمل كل منهما لتحقيق هدف يسعى إليه الطرف الآخر . وهى تختلف عن الصراع، حيث يعمل التنافس غالبا بين أطراف متماسكة بينما يعمل الصراع، بين أطراف غير متكافئة، والواقع أنه أعطى الصراع أهمية خاصة باعتباره بعدا أساسيا من أبعاد الواقع الاجتماعى، وهذا نتيجة لتأثره بالدارونية الاجتماعية والعضوية التطورية حيث اهتمت كلتاهما بفكرة الصراع .

ولكن على الجانب الآخر أدت بحوثه العلمية فى طبيعة العائلة Nature of Family إلى توضيح كثير من مكونات النظام العائلى والطريقة التى تعمل بها هذه المكونات، حيث أسفرت دراساته عن الزواج والاستقرار الزواجى عن إمكانات هائلة للتنبؤ بما قد يئول إليه الزواج من نجاح أو فشل . وذهب فى ذلك إلى أن نوعية التوافق ودرجته يعتمدان كثيرا على توافر قدر من التقارب والتفاهم بين الاتجاهات الاجتماعية والخصائص الشخصية للزوجين، وقد مكنته النتائج التى توصل إليها من تطوير نموذج نظرى فى الاستقرار العائلى، وقد نشرت هذه النتائج والنموذج الذى أقامه عليها فى أكثر من عمل، حيث نشر فى عام ١٩٣٩ كتابه الذى ألفه

بالاشتراك مع ليونارد كوتريل Cottrell بعنوان «التنبؤ: النجاح أو الفشل فى الزواج» Predicton: Success or Failare in Marriage . كما نشر فى عام ١٩٤٧ بالاشتراك أيضا مع موريس فيشبين Fishbein كتابه «الزواج الناجح» Successful Marriage ثم كتابه الذى نشر مع آخرين أيضا (١٩٥٥) بعنوان «العائلة : من النظام إلى الرفقة» : The Family: From Institution to Companionship وترجع أهمية هذا الكتاب الذى أعيدت طباعته فى ١٩٦٠ إلى أنه قد أثار فيه واحدة من أهم القضايا حيث أوضح أن العائلة فى العصور التاريخية كانت دائما عرضة للتغيرات والتحولات المستمرة من كونها نظاما اجتماعيا يظهر السلوك العائلى فيه محكوما بالتقاليد والأعراف والرأى العام والقانون إلى نوع من الصحبة أو الرفقة ينبثق فيها السلوك العائلى من مشاعر الود والتعاطف بين أعضائها .

وفى كتاباته اللاحقة اهتم بيرجس بدراسة الأعمار المتقدمة ومشكلات كبر السن والشيخوخة، فقد حرص فى كتابه «تقدم العمر فى المجتمعات الغربية» Aging in Western Societies الذى قدمه عام ١٩٦٠ على إبراز آثار التقاعد Retirement وذلك من خلال المناقشة الموضوعية والمستفيضة للبرامج الحكومية والتى تقدمها الهيئات الرسمية لهذه الفئة التى يرى أنها ما زالت فى حاجة إلى كثير من أوجه الرعاية الاجتماعية والصحية والتشريعية .

وعلى الرغم من أهمية هذه الكتابات جميعها فإن شهرة بيرجس ما زالت مرتبطة أساسا بأعماله التى قدمها فى علم الاجتماع الحضرى، وأيضا تلك الكتابات التى عكست اهتمامه بمشكلات المنهج . وإذا كانت مقالته الرائعة التى نشرها عام ١٩٤٥ فى كتاب جورج جورفيتش وويلبرت مور Wilbert Moore «علم اجتماع القرن العشرين» Twentieth Century Sociology بعنوان «منهج البحث فى علم الاجتماع Research Method in Sociology مما يعتبر مرجعا حتى الآن، فلا يقل عنها أهمية كتابه الذى نشره عام ١٩٦٤ بالاشتراك مع دونالد بوجى Bogue بعنوان «إسهامات فى علم الاجتماع الحضرى» Contributions to Urban Sociology .

● قراءات مقترحة●

- Cavron, Hannah; The Captive Wife. 1972.
- Morris, R. N.; Urban Sociology. 1968.
- Newsom, J. and E.; Four Years Old in an Urban Community. 1986.
- Willmott, P.; The Evolution of a Community. 1963.

★ ★ ★

C

٣٧ - كامبل، جوزيف (١٩٠٤ - ١٩٨٧)

37 - CAMPBELL, JOSEPH

عندما أقدمت بتى سو فلاورز Betty Sue Flowers أستاذة الشعر والأساطير فى جامعة تكساس بأوستن على نشر كتاب جوزيف كامبل «قوة الأسطورة» The Power of Myth فى عام ١٩٨٨ أى بعد وفاة كامبل بعام واحد، استقبلت الأوساط الثقافية والأكاديمية الكتاب بضجة هائلة، وبتقدير متزايد عبرت عنه مجلة نيوزويك الأمريكية بقولها «إن كامبل أصبح نموذجا غاليا ونادرا للمثقفين فى الحياة الثقافية الأمريكية: فهو مفكر جاد عشق الثقافة الشعبية Popular وعاش معها فى عناق طويل». كما كتبت الكينكيناتى بوست Cincinnati Post وهى فى طليعة المجلات الأدبية المتخصصة تقول: «لقد ارتاد كتاب قوة الأسطورة عالما غريبا مثَّل دائما موضوعا أثيرا لدى كامبل، ذلك الأستاذ المتميز الذى أثرت كتاباته فى الملايين من القراء، فالأسطورة بالنسبة إليه كانت دائما أغنية الكون وموسيقى العوالم الرحيبة».

ولقد ولد جوزيف كامبل فى السادس والعشرين من شهر مارس عام ١٩٠٤ فى مدينة نيويورك، وتوفى عام ١٩٨٧ قبيل أيام من الذكرى السنوية الرابعة والعشرين من اغتيال الرئيس الأمريكى جون كينيدى Kennedy الذى قتل فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ بمدينة دالاس Dallas بولاية تكساس Texas الأمريكية. وهى المأساة التى انطبعت فى حسه، وناقشها بلغته الأسطورية فى أولى لقاءاته مع بيل مويرز Moyers الكاتب والإذاعى اللامع الذى تعرف عليه وقتذاك، وكان يعتبر أيامها واحدا من ألمع الوجوه الصحفية التى أدارت الكثير من الحوارات مع شوامخ الفكر والثقافة

الأمريكية، سواء من خلال أحاديثه الصحفية أو عن طريق تقديمهم وتقديم أعمالهم فى برامجه الاذاعية والتليفزيونية التى جذبت إليها ملايين المستمعين والمشاهدين.

على أى حال فقد ظهر شغف كامبل بالأساطير وحكايا الشعوب وبآدابها وتراثها الشعبى فى فترة مبكرة جدا من حياته، إذ قرأ وهو لم يزل طفلا فولكلور الهنود الأمريكيين، وكان هذا بداية طريقة الطويل الذى سار فيه والذى تحدد بصفة خاصة عندما أخذ يعد لنيل الماجستير فى الأدب الإنجليزى.

والواقع أن صلته بالأساطير الهندية وبثقافات الهنود الأمريكيين وهى التى مثلت جانبا كبيرا من اهتمامه، بدأت وهو صبى دون العاشرة عندما كان يقف مبهورا فى متحف التاريخ الطبيعى فى نيويورك Museum of Natural History أمام العشرات من نماذج التواتم Totems والعشرات من الأقنعة Masks مختلفة الحجوم والأشكال. ويتساءل عقله: من الذى صنعها؟ ولماذا؟ وما الذى تعنيه؟ وهى أسئلة كانت بداية لقصته مع الأساطير الهندية حيث أخذ يقرأ كل ما تقع عليه يداه بشأنها: أساطيرهم وقصصهم وخرافاتهم ومعتقداتهم، وكيف تشكل جميعا العمود الفقرى لثقافاتهم. وما بلغ العاشرة من عمره حتى كانت روحه مشبعة بمشاهداته وبقراءاته التى هيأت له ولاشك أساسا راسخا لكى يصبح واحدا من أبرز علماء الأساطير فى العالم لا بسبب كتبه التى نشرها فحسب والتى بلغت ٢٠ كتابا، ولكن أيضا بسبب أحاديثه ومناقشاته التى تنتفض كلماتها بوثبة الحياة.

ولا تعتبر قصته مع الحياة ذاتها أقل غرابة. فالحياة بالنسبة إليه هى نوع من المغامرة Adventure التى نخوضها - أو هكذا يتعين علينا - بكل حسنا وكياننا. وهو موقف انعكس بدوره فى كتاباته المختلفة، بل وفى مواقف حياته العملية ذاتها. فعندما حاول استاذه الذى يشرف على رسالته للدكتوراه أن يفرض عليه منهجا وإطارا ضيقين للدراسة علق كامبل بقوله: إلى الجحيم بالدراسة كلها»، وتحول إلى عالم القراءة يلتهم الكتب التى تدور عن كل شىء فى العالم وظل يقرأ من يومها حتى وفاته فى عام ١٩٨٧. قرأ فى الأنثربولوجيا وفى البيولوجيا، وفى التاريخ

والفلسفة والدين والاجتماع والأدب وعلم النفس والجمال. مما هيأ له أساسا راسخا لدراساته المقارنة التى سعى فيها إلى الكشف عن وظائف الأساطير فى الثقافات المختلفة وانعكاساتها فى الآداب والعلوم المعاصرة.

هكذا إذن كانت علاقة جوزيف كامبل بالأساطير. فقد بدأ مشوار حياته مدرسا بكلية سارة لورنس Sarah Lawrence فى نيويورك فى عام ١٩٣٤ واستمر يمارس مهنة التدريس فى هذه الكلية على مدى أربعين عاما تقريبا. ولهذا كرمته كليته بأن أنشأت له أول كرسى لعلم الأساطير المقارنة.

وعلى مدى هذه السنوات توالت إبداعاته التى تجاوزت العشرين كتابا إلى جانب كم هائل من المقالات والدراسات التى يصعب حصرها. وإن كانت تعكس فى مجملها أهم النتائج التى انتهى إليها والتى كانت منذ البداية سببا فى لفت الأنظار إليه. فقد لاحظ كامبل أن كثيرا من الموضوعات و«التيمات» التى نقف عليها فى الأساطير التى تدور عن الملك آرثر Arthurian Legend تماثل تماما الموتيفات والموضوعات الأساسية التى نجدها فى فولكلور الهنود الحمر . وقد أدت به هذه الملاحظة إلى أن يتابع مشكلة تشابه الأنماط والأشكال الأسطورية القديمة فى مختلف الثقافات وهو الجهد الذى استغرقه طوال أيام حياته.

ولقد قدم كامبل فى الفترة ما بين عامى ١٩٥٩ و١٩٦٧ ربما أهم مؤلفاته وهو مؤلفه المدهش «أقنعة الله» The Masks of God وذلك فى أربعة أجزاء صدر أولها عن الأساطير البدائية Primitive Mythology والثانى عن «الأساطير الشرقية» Oriental بينما دار الكتاب الثالث حول أساطير الغرب Occidental واهتم الجزء الرابع بأساطير الخلق Creative Mytholohy.

أما كتابه الهام الثانى فقد ظهر عام ١٩٦٩ بعنوان «حينما جاء الاثنان لأبيهما: شعائر الحرب عند النافاهو» Where the Two Came To Their Father: A Navaho War Ceremonial. وتعتبر مقالته التى جاءت ضمن هذا الكتاب بعنوان «البطل ذو الألف وجه» The Hero With a Thousand Faces دراسة مقارنة فذة لتصور «البطل» فى الأساطير الهندية الأمريكية القديمة، بما يوجد فى أساطير الشعوب الأخرى. وقد

انتهى كامبل فى هذا العمل إلى واحدة من أهم النتائج حيث ذهب إلى أن شيوع المشابهة فى عالم الأساطير وتماثل الكثير من الموضوعات والموتيفات الأساسية بين فولكلور الهنود الحمر وتلك التى توجد فى أساطير الشمال إنما يكشف عن مدى حاجة الإنسان النفسية إلى الاستناد إلى مبادئ وتصورات إنسانية مسبقة ومتأصلة فى التكوين البشرى نفسه. وهو تفسير أثار غير قليل من الانتقادات التى وجهت إليه بسبب متضمناته السيكولوجية الواضحة. علاوة على ما يبدو فى كتاباته من ربط الدور المعاصر للأساطير إما ببعض الوظائف الأيديولوجية وإما بالوظائف العلاجية عموما.

كذلك شهدت السبعينات والثمانينات فيضا من كتبه ومؤلفاته. إذ ظهر كتابه «الأساطير والأحلام والدين Myth, Dreamas and Religion فى عام ١٩٧١. كما صدر كتابه «أساطير نعيش بها» Myth To Live By فى عام ١٩٧٣ ومن بعدهما «الصورة الأسطورية» The Mythic Image الذى ظهر فى عام ١٩٧٥، ليصدر بعد ذلك مؤلفه الهام «الأطلس التاريخى لأساطير العالم» Historical Atlas of World Myths فى جزءين. أولهما باسم «طريق القوى الحيوانية» The Way of Animal Powers عام ١٩٨٣، والثانى بعنوان «طريق الأرض الخصبة» The Way of Seeded Earth بعد شهور فى العام نفسه. ذلك بالإضافة إلى مجموعة من الكتب والمؤلفات التى قدمها بالاشتراك مع آخرين من بينها «أوراق من كتاب أرانوس السنوى» Papers From Era-nos Year book وقد صدر فى ٦ مجلدات ضخمة، ثم الدغل المتنقل The Portable Jung والليالى العربية الساهرة» The Portable Arabian Nights و«طيران ذكر الأوز البرى» The Flight of the Wild Gander. وإذا كان البعض قد هاجم كامبل بسبب تحليلاته السيكولوجية، فقد تمادى البعض الآخر فى موقفهم من كتاباته لدرجة أنهم رأوا فى تفسيراته التى قدمها للأساطير ما يوصف بأنه نزعة تشاؤمية، وبلغوا فى ذلك إلى حد القول بأن كتاباته فى هذا الاتجاه ليست سوى محاولة للهرب من الواقع.

ولكن الإنصاف يقتضى القول بأن مثل هذا الموقف ينطوى على كثير من

المغالاة والتطرف إن لم يكن التجنى. ذلك أن النظرة التحليلية الموضوعية لأعمال جوزيف كامبل إنما تكشف عن موقف هو أبعد ما يكون عن ذلك الاتهام بالتشاؤم أو الرغبة فى الهروب، إذ يؤمن تماما بأن هناك قبسا من «الحكمة» Wisdom يختفى وراء مظاهر التخبط والصراع بين ما هو حقيقى وما هو وهم. وفى اعتقاد كامبل أن بمقدور هذا (القبس) أن يحول مظاهر الشتات والفرقة التى يعيشها الناس والجماعات والأمم والشعوب إلى الاتساق وإلى الوحدة والتوازن من جديد وهو موقف بدأ يتبلور على أى الأحوال فى كتاباته المتأخرة على وجه الخصوص، حيث سعى فى السنوات الأخيرة إلى الوصول إلى مركب جديد من العلم والروح، وهو مركب كان يعتقد بضرورة أن نخرج فيه من محورية أو مركزية الذات إلى رؤية كونية أكثر رحابة حتى لتحيط بالكون باكمله. فقد كتب بعدما وصل الإنسان إلى القمر أن الإنسان أصبح يشارك اليوم فى واحدة من أكبر قفزات الروح الإنسانية وهى تسعى لمعرفة ما يحيط بنا من مظاهر التداخل والتخبط والغموض.

وللحق فقد كان جوزيف كامبل أشبه بكتاباته ومؤلفاته رجلا بألف قصة وقصة إن صحت المشابهة وصح التعبير. ففى أحد لقاءاته فى نيويورك مع أحد الرهبن الشينتو Shinto قال كامبل للراهب: «حتى الآن أنا لا أعرف ما هى ايديولوجيتكم ولا أعرف ما هى نظرتكم للدين» ويفأجأ كامبل برد الراهب وهو يقول له: «ليس لنا أيديولوجية أو لاهوت .. إننا نرقص». وربما كان هذا هو ما يفعله كامبل بالضبط. فما مواقفه الفكرية وكل كتاباته إلا رقصة دائمة للإنسان وللحياة وللكون بأكمله.

★ ★ ★

٣٨ - تشابين، ف . ستيوارت

38 - CHAPIN, F. Stuart

من أبرز أعلام الجناح المعتدل فى الوضعية المحدثة التى اتجهت إلى الاستعانة بالرياضيات والكم والإحصاء لفهم الظواهر الاجتماعية وقياس العلاقات التى تربط بين مظاهر الفعل والسلوك الاجتماعى المختلفة. وبالرغم من أنه يتفق مع الوضعية المحدثة على الأقل فى اتجاهها العام الذى يؤكد على أهمية التعاريف الإجرائية، فقد كان له منظوره الخاص فيما يتعلق بهذه التعاريف التى لم يعتبرها حلا نهائيا أو مطلقا أو إنما مجرد تطور مفيد لتحقيق قدر أكبر من الموضوعية.

أما الناحية الثانية التى يمكن القول بأن تشابين يختلف فيها أيضا عن معظم الوضعيين المحدثين فتتمثل فى اهتمامه بدراسة الحركات الاجتماعية بعيدة المدى التى تتعرض لها الحضارات الإنسانية ككل. ولعله من ها هنا كانت نظرته إلى علم الاجتماع على أنه نظام ثقافى شامل، مما دفعه إلى الاهتمام بالثقافة وهو الاهتمام الذى شارك فيه عدد كبير من العلماء الاجتماعيين والأنثربولوجيين من بينهم روث بنديكت وليند Lynd وبيكر Becker.

ولقد حصل تشابين على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا فى أوائل العشرينات وهى مرحلة من الواضح أنه كان خاضعا خلالها لتأثير الاستاذ جيدنجز Giddings الذى كان وقتذاك أستاذا بارزا وعلما من أعلام الوضعية المحدثة فى هذه الجامعة، وهو التأثير الذى تبلور فى مرحلة لاحقة عندما عمل فى جامعة مينوسوتا، وظهر من ثم اهتمامه بالاستعانة بالرياضيات المتقدمة وبالتحليل الرياضى والاحصائى والدور الذى تلعبه فى البحوث الاجتماعية، الأمر الذى ساعده ولاشك فى تصميمه لمقياس المنزلة الاجتماعية لجامعة مينوسوتا Social Status

Scale. والواقع أن ذلك الاهتمام قد ظل ملازما له طيلة حياته العلمية لدرجة أن اعتبره الكثيرون حجة فى التصميمات التجريبية لعدة عقود، وأرجعوا إليه الفضل فى تحقيق قدر كبير من التقارب بين المنهج التجريبى الذى يستخدمه علماء الطبيعة ومناهج البحث الاجتماعى، رغم التباين بين مجالى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية.

ولكن هناك من الناحية الأخرى تأثره بالدراسات التى أجراها إرنست جرينوود Greenwood فى الاتجاهات التجريبية، والتى أبرز فيها أهمية التصميمات التجريبية فى البحوث السوسيولوجية. فقد كان لهذه الدراسات وبخاصة «علم الاجتماع التجريبى». Experimenatal Sociology الذى كتبه جرينوود عام ١٩٤٤ وناقش فيه مظاهر تطور وتقدم الأساليب والتكنيكات التجريبية، أكبر الأثر فى تشكيل نظرته إلى العلم وتحديد اتجاهاته العملية والنظرية وتوضيحها. فقد أصبح تشابين موقنا تماما من أن عالم الاجتماع عليه أن يخترع وحدات، وأن يقنن أدوات قياس الأمر الذى يعتقد أنه يساعد كثيرا على إخضاع الظواهر للملاحظة المباشرة والتسجيل.

ومع أن هذا التأثير ينعكس فى كل أعمال تشابين ومؤلفاته، إلا أنه يظهر مع ذلك كأوضح ما يكون فى عمله الرئيسى الموسوم «التصميمات التجريبية فى البحوث الاجتماعية» Experimental Designs in Sociological Research وهو الكتاب الذى ظهر فى عام ١٩٤٧ وكان يدور بصفة أساسية حول استخدام منطق التجربة المعملية فى دراسة المجتمع والعلاقات الاجتماعية. كما ظهر التأثير أيضا فى مقالاته العديدة التى دارت حول الموضوع، وبخاصة مقالته التى نشرها فى Social Forces فى العام نفسه بعنوان «المعوقات الاجتماعية لقبول المعارف القائمة فى العلم الاجتماعى Social Obstacles to the Acceptance of Existiing Social Science Knowledge وهى مقالة مازالت موضع تقدير كبير من جمهور العلماء والباحثين حيث ناقش فيها ثمانية معوقات اعتبر أنها تحول دون التقبل الكامل للعلم الاجتماعى.

وعلى العموم فقد مضى تشابين يحفز تلامذته ويقوم معهم باعداد وتصميم

عدداً من المقاييس التى جرى استخدامها بدرجة ملحوظة من الدقة والنجاح فى قياس صور السلوك الثقافى المختلفة، وبخاصة تلك التى ترتبط بالمكانة الاجتماعية والبيئة الأسرية وبالشخصية.

ويعتبر كتابه «النظم الأمريكية المعاصرة» Contemporay American Institutions (١٩٣٥) من أهم الدراسات التى برزت فيها اتجاهاته الرياضية والتجريبية. ففى هذا الكتاب الذى اهتم بدراسة النظم الاجتماعية أبرز تشابين المقصود بهذا المفهوم، وذهب إلى أنها (النظم) عبارة عن أنماط من السلوك البشرى أوهى شبكة من الاستجابات الشرطية والعادات الفردية والاتجاهات الاجتماعية التى يمكن تحديدها بدرجة عالية من الصدق بواسطة الرسوم البيانية الرمزية التى اعتبرها من أهم الوسائل التى تساعد على إدراك أنماط العلاقات التى يصعب رؤيتها والتى يتعين إخضاعها للضبط والقياس.

ولقد ميز تشابين فى هذا الكتاب بين نمطين اثنين من النظم متأثرًا فى ذلك بموريس هوريو Hauriou، وهى النظم النووية Nuclear والنظم العامة، وهذه الفئة الأخيرة يذهب تشابين إلى أنها تتصف بطابعها الرمزى الواضح.

ومع ذلك فلايزال الكثيرون يعترفون بالدور الذى قام به تشابين فى تطوير علم الاجتماع التاريخى وعلم الاجتماع الثقافى. ففى كتابه «التغير الثقافى» Cultural Change الذى صدر عام ١٩٢٨ نجده يؤكد على أن المسؤليات الأساسية لعالم الاجتماع إنما تتركز فى وعيه العميق بالاتجاه الرئيسى للثقافة الذى يميز الجنس البشرى منذ العصر الحجرى حتى عصر الآلة والثورة التكونولوجية التى تعيشها المجتمعات المعاصرة. ومع أن هذا الموقف لا يعتبر جديدا تماما على الفكر الاجتماعى، إلا أنه تناوله من زاوية ووجهة نظر معينة، حيث رأى أن هذا الاتجاه الرئيسى إنما يتضمن العديد من التيارات المستقلة، تقابل مجموعات من الثقافات التى تنعكس فى هذه التيارات. وربما كان الشىء الجديد هنا هو إبرازه لمفهوم النضج الثقافى إذ رأى أنه يستحيل تحديد السمات الثقافية الخاصة، أو حتى عدد

الأشكال والأنماط الاجتماعية التى تكون الكل المركب والتى يلزم وجودها بوضوح قوى، حتى يمكن الحديث عما يوصف بأنه الثقافة القومية.

ومع أن تشابين قد طبق نظريته على عدد محدود من التطورات الملموسة مثل تقدم الحضارة الإغريقية، والصراع الطبقى، والمشكلات الزراعية التى عرفتها روما، وبعض التغيرات الثقافية المادية فى إنجلترا إبان العصور الوسطى، إلا أن النظرية مازالت فى حاجة إلى مزيد من البلورة والتأكيد وخاصة أنه يميز بين الثقافة المادية والثقافة اللامادية non- material . ومع ذلك تقع المظاهر من النوع الأول (المادية) فى المجال الثقافى، ولكن لا باعتبارها أو لكونها مادية، وإنما لأنها ذات معنى، وهو معنى يستثير فكر الإنسان. ومن هنا فإن ذلك المعنى الذى تنطوى عليه هذه الظواهر وليس جوانبها المادية هو ما يجعلها ذات طابع ثقافى ملحوظ.

● قراءات مقترحة ●

- Dean. Dwight C.; and Donald M. Valdes; Experiment in Sociology .1968.

- Lazarsfeld. Paul, Problems in Methodology. in Sociology Today: Problems and Prospects (eds). Merton. 1959.

- Young. Pauline V; Scientific Social Surveys and Research. 4th ed. 1966.

★ ★ ★

٣٩ - تشايلد، فير جوردون

39 - CHILDE, V(ere) Gordon

تمثل كتابات عالم الآركيولوجيا (علم آثار ما قبل التاريخ) والمؤرخ الأسترالى المولد والبريطانى الجنسية فيرجوردون تشايلد مركبا واسعا من الثقافة والمعرفة التى تغطى بطريقة فريدة عددا متداخلا ومتشعبا من المجالات والميادين لدرجة أن اعتبره الكثيرون مرجعا للكثير من المسائل والموضوعات فى مختلف التخصصات التى تتعلق بمجال نشاطه الأصلى وهو دراسة الثقافات القديمة والبحث فيها.

ولقد ولد تشايلد فى سيدنى Sidney عام ١٨٩٢، واشتغل أستاذا للآركيولوجيا فى جامعة أدنبره Edinburgh لفترة امتدت حوالى عشرين عاما ما بين عام ١٩٢٧ و١٩٤٦، ثم عمل بعد ذلك مديرا لمعهد آثار ما قبل التاريخ فى جامعة لندن حتى عام ١٩٥٦ أى إلى ما قبل وفاته بعام واحد (١٩٥٧). وأثناء ذلك انشغل بدراساته التى أجراها عن أوربا فى عصور ما قبل التاريخ فيما قبل عام ٢٠٠ و٣٠٠ قبل الميلاد، والتى سعى فيها إلى تقييم العلاقة بين أوربا والشرق الأدنى، وإلى فحص بناء شخصية الثقافات البدائية فى العالم الغربى فى الأزمنة القديمة، وهى الدراسات التى نجح عن طريقها فى نشر مدخله العالمى أو الدولى الذى كان له أثره فى إقامة أحد التقاليد الراسخة فى دراسات ما قبل التاريخ.

ولقد صدر أول أعماله الضخمة التى استخدم فيها هذا المدخل وهو كتابه «فجر الحضارة الأوربية» The Dawn of European Civilization فى عام ١٩٢٥، وقد صدرت طبعته السادسة فى عام ١٩٥٧ قبيل وفاته بأسابيع قليلة، وبعد ذلك ظهر كتابه «الدانوب فى عصور ما قبل التاريخ» The Danube in Prehistory ١٩٢٩ وهو من الكلاسيكيات التى مازالت تقرأ بشغف واهتمام.

ومع ذلك فقد كان لتشايلد بعض الكتابات التى تعتبر أكثر شعبية والتى حرص على أن يوجهها إلى القارئ العادى، ففى عام ١٩٣٦ ظهر كتابه الشيق «الانسان يصنع نفسه» Man Makes Himself الذى استعرض فيه بشكل ممتع قصة تطور المجتمع البشرى والمظاهر التكنولوجية التى صاحبت هذا التطور. ثم ظهر بعد ذلك كتابه «ماذا حدث فى التاريخ» What Happend in History فى عام ١٩٤٢ وهو يعتبر بمثابة مدخل أو مقدمة لعلم آثار ما قبل التاريخ.

فى الكتاب الأول ركز جوردون تشايلد على إبراز الفوراق الأساسية بين التقدم التاريخى والتطور العضوى وبين الثقافة الإنسانية والتكوين البيولوجى للحيوان وبين الميراث الاجتماعى والوراثة البيولوجية. ولقد عالج تشايلد فى هذا الكتاب معالجة تاريخية موضوع الاختراع الذى مثل دائما أحد الاهتمامات الرئيسية لعدد كبير من العلماء فى ذلك الوقت، وأبرز فى ذلك نظريته الخاصة المتعلقة بما أطلق عليه الثورات التكنولوجية والاقتصادية. فقد ذهب إلى أن التطور البشرى عبارة عن سلسلة متصلة من التطورات الاقتصادية التى ترتب عليها تحول مستمر فى نوعيات ومستويات العمل والإنتاج. ومن أخطر هذه الثورات أو الفترات الانتقالية ما أسماه ثورة إنتاج القوت الحجرية التى تميزت بالانتقال من الصيد إلى الرعى، ثم بعد ذلك ثورة اكتشاف الزراعة ومعرفة الاستقرار فى القرى الصغيرة. وثورة المدينة التى تميزت ببناء المدن وظهور أساليب الإدارة والتنظيم والقوى الفكرية التى طورت المعارف الإنسانية فى الفلسفة والعلوم والآداب. فالاختراع من وجهة نظره لا يحدث طفرة أو بشكل فجائى أو نتيجة مورثات بيولوجية، ولكنه مركب جديد يحدث نتيجة لتراكم الخبرات التى يحصل الإنسان عليها عن طريق التراث المنوع الذى ينفتح عليه ويكتسبه.

ولاشك فى أن اهتمام تشايلد بموضوع التطور من ناحية واستقرار الجماعات والمجتمعات البشرية وتحولها من ناحية ثانية، يحمل الكثير من ملامح الاتجاه التطورى الأمر الذى جعل كثيرا من الباحثين ينظرون إليه على أنه واحد من أتباع هذه المدرسة، وخاصة بعد أن أقدم على نشر كتابه «التطور الاجتماعى» -So

cial Evolution الذى ظهـر عـام ١٩٥١، ونـاقش فـيـه مـشكلات التطور الاجـتـمـاعى والثقافى. ولكن هذا الاعتقاد يصعب التسليم تماما بصحته، فمن ناحية تبرز فى تحليله لهذه المشكلات بعض الملامح الماركسية، ومن ناحية ثانية، تبرز فيه أيضا بعض المواقف المعارضة للنزعة التطورية التى سادت القرن التاسع عشر، والتى ذهبت إلى أن كل الثقافات تمر بنفس مراحل النمو التى تسير فى خط واحد نتيجة لوحـــدة قـــانون التطور الذى يرى التطوريون أنه يؤدى إلى تكرار وقـــوع نفس الاختراعات فى عدة بقاع من العالم بشكل مستقل يخلو من عنصر احتكاك المجتمعات التى تقع فيها هذه الاختراعات، ثم مالوا إلى تصنيف الثقافة بحسب درجة التقدم الذى وصلت إليه.

ويرى تشايلد أنه يصعب اليوم الأخذ بهذه الفكرة نظرا لأن المعلومات الاثنوجرافية والآركيولوجية لا تؤيد قضاياها الرئيسية، ونزولا على ذلك فإنه يبدو أقرب إلى المدرسة الانتشارية وإلى النزعة التطورية المحدثة التى تصطنع مدخل التطور الشامل الذى يسعى إلى دراسة الثقافة الإنسانية ككل. ومع أن هذا لا يخلو بدوره من ملامح تطورية تقليدية، إلا أنه يؤكد على ضرورة الأخذ فى الاعتبار عند دراسة هذه الثقافة من ذلك المنظور الشامل، مدى الاحتكاك أو الانتشار الذى يقوم بين البيئات والثقافات المختلفة.

وبالرغم من اعترافه بأن التقدم الثقافى مما يمثل فى ذاته عقبة أمام إمكانية تحديد مراحل عامة فى تطور الثقافات، فقد نجح فى تلاشى هذه المشكلة عندما أوضح أنه بدلا من الاهتمام بثقافة معينة أو بأخرى، يلزم إسقاط الملامح المميزة للبيئة المعينة والنظر إلى ما تتصف به جميع المجتمعات نظرا للتأثير الذى تمارسه البيئات والثقافات المختلفة بعضها على البعض الآخر.

وهكذا تبدو نظرته الكلية الشاملة التى تؤكد على الثقافة ككل فى مقابل تلك الاتجاهات الميكروسكوبية ذات النظرة المحدودة التى تؤكد على الخصوصية التاريخية لكل ثقافة على حدة. وإن لم يكن معنى هذا أنه تجاهل هذه الخصوصية. وإنما هو اعتراف بأنه ثمة احتكاك أو ما يطلق عليه الانتشار المتحول -Modified dif

fusion الذى تعزى إليه مظاهر التماثل فى وجود حياة الجماعات المتباعدة كنتيجة للاقتباس الثقافى بين هذه الجماعات.

ومع أن هذا الموقف لا يخلو بدوره من الميل إلى ما يذهب إليه السيكولوجيون الذين يقولون بأن هناك وحدة سيكولوجية هى التى تجعل الجماعات المتباعدة تستجيب للتأثيرات المتماثلة بطريقة متشابهة، فإن الأهم من ذلك هو ما يقرره تشايلد من أن الاختراعات ليست مجرد استجابة للحاجات الانسانية سواء أكانت حاجات بيولوجية أم سيكولوجية، وإنما هى نتيجة اقتران العديد من الأفكار، وقيام الذهن بربطها مما يؤدى إلى ظهور مركب جديد قد يكون بدوره حافزا لمقابلة احتاجات أخرى ناتجة عن هذا المركب الابتكارى الجديد. مما يؤكد فى النهاية أهمية الدور الذى يقوم به الاحتكاك والاقتباس الثقافى فى انتشار الأفكار والمفاهيم والأساليب التى تتعامل بها الجماعات والمجتمعات مع بيئاتها المختلفة.

• قراءات مقترحة •

Works: Skara Brae. 1931.

The Origin of Neolithic Culture in Northern Europe. 1949.

• وانظر أيضا:

- Evans. J. A. S: Redating Prehistory in Europe. "Archaeology". 1977.
- Hadingham. Evan, Secrets of the Ice Age, 1980.
- Mendelssohn, Kurt; The Riddle of the Pyramids. 1974.
- Renfrew, Colin: Before Civilzation: the Readiocarbon Revolution and Prehistoric Europe. 1973.
- Thom, Alexander, Megalithic Sites in Britian. 1967.
- Wilson. David, Science and Archaeology. 1978.

★ ★ ★

٤٠ - تشومسكى، نعوم

40 - CHOMSKY, (Avram) Noam

يعتبر أفرام نعوم تشومسكى بأكثر من مقياس نقطة تحول جذرى فى الدراسات اللغوية، وبخاصة منذ أن أقدم على نشر كتابه الرائع «التراكيب النحوية» Syntactic Structures فى عام ١٩٥٧. وهو الكتاب الذى سعى فيه إلى توضيح ملامح منهجه الجديد فى دراسة اللغة ونظريته الخاصة فى طبيعة وكيفية اكتسابها مما اعتبر ثورة لغوية من وجهة نظر الكثيرين حتى من بين أولئك الذين قد يختلفون معه، حيث استطاع الكشف عن مدى ضحالة الكثير من الأفكار التى تبنتها الاتجهات السلوكية والبنيوية المسيطرة، وفتح بذلك آفاقا جديدة فى دراسة اللغويات وهى الآفاق التى تأكدت من خلال نظرته إلى اللغة كنظام مفتوح، وذلك فى ضوء تمييزه المنهجى الأساسى الذى وضعه بين ما أطلق عليه «ملكة اللغة» Competence و«الأداء» Performance.

ولقد دخل تشومسكى ميدان دراسة اللغة متأثرا فى البداية باهتمام أبيه وهو أستاذ يهودى كانت تجذبه اللغويات التاريخية على وجه الخصوص. ومع أنه قد شغف منذ وقت مبكر من حياته بالمواقف والاتجاهات السياسية الراديكالية إلا أنه نجح فى شق طريقه ممازجا بين حياة سياسية حافلة وعمل أكاديمى لامع. فقد درس الرياضيات والفلسفة فى جامعة بنسلفانيا Pennsylvania ولكنه بتأثير من أستاذه زيلنج هاريس Harris بدأ ينجذب نحو دراسة اللغويات وخاصة أنهما كانا يتشاركان فى كثير من وجهات نظرهما السياسية.

ولقد ولد تشومسكى فى السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٢٨ فى فيلادلفيا Philadelphia بالولايات المتحدة الأمريكية. ويبدو أن اهتماماته المبكرة بالعبرية

الحديثة والتى ظهرت بوضوح أثناء تحضيره للدكتوراه عن «التحليل التحويلى» Transformational Analysis كانت تشبع فيه الجانب الفلسفى فحسب أكثر منه البحث اللغوى ذاته. لأنه بعد حصوله على الدكتوراه فى عام ١٩٥٥ شرع على الفور فى تدريس اللغويات الحديثة. ولم يشرع فى تطوير نظريته فى النحو التوليدى Generative Grammer إلا عندما اشتغل زميلا باحثا فى جامعة هارفار ثم بعد ذلك فى معهد ماساشوستس Massachusetts للتكنولوجيا. وهى النظرية التى حققت له شهرة عالمية وهو بالكاد فى الأربعين من عمره. ذلك بالرغم من أنه كان قد نال درجة الأستاذية منذ عام ١٩٦١ وأصبح استاذا متميزا فى ١٩٦٦ ثم استاذا وباحثا رئيسيا فى المعهد فى ١٩٧٦.

ومن المألوف تماما أن يتحدث الباحثون عن الثورة التى أحدثها تشومسكى فى النظرية اللغوية، وبخاصة فى سياق اللغويات البنيوية الأمريكية على اعتبار أنها ثورة على كل ما هو مألوف وتقليدى. ولكن الأهم من ذلك تلك الدوافع التى حدت بالمدرسة التوليدية فى علم اللغة والتى قامت على أنقاض المدرسة البنيوية وكان تشومسكى مؤسسها الأول - إلى المناداة برؤيتها إن لم يكن موقفها الجديد من اللغة. وإذا تجاوزنا تلك المرحلة الباكرة من مراحل البحث اللغوى والتى كان الاهتمام فيها - ربما منذ اكتشاف اللغة السنسكريتية فى نهايات القرن الثامن عشر - منصبا على الدراسات المقارنة بين اللغات للتعرف على تلك اللغات التى توحى بنيتها ومفرداتها وأنظمتها الصوتية أنها تكون فيما بينها عائلة لغوية واحدة، بالإضافة إلى الاهتمام بدراسة التطور التاريخى للغات، فإننا نلتقى بالمنهج البنيوى فى علم اللغة الذى يعتبر عالم اللغة السويسرى الجنسية فردينان دو سوسير مؤسسه الأول بلا جدال، وذلك فى ضوء تمييزه الأساسى بين اللغة Language والكلام Parole.

ولقد وجد تشومسكى هنا أول نقاط الضعف التى تشوب المنهج البنيوى، فقد اعتقد البنيويون أن الهدف الأساسى الذى يسعى إليه البحث اللغوى هو دراسة وتحليل اللغة كما يستعملها الناس فى وقت معين ومكان معين، وفى هذا فتعتبر

الأسبقية المطلقة للكلام أحد المفاهيم الأساسية والراسخة فى البحث اللغوى البنيوى؛ ولذا فإن المادة العلمية التى يقوم عالم اللغة بتحليلها هى النص اللغوى أى ما يقوله الناس.

ولكن ما يراه تشومسكى هو أنه على الرغم من مظاهر النجاح التى لقيها هؤلاء ومعهم السلوكيون عموما وهم يهتمون بالتفسيرات والشروح السلوكية والميل إلى إقامة البناءات اللغوية والنحوية، فإن على عالم اللغة أن يتحول من مجرد وصف ورصد الظواهر اللغوية إلى العناية بتقديم تفسير عميق للظواهر الدالة. أى البحث عن المبادئ التفسيرية التى تنفذ إلى عمق الظواهر الدالة، ويكون معنى هذا أن هدف البحث اللغوى لابد إذن أن يكون وصف المعرفة اللغوية وليس السلوك اللغوى. وخاصة أن النص اللغوى كثيرا ما لا يكون تعبيرا أمينا عن المعرفة اللغوية وليس السلوك اللغوى. وتلك فى الحقيقة هى الفكرة المحورية التى أقام عليها تشومسكى نحوه التوليدى بأكمله حيث إن مجرد دراسة النص مما لا يفيد عالم اللغة كثيرا، كما أن تحليل البنية السطحية (أى ما يقال) لا يفسر كثيرا من الظواهر اللغوية، ولذا يصبح من المتعين لأجل تحقيق فهم أكبر بالظواهر اللغوية أن يتجاوز عالم اللغة هذه البنية السطحية أو الظاهرية إلى البنية العميقة أو يغوص إلى ما وراء النص بتعبير آخر.

فى داخل هذا الإطار ذهب تشومسكى إلى أن مسألة الاكتساب اللغوى Language Acquisition تمثل أحد الأهداف الرئيسية للنحو التوليدى. ويقصد بذلك تلك العملية بالذات التى يستطيع بها الطفل إدراك لغة مجتمعه أو لغته القومية أو اللغة الأم كما يصفها البعض، وأن يتمكن من هذه اللغة بشكل طبيعى ييسر له التفاعل والتعامل السليمين مع الآخرين.

ولقد آثار تشومسكى العديد من الأسئلة بصدد هذه المسألة؛ مثال ذلك: هل الأطفال مهيؤن بشكل فطرى لاكتساب لغة واحدة بذاتها أكثر من لغة أخرى؟ وهل العملية التى يتم بها اكتساب الطفل للغته هى بالضرورة نفس العملية التى قد يتعلم بها الطفل بعض اللغات الأخرى فى مراحل مختلفة من حياته؟ وهل فى مقدور

الطفل أن يكتسب اللغة دون أن يكون هناك أية رابطة بينه وبين غيره من الأفراد، بمعنى أن يكون بعيدا تماما ومنعزلا كلية، عن تلك الظروف الطبيعية والعادية التى تستخدم فيها اللغة عادة؟ ثم، ماذا أيضا عن تلك العلاقات التى يقال بأنها موجودة وقائمة بين ذكاء الطفل ومعدل اكتسابه للغة الأم؟

وقد لا يكون من السهل أن نبرز هنا طبيعة موقف تشومسكى من كل هذه القضايا التى كانت مثار جدل طويل منذ ما قبل الأربعينات من القرن. ولكن المهم على أية حال، هو أنه رفض بشكل حاد الكثير مما انتهت إليه دراسات الاكتساب اللغوى التى سارت منذ البداية فى سياق بحوث النمو العام للطفل. كما رفض بوجه خاص تلك الآراء التى نادى بها سكينر Skinner فى كتابه «السلوك اللفظى» Verbal Behavior والذى كشف فيه عن اعتقاده بأن اللغة هى فى آخر الأمر عادة سلوكية يتم تعلمها بالطريقة ذاتها التى نتعلم بها عاداتنا السلوكية المختلفة. فقد لاحظ تشومسكى - بداية - أن مفهوم أو (لفظ) العادة هو مفهوم سيكولوجى بالدرجة الأولى؛ ولذا فلا يتم شرحه أو تفسيره والوقوف على طبيعته ووظيفته إلا من خلال سيكولوجية الجماهير بصفة خاصة. واللغة كما يراها تشومسكى أمر اجتماعى بالدرجة الأولى. أضف إلى ذلك أن القول بأن اللغة عادة اجتماعية سلوكية إنما يعنى أن سبيل اكتسابها هو التجربة والمحاولة والخطأ مما يضعنا بدوره فى قلب المقولة السيكولوجية من ناحية، وفى قلب معامل التجريب والاختبار من ناحية ثانية.

ومع أن هذه الانتقادات التى أثارها تشومسكى قد امتدت لتشمل آراء عدد آخر من العلماء من أمثال بيفر Bever وفودور Fodor مؤكدا بذلك وجهة نظره بأن نظريات التعلم التقليدية ليس لديها إلا القليل جداً الذى يمكن أن تقوله لفهم الاكتساب اللغوى، فإن الأهم من كل هذا أنه عبر عن موقفه فى ضوء التمييز الأساسى الذى قلنا من قبل أنه وضعه بين مصطلح الملكة Competence ومصطلح الأداء Performance.

ففى ضوء هذا التمييز أعلن تشومسكى قناعته الكاملة بأن اللغة ممثلة فى العقل على نحو غاية فى التجريد. وأن الأفراد يكتسبون اللغة على الرغم من أى ادعاء بأية وصاية أو ولاية مهما كانت ضئيلة أو شحيحة. فالمعرفة الأساسية باللغة يتم تعيينها وتحديدها بفطرة الإنسان، ومن ثم فإن كل الفرضيات والأحكام المتعلقة بقواعد التركيب Syntax والتى يمكن القول بأن الطفل قد يخترعها إنما هى أمور ممتنعة بسبب ميراثه الإنسانى الفطرى. وكذلك الحال بالنسبة إلى كل اللغات الموجودة فهى من طبيعة واحدة.

فكأن اللغة كما يراها تشومسكى هى إذن ظاهرة بالغة التعقيد على الرغم من كونها فطرية. فالطفل ليس كما زعم السلوكيون يولد وذهنه صفحة بيضاء، لأنه مزود بحكم فطرته وطبيعته الإنسانية بملكة اللغة، أو هذا الاستعداد الفطرى للغة.

أما هذه اللغة بالغة التعقيد فهى مع ذلك واحدة من حيث الجوهر البنائى والوظيفى معا فى كل مجتمع من المجتمعات. ولهذا فإنه يقول بأن هناك تلك «العموميات اللغوية» Linguistic Universals بمعنى القواعد والتراكيب والأشكال العامة التى لا تشذ عنها لغة من اللغات، ولكنها تصدق بالنسبة إلى جميع اللغات وتنطبق عليها كلها. وهو يصل بذلك إلى إحدى النتائج الرئيسية التى تقول بأنه لهذا كله يستطيع الطفل بسرعة استيعاب الأصوات النحوية والقواعد المختلفة التى يسير عليها الكلام الذى يسمعه من حوله، وبالتالى يستخدم هذه القواعد عند بنائه لبعض الأصوات التى ينطقها لأول مرة دون أن يكون قد سمعها من قبل.

والحقيقة أن هذه النظرية فى التراكيب النحوية أو نظرية التوليد النحوى كانت نغمة جديدة فى الدراسات اللغوية. وإذا كان أنصار هذه النظرية وفى مقدمتهم تشومسكى طبعا يعلنون صراحة أن عملهم الأساسى إنما يستهدف التشخيص الصحيح لملكة اللغة بمعنى تلك القدرات الفطرية المتوارثة فى الإنسان من حيث هو إنسان، فقد اعتبر هذا العمل ضربة عنيفة للغويات البنائية وعلم النفس السلوكى معا.

وقد لا نكون فى حاجة إلى تأكيد التأثير الذى مارسته هذه الأفكار على مختلف الدراسات والاتجاهات المهتمة بالبحث اللغوى ومسألة الاكتساب اللغوى على وجه الخصوص، ولكنها نجحت على أى الأحوال فى أن تثير من النقاش بين رجال الاجتماع والسيكولوجين والفلاسفة والمناطقة وعلماء اللغة أنفسهم الذى مازالت أصداؤه تتردد حتى الآن، خاصة مع توالى مؤلفات تشومسكى وكتاباته التى سعى بها إلى تطوير نظريته وتعميق قضاياها والتعريف بها والدعوة إليها.

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى كتابه «البناءات التركيبية» (١٩٥٧) فقد ظهر فى عام ٦٥ كتابه الفذ الآخر «أوجه نظرية السنتكس» Aspects of the Theory of Syntax، أعقبه مؤلفه «اللغويات الديكارتية» Cartesian Linguistics عام ١٩٦٦، ثم «النمط الصوتى للغة الإنجليزية» The Sound Pattern of English الذى قدمه عام ١٩٦٨ بالاشتراك مع موريس هال Halle، و«اللغة والعقل» Language and Mind الذى ظهر فى العام نفسه. وبعدهما «البناء المنطقى للنظرية اللغوية» The Logical Structure of Linguistic Theory عام ١٩٧٥ ثم «اللغة والمسئولية» Language and Responsibility عام ١٩٧٩، وهو كتاب تناول فيه على وجه الخصوص العلاقات المتبادلة بين اللغة والسياسة من خلال تاريخ الأفكار والعلم، وبغرض أساسى هو تأكيد نظريته فى النحو التوليدى.

وعلى العموم فقد يكون من المناسب هنا مادمنا قد أشرنا إلى هذه الناحية أن نقول بأن جانبا من شهرة تشومسكى قد تحقق بعيدا عن كتاباته المتخصصة فى اللغة، وأقصد بذلك كتاباته التى عبر بها عن مواقفه السياسية وبخاصة فيما يتعلق بمعارضته حرب فيتنام وتورط أمريكا فى الستينات والسبعينات فى هذه الحرب الخاسرة. فقد قام تشومسكى بإلقاء العديد من المحاضرات وكتب العديد من المقالات التى عبرت عن معارضته تلك، بالإضافة إلى تناوله لكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ولعل فى مقدمة هذه الكتابات «القوة الأمريكية والاستنزاف الجديد للعقل» American Power and the New Mandrains الذى قدمه عام ١٩٦٩ وكتابه «الاقتصاد السياسى للحقوق الإنسانية» The Plitical Economy of Hu-

man Rights الذى صدر فى جزءين عام ١٩٧٩. وكلها كتابات سعت إلى تأكيد ذاتية الفرد وإعلاء كرامة الإنسان فى كل مكان.

• قراءات مقترحة•

Works: At War With Asia, 1970.

; For Reasons of State. 1973.

; Remarks on Nominalization, in Jacobs & Rosenbaum 1969.

; Reflections on Justice and Nationhood 1974.

and Miller G. ; Introduction to the Formal Analysis of Language. in luce, Bush & Galanter 1963.

• وانظر أيضا:

- Hockett, C. f; The State of the Art . 1967.
- Lyons, John; Chomsky.1970.
- Piattelli - Palmarini, Massimo (ed); Language and Learning (The Debate between Jean Piaget and Noam Chomsky). 1980.

★ ★ ★

٤١ - كول ، فاى - كوبر
41 - COLE, Fay - Cooper

لا يعتبر عالم الأنثربولوجيا الأمريكى فاى كوبر كول حجة فحسب فى ثقافات القبائل والشعوب الملاوية Malayaia التى توجد فى بعض جزر المحيط الهادى الملاوية البولينيزية، ولكنه يعتبر أيضا واحدا من أهم المؤسسين لعلم آثار ما قبل التاريخ الحديث، وواحدا من العلماء الكبار الذين يرجع إليهم جانب كبير من الفضل فى التعريف بجوانب التطور الثقافى عن طريق كتبه ومؤلفاته التى اكتست بطابع شعبى جعلها شديدة الرواج بين مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية.

ولقد ولد كول فى بلانول Palinwell بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨١، وتخرج فى جامعة نورث وسترن Northwestern عام ١٩٠٣ وبعدها التحق بجامعة شيكاغو للدراسات العليا، ثم جامعة برلين ومنها إلى جامعة لندن التى حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩١٤.

وبالرغم من أن كول بدأ دراساته الحقلية فى شمال الفلبين وبخاصة فى ميندناو Mindanaw بتكليف من متحف البحوث الميدانية للتاريخ الطبيعى فى شيكاغو، فإن أولى دراساته الحقلية الهامة كانت عن «الفولكلور فى تنجاوانا» A Study of Tinguian Folkore، وهى دراسة تعتبر بمثابة حجر الزاوية فى ترسيخ شهرته معتمدا فى ذلك على المنهج الأثنولوجى المقارن، الذى استخدمه للمقارنة بين الثقافات القديمة التى تعكسها أساطير تينجوانا وأيضا ثقافتها المعاصرة، مع دراسة تحليلية للتغيرات التى طرأت على الانساق الفكرية القديمة والتقليدية وهى تخضع لعملية التطور.

ولم يمض وقت طويل بعد قيامه بهذه الدراسة حتى أصبح باحثا متخصصا فى اثنولوجيا الشعوب الملايوية Malayan Etnology والأنثربولوجيا الفيزيقية فى المتحف الميدانى.

ولكن عام ١٩٢٤ كان يمثل نقطة تحول أساسية فى اهتمامات كول. إذ التحق فى هذا العام بجامعة شيكاغو حيث التقى بإدوارد سابير Sapir وأيضا روبرت ردفيلد Redfield واشترك ثلاثتهم فى وضع وتنفيذ البرنامج الدراسى الجامعى فى الأنثربولوجيا الذى اعتبر طفرة واسعة فى تطوير هذا التخصص نظريا وعمليا. والواقع أنه منذ ذلك الحين أخذ كول يحاضر كما يقوم بتدريس كل التخصصات والفروع التى تتصل بالأنثربولوجيا اتصالا وثيقا باستثناء اللغويات Linguistics التى ارتبطت باسم إدوارد سابير.

ولقد تابع كول دراساته الحقلية بعد ذلك بنشاط ملحوظ، حيث أشرف على بحث أركيولوجى فى الينوى Illinois، وهى مرحلة ظهرت فيها على أى الأحوال اهتماماته العميقة بتطوير دراسات وبحوث ماقبل التاريخ وبخاصة فى المناطق الوسطى والغربية، ونجح من خلال هذا فى تقديم العديد من التكنيكات الوصفية والتصنيفية التى استخدمها بنجاح فى دراسته لوادى المسيسيبى Mssissippi، وظل مشدودا إلى هذه الاهتمامات حتى بعدما أصبح أستاذا متفرغا عام ١٩٤٨ (توفى كول فى ١٩٦١ فى سانتاباربر Santa Barbare بكاليفورنيا).

وقد ترك كول مجموعة من الكتب والمؤلفات وعددا ضخما من المقالات العلمية التى تناولت التطور الثقافى والاجتماعى. ويعتبر كتابه «الطريق الطويل من التوحش إلى الحضارة» The Long Road From Savagery to Civilization الذى ظهر عام ١٩٣٣ فى مقدمة هذه الأعمال الهامة. وكذلك كتابه الذى أصدره بالاشتراك مع مابل كوك كول Cook Cole تحت عنوان «قصة الإنسان» The Story of Man فى ١٩٣٧، والكتابان معا يعكسان الكثير من آراء ومواقف الاتجاه التطورى بتياراته المختلفة، ولكن بعد تعديلها، إضافة إلى الاستعانة بالمعلومات التاريخية والأثرية فى محاولة لإعادة بناء التاريخ الحضارى للإنسانية وتعيين المراحل التى مرت بها من

منظور يمكن القول بأنه يبتعد بشكل ملحوظ عن التطورية الكلاسيكية التى قادها تايلور ومورجان وغيرهما فى القرن التاسع عشر مما جعله أقرب إلى التطورية المحدثة التى تعتبر فى جوهرها امتدادا لبعض تيارات التطورية التقليدية مع اختلاف فى التفاصيل.

★ ★ ★

٤٢ - كولمان، جيمس صامويل

42 - COLMAN , James Samuel

لا يعتبر عالم الاجتماع الأمريكى جيمس صامويل كولمان فحسب واحدا من رواد علم الاجتماع الرياضى الذين أضافوا بأعمالهم وبحوثهم إلى الاتجاهات الحديثة فى الاستعانة بالطرق الكمية والإحصائية لفهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها والاعتماد على قياس الاتجاهات وتصميم المقاييس، ولكنه يعتبر كذلك واحدا من الذين قاموا بدور كبير فى بلورة شخصية علم الاجتماع السياسى، ومارست كتاباتهم تأثيرا متزايدا على العلوم والدراسات السياسية حتى أصبحت علامة مميزة على زيادة التأثير الاجتماعى فى هذا المجال، الأمر الذى يرجع بالدرجة الأولى إلى قدرته الفائقة على الاستعانة بالطرق التفسيرية والنماذج والأطر التصورية والإجرائية فى فهم الظاهرة السياسية والسلوك السياسى فى علاقاتهما المتشعبة على ما يظهر بصفة خاصة فى كتابه الشهير الذى ألفه بالاشتراك مع جابرييل آلموند Almond بعنوان «سياسات المناطق النامية» The Politics of Developing Areas (١٩٦٠).

ولقد ولد كولمان فى بدفورد Bedford بأنديانا، وتلقى تعليمه فى جامعة بيردو Purdue (١٩٤٩). ونال درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٥ كما عمل باحثا مساعدا فى مكتب البحث الاجتماعى التطبيقى Bureau of Applied Social Research وهو العمل الذى استمر فيه لمدة عامين من ٥٣ إلى ١٩٥٥. وهى فترة خضع كولمان خلالها لتأثير بول لازرسفلد Lazarsfeld الأمر الذى يظهر فى أسلوب اقترابه وتناوله للمشكلات وفى طريقة التفكير فيها وكيفية اختيار البدائل المطروحة لحلها. وهو تأثير من السهل ملاحظته فى عدد من أعماله التى ظهرت فى مراحل

مختلفة على ما نجد فى كتابه «مقدمة لعلم الاجتماع الرياضى» Introduction to Mathematical Sociology (١٩٦٤)، و«رياضيات الفعل الجمعى» Mathematics of Collective Action الذى ظهر فى ١٩٧٣، وأيضا كتابه «التحليل الطولى (الرأسى) للمادة والمعلومات» Longitudinal Data Analysis (١٩٨١)، وبعد ذلك كان زميلا لمدة عامين ٥٥/ ٥٦ فى مركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية فى بالو آلتو Palo Alto بكاليفورنيا. ثم عمل أستاذا مساعدا لعلم الاجتماع فى جامعة شيكاغو فى الفترة من ٥٦ إلى ١٩٥٩، ثم استاذا فى قسم العلاقات الاجتماعية بجامعة جون هوبكنز John Hopkins من عام ١٩٥٩ إلى ١٩٧٣ ليعود مرة ثانية إلى شيكاغو كأستاذ وباحث فى المركز القومى لبحوث الرأى National Opinion Research Center الذى يعتبر مناظرا لمكتب البحث الاجتماعى التطبيقى بجامعة كولومبيا.

ولاشك فى أنه كان للمدخل السلوكى الذى نمى بشكل مطرد وسريع فى جامعة شياغو خلال فترة الثلاثينات دوره فى الأثر الذى مارسه علم الاجتماع فى ميدان الدراسات السياسية، وبالرغم من أن توافد الباحثين والدارسين من أوربا قد ساعد فى دعم هذا المدخل وإن يكن من خلال توجهاتهم الأيديولوجية السائدة فى القارة والتى تنحدر أساسا من ترا ث روبرت ميتشيلز Michels وماكس فيبر Weber، فإن تزايد التأثير السوسيولوجى أخذ يتجه اتجاهات خطيرة فى السنوات الأخيرة بفعل كتابات كولمان التى عكست بعض المواقف التى تظهر فيها بشكل واضح استعارة النماذج والإجراءات من الاتجاه الوظيفى وبخاصة استخدام فكرة النسق الاجتماعى من ناحية، وربما قدر غير قليل من الإحياء لبعض الأفكار الاجتماعية فى النظرية الماركسية التى ألهمتها الحركات الثورية فى الدول النامية على وجه الخصوص، من ناحية ثانية علي ما يظهر بصفة خاصة فى كتابه «نيجيريا: خلفية للقومية» Nigeria: Background to Nationalism (١٩٥٨).

ويمثل كتابه «الديمقراطية الاتحادية» Union Democracy الذي صدر فى ١٩٥٦ بالاشتراك مع ترو M. Trow وسيمور ليبست Lipset هذا الاتجاه أفضل تمثيل حيث ناقش فيه المشكلات السياسية والاجتماعية التى صاحبت انتشار

وتزايد أعداد ونفوذ النقابات العمالية والاتحادات وتنظيمات ومؤسسات أصحاب الياقات البيضاء فى سعيها للسيطرة على الاتحادات وإخضاعها لنفوذها.

كذلك تعتبر كتاباته التى اهتم فيها بمناقشة مشكلات الشباب ومشكلات التربية والتعليم وبخاصة فى المجتمعات الصناعية الحديثة، وبالتالى تأثير العوامل البيئية والعوامل الثقافية والمكتسبة فيما يتعرض له الشباب أثناء مراحل نموه المختلفة من أمتع الكتابات فى الموضوع، وأفضل مثل لذلك كتابه «المجتمع المراهق» The Adolescent Society (١٩٦١)، وكذا كتابه «نماذج للتغير والاستجابة القلقة» Models of Change and Response Uncertainity ١٩٦١، وأيضا كتابه «المراهقون والمدارس» Adolesents and Schools (١٩٦٥) وكتابه «الشباب: الانتقال إلى مرحلة الرجولة» Youth: Transition to Adulthood فى ١٩٧٣، وكلها كتابات تثير الكثير من المناقشات حول المسائل والقضايا التى تزعج المجتمعات المعاصرة، وربما يتكامل مع هذه الاهتمامات كتابه بعنوان «موارد للتغير الاجتماعى» Rescources For Social Change (١٩٧٣)، و«المساواة وفرص التربية والتعليم» Equality and Educational Opportunity الذى نشر فى صورة تقرير قدمه ونفر من زملائه لإدارة التربية والتعليم بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٦٦. وهو تقرير يكشف عن الفوارق فى مستويات الذكاء والتحصيل والأداء بين التلاميذ والأطفال الذين ينتمون إلى الجنسيات المختلفة وبخاصة الأطفال من السود والبيض والهنود الأمريكيين. وقد كان للكثير من النتائج التى توصل إليها البحث وتضمنها التقرير من الدلالات التى تكشف عن دور البيئة وفرص التعليم المتاحة فى ابراز هذه الفوارق وتعميقها، والتى لم تفلح الجهود التى تبذلها الحكومات للتخفيف من حدتها، ربما نزولا على السياسات العامة ولكنها تهدم من الأساس وجهة النظر التقليدية القائلة بأن العنصر يعتبر عاملا محددا لمستويات الذكاء والخصائص الذهنية بين الجماعات الإنسانية. وقد عاد إلى إثارة هذه المشاكل والموضوعات ذاتها تقريبا فى الثمانينات فى كتابه «المجتمع اللامتناسق» The Asymmetric Society وكتابه «إنجاز المدارس الثانوية» High School Achievement اللذين صدرا فى عام ١٩٨٢.

• قراءات مقترحة •

- Colin. leys; Politics and Change in Developing Countries. 1969.
- Crick, Bernard; the American Science of Politics. 1959.
- Easton, David; A System's Analysis of Political life. 1965.
- Euliu, Heinz; The Behavioral Persuation in Politics. 1967.
- Worsley, Peter; The Third World. 1967.

★ ★ ★

٤٣ - كون، كارلتون ستيفنز
43 - COON, Carleton (Stevens)

يشتهر عالم الأنثربولوجيا الأمريكى كارلتون ستيفنز كون بتشعب اهتماماته واتساع نطاقها وتنوعها، الأمر الذى جعله لا يتمتع فحسب بمكانة مرموقعة كأستاذ متخصص له إسهاماته الضخمة وخاصة فى الأنثربولوجيا الثقافية والطبيعية، ولكن يتمتع أيضا بتقدير زائد نظرا لبحوثه ودراساته التى تترواح من الاهتمام بآثار ما قبل التاريخ إلى دراسة المجتمعات الصغيرة إلى المجتمعات الكبيرة المعاصرة، وكذلك المجتمعات القبلية وبخاصة تلك التى توجد فى الشرق الأوسط وبتاجونيا Patagonia والهند، علاوة على دراساته لمجتمعات الحدود والبناءات الهامشية.

ولد كون فى عام ١٩٠٤ فى واكفيلد Wakefield بولاية ماساشوستس Massa-chusetts بالولايات المتحدة الأمريكية، وعمل بجامعة هارفارد التى حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩٢٨ من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٤٨، أما أثناء الحرب العالمية الثانية فقد عمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية فى أفريقيا ثم التحق فى ١٩٤٨ بكلية جامعة بنسلفانيا وأصبح محاضرا فى الأثنولوجيا بجامعة المتحف University Museum فى فيلادلفيا وظل يجمع بين المنصبين حتى عام ١٩٦٣.

جذبته منذ البداية مشكلات مجتمعات الحدود أو البناءات الهامشية، فقدم فى عام ١٩٣١ كتابه «قبائل الريف» Tribes of the Rif. ومع ذلك فإن شهرته ترتبط أساسا بكتاباته التى تناول فيها مشكلات التكامل الثقافى بالإضافة إلى دراساته عن الأجناس والسلاسلات، وهى الاهتمامات التى ركز عليها بداية من الخمسينات.

ففى عام ١٩٥٠ نشر بالاشتراك مع جارن Garn وبيردشل Birdsell دراسته الشهيرة فى الأجناس التى تناول فيها بالدراسة والتحليل ٣٠ جنسا من مختلف

مناطق العالم. وقد جاءت هذه الدراسة تحت عنوان له دلالته هو «الأجناس: دراسة لمشكلات تكوين الأجناس بين البشر» Races: A Study of the Problems of Race Formation in Man حيث اعتمد بشكل واضح على المعيار التقليدى للنمط الفيزيقى. وذهب إلى أن الجنس Race أو العنصر ليس شيئا جامدا لا يتغير، وإنما هو مرحلة فى عملية يتم بها تكيف الجنس البشرى للظروف الخاصة التى يمر بها.

وبالرغم من أن النظرة السائدة للأجناس كانت تعتمد إلى حد بعيد على التقسيم الذى اشتهر به بويد Boyd الذى ميز بين خمسة أجناس رئيسية هى الجنس الأوربى أو القوقازى Caucasiod والجنس الأفريقى (النيجرو) Negroid والجنس الآسيوى أو المنغولى Mongoloid والهنود الحمر Americans Indians والجنس الجنوبى أو الأسترالى Australoid، فقد ذهب كون وزملاؤه إلى أن بعض هذه الأجناس الثلاثين مثل الأمريكيين الملونين والملونين فى جنوب أفريقيا والسكان المولدين بجزر هاوى تمثل كلها نماذج شيقة للأجناس التى مازالت فى بدايات التكوين.

ولعل الشىء الطريف هنا أن يربط كون فى تقسيمه هذا بين الخصائص الوراثية وبين أشكال الأنساق والنظم التكنولوجية التى يتم ابتكارها. فنزولا على مقولته الأساسية التى تؤكد استحالة أن يعيش أى مجتمع دون إحداث نوع من التكيف مع بيئته نجده فى كتابه الذى أصدره بالاشتراك مع شابل Chapple تحت عنوان «مبادئ الأنثربولوجيا» والذى ظهر عام ١٩٤٧ يميز بين أربعة عناصر أساسية تتضمنها أية وسيلة أو تقنية من التقنيات، وهى شكل الأداة Type of implement، ونوع العملية، ومصدر الطاقة، وطبيعة التفاعل الاجتماعى الذى تتطلبه هذه التقنية.

وبالرغم من أن هناك العديد من الدراسات التى سعت إلى ربط المجتمعات المختلفة بأنواع بذاتها من التقنيات فإن ما يؤكده كون هو قدرة المجتمعات المختلفة على استيعاب مختلف التقنيات إذا ما توافرت الظروف المادية والعلمية لذلك، وهو بذلك يدحض النظرة العنصرية التى تقول بأن ثمة فوارق سيكولوجية فطرية بين الأجناس، والدعاوى التى تعلى من شأن العوامل الفطرية فى التطور والتى ذهبت

ضمن ما ذهبت إليه إلى أن الأفارقة والسود عموما أقل قدره على استيعاب التطورات الحديثة أو الإضافة إليها.

ولقد توالت مؤلفات كون وكتاباته خلال الخمسينات وحتى أواخر السبعينات فى الاتجاهات نفسها التى قلنا أنها تجذبه إليها. ففى نفس العام (١٩٥١)، ظهر كتابه الممتع «القافلة: قصة الشرق الأوسط» Carvan the: Story of The Middle East ومن بعده «قصة الانسان» The Story of Man (١٩٥٤) و«الكهوف السبعة» The Seven Caves فى ١٩٥٧، و«شعوب الصيد» The Hunting Peoples (١٩٧١)، بالاضافة إلى كتابه الذى نشره فى أواخر السبعينات عن الأجناس الأوربية The Races of Europe (١٩٧٨).

وبالرغم من أن هذه الكتابات تعطى صورة واضحة عن مدى تشعب اهتماماته بمسيرة الإنسان وتطوره الحضارى وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط التى اهتم بها اهتماما خاصا، حتى بدت بعضها وكأنها دراسات مستفيضة لتاريخ علم آثار ما قبل التاريخ (الأركيولوجيا) فى المنطقة، فإن كتابه «القافلة» يظل مع ذلك واحدا من أمتع الكتب وأعظمها التى تناولت موضوع تكامل الثقافة فى الشرق الأوسط. ففى هذا الكتاب ينظر كون إلى الشرق الأوسط على أنه مجتمع كلى تتكامل ثقافته فى ضوء تكامل أجزائه وتناسقها. فالمنطقة كما يرى تنقسم وظيفيا واستنادا إلى مبدأ تفسيم العمل إلى بدو وسكان حواضر وفلاحين وسكان مدن باعتبارها الأنماط الرئيسية الواضحة.

والنقطة الرئيسية التى سعى كون إلى إبرازها تتعلق بنظرته إلى البدو على وجه الخصوص حيث نجده يقسمهم إلى أنماط بذاتها منها نمط البداوة الخالصة ومنها أنماط البداوة الهامشية التى يصفها بأنها تلك التى تقع على الحدود حيث تصبح موقعا للامتزاج الثقافى والبنائى معا نتيجة توافد عناصر ثقافية بعضها من شمال أفريقيا وبعضها الآخر من مختلف الثقافات التى توجد وتتعايش فى حوض البحر المتوسط مما يكسبها فى النهاية طابعا ثقافيا له خصوصيته التى يتفاعل فيها القديم والتقليدى مع الجديد والحديث بما يؤثر بالتالى فى بناءاتها ونظمها

بما يجعلها أقدر على التكيف ومواجهة مشكلات الاحتكاك الثقافى عموما باعتبارها جسورا ثقافية تتبادل الأخذ والعطاء بما يحافظ على وجودها.

● قراءات مقترحة●

- Boyd, W. C.; Genetics and Races of Man. 1950.
- Dobzhansky, Th.; Mankind Evolving. 1962.
- Herskovits, M. J; Man and His Works. 1948.

★ ★ ★

٤٤- كوزر ، لويس

44 - COSER, Lewis

على الرغم من تردد القول بأننا ما زلنا فى حاجة إلى نظرية عامة فى الصراع وهو قول ينطوى بلا شك على غير قليل من الصحة ، فقد أسهمت كتابات كوزر فى بلورة بعض الاتجاهات التى أبرزت ضرورة ذلك . ففى مقدمته التى كتبها لمؤلفه الشهير «وظائف الصراع الاجتماعى» Functions of Social Conflict (١٩٥٦) لاحظ كوزر أنه على الرغم من أن علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل من أمثال ألبيون سمول Small وتشارلس كولى Cooley وجورج جريهام سمنر Summner قد عرفوا أهمية الصراع الاجتماعى ، بل وجعلوا له قيمة إيجابية ، فإن علماء الخمسينات من القرن لم يعطوا الموضوع سوى جانب ضئيل من اهتمامهم. وحتى عندما تناولوه فإنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه ظاهرة لها آثارها السلبية التى تؤدى إلى التفكك والتمزق الاجتماعيين. ومع أن هذا لا يعنى فى ذاته أن ميدان الدراسات الاجتماعية كان خلوا من الدراسات التى تتناول الصراع الاجتماعى فإن الإحياء الحقيقى لجهود هؤلاء الرواد الأوائل لم يحدث إلا فى منتصف الخمسينيات مع انتباه علماء الاجتماع إلى دلالة الصراع وأهميته فى ضوء المتغيرات الايديولوجية والسياسية والثقافية التى شهدتها الساحة العالمية إبان هذه الفترة وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية والتى تميزت بتنامى الحركات الثورية والاتجاهات التحريرية ، وبأشكال المواجهة بين مختلف التكتلات والنظم على السواء .

وهناك مجموعة من الملاحظات تظهر بوضوح فى تناول كوزر السوسيولوجى لموضوع الصراع، فمن الواضح – وهذا من ناحية – أن كوزر قد انطلق فى دراسته للصراع من ثنايا الموقف العام الذى يتخذه الوظيفيون من الصراع والذى يتسم بغير

قليل من التجاهل عند الرغبة فى تحديد أبعاده الإيجابية. إذ نجده يسلم ببعض المسلمات الوظيفية التى تربط بين حدوث أى تغيير فى جانب من جوانب البناء أو وظائفه وتأثير ذلك فى سائر وظائف وعناصر و مكونات البناء على السواء. وبالرغم من أن هذا المدخل قد يوحى بأنه يهتم أساسا بمعرفة الأسباب البنائية للصراع فالملاحظ أن التركيز على وظائف الصراع وإبراز آثاره هو الذى حظى بمزيد من اهتمامه وعنايته وربما كان ذلك راجعا إلى أن دراسة آثار الصراع تبدو أسهل من التعرف على أسبابه ودراسة هذه الأسباب.

أما الملاحظة الثانية فهى أن نظريته فى الصراع لم تأت فى ضوء دراسات إمبريقية أو حتى بناء على معطيات تاريخية رغم أهمية هذا ، ولكنه اعتمد أساسا على قراءته للتراث الذى تعرض للموضوع، وبخاصة كتابات جورج زيميل Simmel وتولكوت بارسونز Parsons بل ويمكن القول أكثر من هذا أنه بذل جهدا كبيرا فى محاولة التقريب بين أفكار زيميل والأفكار والتوجهات الوظيفية بعامة . حيث إنه أبرز - وهذا من ناحية - الوظائف الاجتماعية للصراع متأثرا بجورج زيميل على الرغم من أن كتاباته ورؤيته كانت كتابات ورؤية تحليلية ركزت على إبراز الجوانب السلبية والسيئة . كذلك ظهر - وهذا من ناحية أخرى - مدى تأثره ببارسونز وبخاصة فى محاولة تصنيف الصراع وتعيين أنماطه وأشكاله وفقا لدرجة انتظامه المعيارى Normative فى داخل النسق الاجتماعى ، حيث أخذ يميز بين نوعين من الصراع الأول نظامى بمعنى أن النسق يتقبله ويتمثله بل ويوزعه بين عناصره ومكوناته . والثانى غير مصاغ نظاميًا أو هو صراع لا وظيفى بمعنى أنه يعوق النسق عن أداء وظائفه الاجتماعية . ولا شك فى أنه تظهر هاهنا مشابهة فكرة النسق كما نجدها عند بارسونز ، وهى فكرة توضح دور الصراع فى داخل الأنساق وفيما بينها وخاصة عندما يذهب إلى أن الصراع يسهم فى إعادة التكييف الاجتماعى للأعضاء وفى إعادة التوازن فى داخل الكل الاجتماعى .

وبالرغم من أنه قد وجه لبارسونز العديد من الانتقادات فإن المثير للدهشة أنه تظهر عنده المفهومات والتصورات الوظيفية نفسها مثل مفهوم القيمة والمعيار

وصمام الأمان والصياغة النظامية، وكذلك مفهومات الوظائف الكامنة والوظائف المعوقة بالإضافة إلى مفهوم التوازن الذى يعتبر مفهوما محوريا لدى الوظيفيين. ولقد عبر كوزر نفسه عن هذا الاتجاه بقوله « إن الصراع يساعد دائما على تنشيط المعايير الاجتماعية واستثارتها وتدعيمها . بل إنه قد يؤدى إلى ظهور معايير اجتماعية جديدة، وبهذا فيعتبر الصراع أداة أو ميكانيزما يضمن تكيف المعايير مع الظروف الجديدة ويستطيع المجتمع من ثم أن يستفيد من الصراع ، ذلك لأنه بفضل إسهامه فى خلق معايير جديدة وتعديل المعايير السائدة يستطيع أن يضمن استمراره وبقاءه فى ظل الظروف المتغيرة » .

كذلك يلاحظ - وهذا من الناحية الثالثة - أنه بالرغم من تأثر معالجة كوزر للصراع بكثير من أفكار كارل ماركس ، حيث استعان بتصوره الذى يرى أن الصراع لا يغير العلاقات البنائية للمجتمع ، ولكنه يسهم فى إعادة تشكيل هذا البناء وإحلال تكوين اجتماعى اقتصادى آخر ، فقد كان معظم اهتمامه منصبا على ابراز الصراع كعملية اجتماعية ضرورية لفهم العلاقات الاجتماعية، أى كعملية من عمليات التفاعل الاجتماعى كما اعتبرها نضالا حول القيم والمكانات ومصادر القوة تسعى فيه الأطراف المختلفة إلى إبعاد أو إزاحة بعضها للبعض .

ومن الواضح هنا أن رؤيته لكيفية حل الصراع إنما تعكس ايديولوجية وظيفية، وإيمانا بأهمية الاتفاق بين الأطراف أو خضوع الأطراف للقوة الأكبر، أو على الأقل إمكانية أن تقوم الأطراف بعملية استبدال لأهدافها؛ لأنها فى هذه الحالة لا تسعى إلى الوصول إلى حل معين لموقف معين لا يلائمها بقدر ما تسعى إلى إزالة التوتر الذى يحدثه هذا الموقف، وهذا بدوره منظور لا يخلو من ملامح وظيفية، وخاصة وأنه كثيرا ما استخدم مفهوم العنف بدلا من مفهوم الصراع وكأنهما مفهومان متكافئان.

وعلى العموم فإن الاستقراء السليم لكتابات كوزر وبخاصة تلك التى كتبها مؤخرا وفى مقدمتها «رجال الأفكار : رؤية عالم اجتماع» Men of Ideas: A Sociologist's View (١٩٧٠) وأيضا كتابه «أقطاب الفكر الاجتماعى : أفكار فى

السياق الاجتماعى والتاريخى» Masters of Sociological Thought: Ideas in historieal and Social Ccontext الذى قدمه عام ١٩٧١ إنما يؤكد بشكل مباشر أو غير مباشر على استمرارية، شكل معين فحسب من أشكال الصراع هو الصراع السياسى وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن كان يرى أن معظم هذا الصراع سوف يظل محصورا فى داخل حدود ضيقة الأمر الذى يصعب التأكد من حتمية وقوعه على النحو الذى يذهب إليه . فبالرغم من أن ظهور بعض المواقف والاتجاهات الراديكالية لدى بعض المثقفين خليق ببلورة مواقف صراعية لعلها تكون أكثر حسما، فإن تحليله لكيفية مواجهة السلطة لهذه الاتجاهات والمواقف ينبئ عن اتجاه نحو زيادة استغراق المثقفين واستدماجهم داخل الأقسام المختلفة للمؤسسة أو النظام ، بمعنى أن هناك عملية جارية لمأسسة الصراع، وبالتالى إذابة الدور الثورى والأشد تأثيرا للمثقفين ، على الأقل كما نجده فى بعض الكتابات الأخرى وكأنها النهاية المؤكدة لهذا الدور بتعبير آخر .

• قراءات مقترحة•

- **Works**: Georg Simmel (Volume of Essays), 1967.

• وانظر ايضًا :

- Bernard, Jessie; The Theory of Games of Strategy as a Modern Sociology of Conflict. A. J. S. Lix. 5. 1954.
- UNESCO; The Nature of Conflict. 1957.



٤٥ - كروتشة، بنيديتو.

45 - CROCE, Benedetto

يحلو للبعض من مؤرخى الفكر الاجتماعى أن يشيروا دائما إلى أن بنيديتو كروتشة العالم والفيلسوف الإيطالى قد ولد بعد توحيد إيطاليا بخمس سنوات وأنه توفى بعد سقوط موسولينى Mussolini بتسعة أعوام. وأنه على مدى حياته التى طالت لستة وثمانين عاما قد مارس تأثيرا طاغيًا على مختلف جوانب الثقافة الإيطالية.

ولد كروتشة فى الخامس والعشرين من شهر فبراير عام ١٨٦٦ فى بيسكاسيروللى Pescasseroli بإيطاليا، وتوفى فى العشرين من نوفمبر عام ١٩٥٢ فى نابولى Naples . ولفترة طويلة من حياته اعتبره الكثيرون الفيلسوف والمؤرخ الرسمى لإيطاليا على الأقل حتى نهايات النصف الأول من القرن العشرين .

ولقد ساعدته ظروف حياته الأسرية على أن يختط لنفسه طريقا معينا . فهو ينتمى إلى واحدة من أغنى الأسر الإيطالية التى تقطن بإقليم آبروزى Abruzzi بوسط إيطاليا، ولذا نجده يترك جامعة روما دون أن يحصل على درجة علمية ويقضى حياته فى نابولى كمدرس خصوصى . ونجح مع ذلك فى نشر أكثر من ٧٠ مجلدا فى الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع والنقد الأدبى . كما ظل لأكثر من أربعين عاما يقوم على تحرير مجلة «النقد» La Critica التى كان يمتلكها، واستطاع بذلك أن يكون له نفوذه الضخم على العديد من دور النشر وبخاصة دار لاترزا Laterza التى كانت من أكبر الدور وأشهرها . وإن كان المؤكد أن هذا التأثير لم يكن بعيدا أيضا عن عضويته لمجلس الشيوخ الإيطالى وعن منصبه كوزير للتربية خلال العامين ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، وإن كان قد أصبح بسبب بعض المواقف السياسية خصما ومناوئا للفاشية Fascism وأقدم فى عام ١٩٢٥ على نشر رد علنى على

مانفيستو المثقفين الإيطاليين الفاشيست . وبعدها انتخب رئيسا للجناح المعتدل فى الحزب الإيطالى الحر عام ١٩٤٣ كما تبوأ أحد المناصب المسئولة فى الجمعية الدائمة التى شكلت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ولكن كروتشة لم يكن فيلسوفا بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ، ذلك أن كل أعماله تعكس تفاعلا مستمرا بين البحث فى العديد من الموضوعات المادية الملموسة Concrete والتنظير الفلسفى . والواقع أن دراساته الأولى المبكرة جعلته يقف على التراث الألمانى فى التاريخ وعلم الجمال ونظرياته التى سادت فى منتصف القرن التاسع عشر . ولكن من الناحية الأخرى يصعب أيضا تجاهل التأثير الماركسى بل وآراء علماء وفلاسفة القرن السابع عشر وبخاصة جيامبا تيستا فيكو Vico كما ألهمته فلسفة هيجل Hegel بعض مواقفه النظرية ورؤاه الأدبية والفنية على الرغم من أنه يصعب التسليم بأنه كان هيجليا تماما، وخاصة أنه كان دائم التصريح منذ عام ١٩٠٢ بأنه أحد أتباع المثالية ولكنه يخشى مع ذلك أن يربطه مصطلح المثالية هذا بالمثالية الهيجلية Hegelian Idealism بالذات التى اعتبرها خاضعة لازدواجية أو ثنائية فى نظرتها للواقع، ومهما يكن من أمر هذه المؤثرات فقد ساعدت جميعها على بلورة شخصيته، أو بالأصح حسه الأخلاقى الذى كتب له أن يعمق وأن ينمو ويتطور حتى صار وكأنه يجسد الشخصية الأخلاقية لإيطاليا ولقدرها .

ويمكن التمييز فى حياة بنيديتوكروتشة بين أربع مراحل لكل منها سماتها وخصائصها وبالتالى إنتاجها المميز. وإن كانت فى مجملها تعكس جهده الخارق الذى ظل يبذله لتفادى كل الشكوك التى تقول بخضوع تفكيره للثنائية التى يعيبها على هيجل . وقد تأدى به هذا الجهد إلى حد أنه أصبح يفضل مصطلح «الروحية المطلقة» Absolute Spiritualism أو «التاريخية المطلقة» Absolute Historicism فى مواجهة كل من هذه الثنائية المثالية من ناحية والاتجاهات الوضعية من ناحية ثانية.

ولقد كانت المرحلة الأولى من هذه المراحل الأربعة تلك التى استغرقت الفترة حتى عام ١٩٠٠ تقريبا وهى فترة معاناة على المستوى الشخصى والعائلى نتيجة

لفقد أبيه فى أحد الزلازل التى تعرضت لها كازاميكيولا Casamicciola عام ١٨٨٣ تاركا إياه وهو لم يزل فى الثامنة عشرة ومعه أخوه الفونسو Alfonso ليواجها قساوة الحياة التى عبر هو نفسه عنها فى كتاباته بأنها كانت - آنذاك - حلما سيئا وكئيبا، فقد انتهت إلى الأبد بالنسبة إليه مرحلة الطفولة والشباب المبكر، وإن ظلت تنعكس مع ذلك على كل مناحى حياته ونشاطه الفكرى . فلم يكن أمامه من سبيل للخروج من واقعه إلا أن يلقى بكل ثقله فى دوامة العمل ودوامة القراءة وهو ما هيأ له لأن يصبح واحدا من أعظم المؤرخين وخاصة أنه كان يتميز بأسلوب فذ وبروح دافقة حتى ليطل من خلال كلماته على القارئ فيجذبه جذبا إليه .

ولقد شغلته فى هذه الفترة معتقداته وآراؤه الخاصة بكيفية إقامة حكومة ديمقراطية أخلاقية حرة فى إيطاليا بدلا مما كان يذهب إليه القوميون الأحرار الذين كانوا يسعون بمختلف الطرق لإحياء وحدة إيطاليا القومية التى كانت فى القرن التاسع عشر . ومع أنه بدأ فى بحثه عن المقومات الأساسية التى ينبغى أن تتوافر لمثل هذه الحكومة الديمقراطية الأخلاقية يتعرف على الكتابات الماركسية والاشتراكية إلا أنه سرعان ما هجرها بدورها لينهل من عالم المعرفة الواسع .

المرحلة أو الفترة الثانية فى حياته بدأها عام ١٩٠٣ عندما أقدم على تأسيس مجلته النقدية Critica لتدعم حركة النقد الأدبى والثقافى، وهى المجلة التى نشر فيها كل أفكاره تقريبا على مدى أربعين عاما .

فى هذه الأثناء بدأ كروتشة يخطط أيضا لمشروعه الضخم عن «فلسفة الروح» *Philosophy of Spirit* الذى يمثل عمله الفكرى الأساسى . ومن الملاحظ أن هذا المصطلح يعكس سمتين أساسيتين متمايزتين على الرغم من ترابطهما، فى تفكيره. السمة الأولى أن فلسفة الروح تحدد ملامح نسق فلسفى وفكرى محدد على نفس منوال النمط العقلانى الذى يلون الفلسفة الرومانسية التقليدية . حيث كان المبدأ الأساسى فى هذا النسق يتمثل فى «انتشار» و «وضوح» الروح خلال بناء النسق الفلسفى بأكمله وخلال الزمان التاريخى . أما الوقفات أو اللحظات التى تتبدى فيها الروح فى هذا النسق فهى تكشفات نظرية وعملية ولكنها تتمايز بالتالى

فى كل ما هو أخلاقى وجمالى ومنطقى واقتصادى. وبتعبير آخر فقد كان يرى أن الدينامية الدائرية تتحرك ما بين اللحظات الأدنى والأعلى مثلما أن قانون الانتشار والامتداد هو قانون الوجود أو «الحدوث» المطلق Absolute Immanence . ولقد عبر كروتشة عن هذا المبدأ الذى قامت عليه فلسفة الروح فى مجموعة من الأعمال التى اشتملت على عدة مجلدات أولها «علم الجمال كعلم للتعبير واللغويات العامة» وقد صدر عام ١٩٠٢ و«المنطق» (١٩٠٧) و«الاقتصاد وفلسفة الأخلاق» (١٩٠٩) و«التاريخ: النظرية والتطبيق» (١٩١٧) .

أما السمة الثانية فتتمثل فى أن كروتشة أخذ يهجر تدريجيا هذه الخطة نزولا على بعض الاعتبارات المنهجية ، ذلك أنه بدأ يعتقد أن اللحظات أو الآنيات التاريخية لا تتحل أو تذوب ولكنها تنخرط فى الفعل التاريخى والفكر ، وبذا يصبح التاريخ المبدأ التوسطى الفريد لكل وقفات الروح بينما تظهر الروح أو الوعى الإنسانى فى تلقائية تماما وعفوية دون أى بناء يشخصها أو يجسدها .

ولقد ظهر هذا التحول الفكرى أول ما ظهر فى مؤلفه الكبير «التاريخ باعتباره قصة للحرية» الذى قدمه عام ١٩٣٨ والذى يقف كعلامة على ما أسماه «التاريخية الطلقة» التى يصفها الكثيرون بأنها الشكل الكامل والمحدد لتفكيره. فقد كانت فلسفة الروح فى شكلها المتكامل وراء منهجه الرئيسى الذى ظهر فى أعماله المتأخرة كما ظهر أيضا فى عمله «الفلسفة والشعر والتاريخ» الذى قدمه عام١٩١٥ .

ويمكن القول بوجه عام أن المرحلة الثالثة فى حياته الفكرية بدأت مع إدراكه لطبيعة التحولات السياسية والفكرية التى أخذ يخضع لها النظام الإيطالى ، فقد سعى هنا كروتشة إلى أن يدمج دوره كمواطن إيطالى بدور إيطاليا الأمر الذى جعله ينخرط فى النشاط السياسى إلى أبعد الحدود . فمن خلال صحيفته بدأ يبرز دوره العام كمعلم لإيطاليا الحديثة تقع عليه مسئولية صنع إيطاليا الغد كما يحلم بها.

وللحق فقد كانت أبعاد الصورة هنا تتضح بالشقاء والمعاناة ، ولكنها مع ذلك جميلة بالجهد الخلاق وبالتوق إلى الحرية اللذين يعتلج فى أعماقهما الحس العميق

بالواجب والمسئولية وبالرغبة فى خلق أسلوب حياة ينبض بروعة إيطاليا الرومانسية المليئة بالحب وبكل المعايير التى تقدس الحقيقة الشخصية والعامة .

كل هذا كان يمثل العناصر الأساسية فى المثال الذى ملأ خيال كروتشة والذى أخذ يصنع نفسه على منواله، وإن كان التاريخ قد أخذ يحيك بأحداثه خيوطا جديدة وضعت هذا المثال فى محك الاختبار حيث برز نجم الفاشية كاتجاه سياسى يضع الدولة (إيطاليا) أو العنصر فى مركز الحياة والتاريخ ولا يعتبر الفرد ولا يعترف بحقوقه إلى أبعد الحدود .

ولقد كان هذا النسيج يتشكل تدريجيا ويتم ببطء لدرجة أن كروتشة نفسه لم يكن يتصور لأول وهلة إمكانية قيامه. فهو يعترف بأنه رأى الفاشية فى أول الأمر كحركة يمينية أميل لأن تضع حدودا ونوعا من التقييد لتلك الفردية المطلقة وبلا أية ضوابط والتى تفجرت فى معقبات الحرب العالمية الأولى .

ولكن مع تزايد وضوح الشخصية الحقيقية لذلك النظام أخذت معارضة كروتشة تزداد ذلك أنها بدت له لا كمجرد مشكلة أو شكل من أشكال الطغيان السياسى وإنما بداية لظهور إيطاليا أخرى مغايرة بالمرة، حيث تحل فيها الفردية والأنانية المتطرفة والمتغطرسة محل الفضيلة والمدنية. الشعارات والخطب تحل محل الصدق والحقيقة. قضية عنصرية بكل أبعادها القاتلة لأخلاق ولأحلام الإيطاليين المثقفين.

وبدأ كروتشة يكشف فى كتاباته أن إيطاليا قد أصبحت عرضة للضياع وأن طريقها كان على وشك أن يؤدى بها إلى النهاية إن لم يكن بأوربا وبالعالم الغربى بأكمله . وبدأ الإيطاليون يكتشفون أنهم فى حاجة أيضا إلى أن يسمعوا صوتا أخلاقيا يتحدث عنهم وعن إيطاليا، وليعرفوا مع العالم كله أن كروتشة هو ذلك الصوت الذى أخذ يدعو إلى أن تنظر إيطاليا إلى أصولها الداخلية الروحية التى يمكن عن طريقها أن تجد ذاتها، وأن تعيد بناء نفسها من جديد فى ظل وجود ديمقراطية مشبعة واقعا وفعلا بالحس الروحى والحس الأخلاقى معا .

وقد لا يكون مشروع كروتشة لهذا البناء هو الأول من نوعه الذى يعرفه تاريخ الأمم والشعوب ولكنه كان كافيا على أية حال لأن يعيده إلى بحوثه ودراساته وكتاباته وإلى مكتبته الضخمة التى تعتبر واحدة من أروع وأضخم المكتبات فى أوربا كلها. وهكذا نجده يؤسس المعهد الإيطالى للدراسات التاريخية Istituto Italiano per Gli Studi Storici كمركز للدراسة والبحث . ولا شك فى أن كروتشة قد أسهم متضافرا مع ذلك المركز فى إحداث تغيير عميق فى الدراسات التاريخية وفى النقد الأدبى فى إيطاليا . وإن كانت العلامة التى خلفها فى الثقافة الإيطالية تمتد فى الحقيقة إلى ماوراء تلك القضايا أو الموضوعات المدرسية . ويكفى أنه نجح فى أن يجعل الإيطاليين يقرأون ما يتحتم عليهم أن يقرأوه وأن يتركوا مالا فائدة أو غنى من وراء قراءته . ومع أن تأثيره قد بدأ فى التراجع والتهافت بعد سنى الحرب إلا أن المثقفين ظلوا مع ذلك يشعرون بحاجتهم إلى مثل ما كان يبشر به من فكر جديد وثقافة جديدة، بل وما زالت العقلية الإيطالية غير بعيدة تماما عن إسار فكره وفلسفته، وسواء أكان هذا بشكل شعورى أو غير شعورى .

• قراءات مقترحة •

- Antoni. Carlo.; Comments on Croce. 1979.
- Caponigri. A. Robert; History and Liberty; The Historical Writings of Benedetto Croce. 1965.
- Orsini. Gian N. G.; Benedetto Croce; Philosopher of Arts and Literary Criticism. 1961.

★ ★ ★

D

٤٦ - داهرندورف، رالف

46 - DAHRENDORF, RALF

يحظى عالم الاجتماع الألمانى رالف داهرندورف بشهرة واسعة بين العلماء المهتمين بدراسة الصراع ، وبالرغم من أنه كان على دراية واسعة بالتراث الاجتماعى والأنثربولوجى لكبار الكتاب فى هذا الموضوع ووقف على مختلف الإتجاهات التى برزت فى هذا التراث قديما وحديثا، فقد نجح فى أن يكون له موقفه النظرى المميز من قضية الصراع الاجتماعى على وجه الخصوص، وهى القضية التى شغلت تفكيره وظهرت فى عدد من كتبه ومؤلفاته ، فقد تأثر داهرندورف بالماركسية ولكنه لا يعتبر مع ذلك من الماركسيين، كما تأثر بالوظيفية وإن لم يكن من الوظيفيين ، كما تأثر بماكس فيبر وإن لم تتطابق مواقفه تماماً مع ما يذهب إلى الفيبريون مما يجعل من مسألة تصنيفه تحت أى من الاتجاهات التقليدية السائدة أمراً على غاية من الصعوبة .

ومع ذلك فإن هناك بعض الملامح البارزة التى تحدد بوجه عام الإطار النظرى الذى تناول داهرندورف من خلاله قضية الصراع، وهى ملامح يمكن التعرف عليها من خلال استقراء كتاباته الرئيسية ، ولعل فى مقدمة هذه الملامح أنه اهتم اهتماما خاصاً بنوع واحد من أنواع الصراع هو الصراع الطبقى وركز فى هذا على الصراع السياسى على وجه الخصوص، ففى كتابه « الطبقة والصراع الطبقى، فى أحد المجتمعات الصناعية» Class and Calss Conflict in an Industrial Society (١٩٥٩) نجده يبرز دور الصراع فى المجتمع الصناعى الذى يصفه بأنه

صراع سياسى بالدرجة الأولى، حيث ركز على نسق السلطة الذى اعتقد أنه يؤثر فى أنواع وأشكال الصراع الأخرى.

ومن الناحية الثانية فقد أبرز داهرندورف الأهمية الفائقة لدراسة شدة الصراع وكثافته؛ ولذا فقد نظر إلى الصراع من خلال عملية توزع السلطة فى داخل التنظيم ما إذا كان توزعاً عادلاً أم غير عادل ، وبلور فى هذا قضيته الأساسية القائلة بأن الصراع ينشب حالما يظهر التعارض بين المصالح السياسية والذى تبرز فيه فئة المسيطرين الذين يتحكمون فى كل ظروف ووضعيات فئة التابعين، بل ويستغلون هذه الظروف والوضعيات لإحكام قبضتهم وسيطرتهم ليظل هؤلاء بعيدين على السلطة ذاتها وبمنأى من مراكزها المؤثرة .

كذلك تبلور دراسة داهرندورف للصراع العديد من الارتباطات بين عدد من المفهومات والمقولات التى يتردد استخدامها فى التراث الماركسى والتراث الوظيفى على حد سواء . وذلك مثل مفاهيم السلطة والسيطرة والتسلط والتبعية والمصالح الكامنة والظاهرة وجماعات الضغط وجماعات المصلحة، بالإضافة إلى مفهومات التغير البنائى والتغير الوظيفى والصراع الطبقى وغير ذلك من المفهومات التى تنعكس فى محاولته لتفسير التغيرات البنائية ، حيث لجأ إلى هذا فى ضوء صراع الجماعة ، ومفترضاً لذلك أن التغير والصراع لهما حضور كامل فى البناء الاجتماعى، بمعنى أن هناك تفاعلاً جدليا بين الثبات والتغير والتكامل والصراع والاتفاق والقسر ، وهو ما يظهر على وجه الخصوص فى مقالته « التغيرات الحديثة فى البناء الطبقى للمجتمعات الأوربية » Recent Changes in the Class Structure of European Societies الذى كان قد نشره فى كتاب جروبارد Graubard «أوربا جديدة» New Europe (١٩٦٤) .

هذا الموقف بكل ما ينطوى عليه من تشعب دفع بالبعض إلى أن يصفوا داهرندورف بأنه يمثل محاولة توفيقية لحسم الصراع بين النظرية الماركسية والبنائية الوظيفية، أى بين اتجاه الصراع واتجاه التكامل. ومع أن هذا قد يبدو

صحيحاً فى مجمله إلا أنه ينبغى النظر إليه مع ذلك بمزيد من الحرص، لأن الصراع فى الحقيقة ليس اتجاهاً أو منطلقات واحدة ولكن هناك اتجاهات ومنطلقات متعددة، سواء أكانت ماركسية أو وظيفية أو غيرها مما يصعب معه التسليم بإمكانية التوفيق فيما بينها، وخاصة وأن هناك من أشكال الصراع ما تسمح له دينامياته بالتغلغل فى أقسام وجزئيات النسق الاجتماعى بشكل يقاوم ما يذهب إليه الوظيفيون من قدرة النسق على إذابته .

ولقد تناول داهرندورف بعض القضايا الرئيسية التى أثارها تولكوت بارسونز، مثال ذلك تأكيده على أن هناك حاجة ماسة إلى نموذج صراعى اعتبره لازماً لدعم النموذج البارسونزى للنسق الاجتماعى المستقر أو الثابت إن لم يكن ليحل محل هذا النسق البارسونزى .

غير أن أهم النقاط التى عالجها داهرندورف تتمثل ولا شك فى رؤيته للصراع الطبقى ودلالة دراسته فبالرغم من من أنه وجه فى كتابه «المجتمع والديمقراطية فى ألمانيا» Society and Democracy in Germany انتقاداً لاذعاً إلى المجتمع اللاطبقى عند كارل ماركس على اعتبار أنه تصور يوتوبى ، فقد عاد يساند ماركس فى إصراره على ربط مفهوم الطبقة الاجتماعية بمفهوم الصراع، وهى ناحية مثلت ركيزة أساسية فى نظريته ، حيث أصر بدوره على أن الصراع الطبقى إنما يقع بين أولئك الذى يمتلكون السلطة والذين لا يملكونها . ومع أنه يقرر أن دراسة الصراع الطبقى بجوانبه المتشابكة سوف تؤدى إلى إحداث تطوير فى الدراسات الإجتماعية، إلا أن المشكلة تبدور حالما نربط قضية الصراع الطبقى بالوسائل والغايات التى تتبناها الطبقة الإجتماعية ، أو حتى أى تنظيم من التنظيمات الموجودة فى المجتمع. فنزولا على تصوره الأساسى الذى أشرنا تواً إليه من أن الصراع الطبقى ينشب بين من يملكون السلطة ومن لا يملكونها ، فقد يكون هناك من ثم صراع طبقى فى أى من النظم الاجتماعية المختلفة، بمعنى أنه قد يوجد فى الصناعة أو السياسة ، أو الدين.. إلخ ، وسواء أصبح الصراع الطبقى عامل تمزق أو ثوريا ، فإن ذلك سوف يتوقف على قدرته على التغيير وعلى ما إذا

كانت الصراعات الطبقية التى قد تظهر فى السياقات الموقفية المستقلة أو المنفصلة قادرة على الانتشار والامتداد وفرض نفسها على غيرها. وإن لم يكن معنى ذلك أن حدوثه كفيل بالقضاء على مظاهر الصراع فى المجتمع الانقسامى ، لأنه سيظل هناك باستمرار كثير من الصراعات بين مكونات البناء الاجتماعى وأجزائه، تماماً كما هو موجود أيضاً بين مكونات الأقسام ذاتها التى ينقسم إليها النسق الاجتماعى، مادام هناك عدم اتفاق على الوسائل والغايات فى مختلف المجالات، مما يعنى فى آخر الأمر هزة عنيفة لتصور الوظيفيين عن وجود تكامل وظيفى . ولقد عبر داهرندورف عن ذلك فى أحد مقالاته التى نشرها عام ١٩٥٣ بعنوان Out of Utopia : Toward a Reorientation of Sociological Analysis حيث وصفه بأنه تصور يوتوبى لا يختلف عما ذهب إليه ماركس من وجود مجتمع لا طبقى طالما أن إحدى الخصائص البنائية التى تسم التصور اليوتوبى للمجتمع تقوم على فكرة القبول والاتفاق العام على القيم ، وما يترتب على ذلك من تصور وجود الاستقرار ، دون الاعتراف صراحة بما يخلقه البناء الاجتماعى من صراعات ، فالقول بجماعة أو مجتمع متوافق تماماً هو أمر يوتوبى وغير واقعى بالمرة .

● قراءات مقترحة ●

- **Works** " Reflections on Revolution in Europe, 1990.

● وانظر أيضا:

-Przeworski, Adam; Decmocracy and the Market : Political and Economic Reforms in Eastern Europe and Latin America. 1991.

★ ★ ★

٤٧ - داسجوبتا، سيرندرا ناث

47 - DASGUPTA , Surendra Nath

يمثل سيرندرا ناث داسجوبتا علامة مميزة فى الفكر الفلسفي والإجتماعى الهندى المعاصر. فقد مازج فى فلسفته بين قراءاته الواسعة فى فلسفات الشرق القديم ومعرفته بمختلف الأنساق الفكرية والفلسفية التى زخر بها التطور الحضارى الثقافى فى الغرب، بالإضافة إلى وقوفه على منابع الأدب الفيدى كما حفظته نصوص وتراث الفيدا Vidas التى تعتبر أول كتب الهندوس المقدسة، علاوة على إحاطته بمختلف الديانات والفلسفات والمذاهب العقدية التى عرفتها شبه القارة الهندية وبخاصة الجانية Jainism باتجاهاتها ونظراتها الصوفية، وهى خلفية مكنته ولا شك من أن يصير حجة فى فلسفة الهند وتطورها الاجتماعى والثقافى . وبخاصة بعدما نشر مؤلفه الضخم «تاريخ الفلسفة الهندية» History of Indian Philosophy الذى ظهر فى خمسة أجزاء فيما بين ١٩٢٢، ١٩٥٥ .

ولقد ولد داسجوبتا ونشأ فى ظل تراث الهند الفكرى العريق، الذى لم تنقطع صلته به أبداً فى أية فترة من فترات حياته، حيث ولد فى أكتوبر عام ١٨٨٥ فى كوشتيا Kushtia فى البنغال Bengal وتوفى فى ١٨ ديسمبر عام ١٩٥٢ فى لاكنو Lucknow ونجح فى أن يكون لنفسه خلال هذه السنوات شهرة واسعة امتدت إلى ما وراء حدود الهند حتى قلب أوربا وأمريكا.

وليس من شك فى أنه كان للظروف الخاصة التى نشأ فيها دخل كبير فى هذا النجاح. فهو ينتمى إلى أسرة ثرية معروفة اشتهرت منذ أجيال طويلة فى تخصصها فى تعليم اللغة السنسكريتية Sanskrit ونشر ثقافتها . ولهذا فقد اتجهت ميوله منذ وقت مبكر إلى الارتباط بالسنسكريتية وبالعلوم فى آن واحد ، وكان

ذلك الارتباط بمثابة الركيزة الأساسية التى أقام عليها نسقه الفلسفى فيما بعد وخاصة أنه أتيحت له فرصة الوقوف على مظاهر الثقافة الغربية من خلال منابعها وأصولها الرئيسية كذلك.

على آية حال ، فقد نال داسجوبتا درجة الماجستير فى السنسكريتية والفلسفة من الكلية السنسكريتية Sanskrit College فى كلكوتا Calcutta وأتاح له ذلك أن يضع قدمه فوق أولى درجات السلم الأكاديمى حيث أصبح استاذاً دائماً فى شيتاجونج كوليج Chittagong College . وهى الكلية التى بدأ يخطط فيها لمشروع مؤلفه الضخم « تاريخ الفلسفة الهندية» على ما أشرنا من قبل . كذلك يمكن القول بأن سفره إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه كان بمثابة الظرف الثانى الذى ساعده على تحديد رؤيته الفلسفية ومواقفه الفكرية عموما ، ففى أوائل العشرينات التحق بكامبريدج التى حصل منها على الدكتوراه فى رسالته عن «الفلسفة الأوربية المعاصرة» وهو موضوع من الواضح أنه هيأ له أن يقف بشكل متعمق على مختلف الاتجاهات التى تطورت فيها هذه الفلسفة ، وإن كان المهم هنا أنه جذبته بصفة خاصة مذاهب الواقعية الجديدة Neorealism التى بدأت تسود الفكر الفلسفى فى بريطانيا وأمريكا ، علاوة على انبهاره بنظريات وأفكار تشارلس دارون التطورية. وإن كان قد عاد بعد ذلك إلى الهند ليستقر فى كلكوتا التى اتخذها مركزاً دائماً لحياته ولعمله .

وبالرغم من أن فكر داسجوبتا، بل والفلسفة الهندية عموماً، كانت لا تزال حتى ذلك الحين شيئا جديداً ، إن لم يكن غريباً ، على كثير من الأوربيين ، فقد تمتع داسجوبتا مع ذلك بكثير من مظاهر الاحترام والتقدير من قبل الدوائر والأوساط العلمية والفلسفية الأوربية، حتى أنه دعى عدة مرات إما للتدريس فى الجامعات الأوربية والأمريكية، وإما للمشاركة فى المناقشات والسيمنارات والمؤتمرات التى تنعقد فى المناسبات العلمية المختلفة، وكانت هذه الزيارات على أية حال مناسبات لا تعوض ليتعرف الفكر الغربى على فكره الفلسفى بما ينطوى عليه من جدة وطرافة غريبتين على العقلية الغربية بعامة، حتى وبالرغم من تأثره الواضح بنظرية التطور .

والواقع أن هذه النظرية لعبت دوراً أساسياً فى نسقه الفلسفى، وهو دور يظهر بصفة خاصة فى تفسيره للمركب المعرفى العقلى الذى نظر إليه على أنه جانب من جوانب عملية تطورية تاريخية تنبثق من «رحم» المكان والزمان الأبديين، وذلك من خلال مراحل بيولوجية لانهائية.

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل أو المصدر البيولوجى فى هذه العملية التطورية ، فإن غايتها ، على ما يذهب داسجوبتا ، هى غاية إلهية حيث يرتفع الفرد عن طريق ارتباطه واستجابته للقيم الهادفة العليا إلى مرتبة من السعادة الغامرة يعتبرها أسمى مراحل الحب ونوعا من الذويان فى الحب الكلى : الله بتعبير آخر .

* * *

٤٨ - ديفيز، كينجزلى

48 - DAVIS, Kingsley

ربما كان كينجزلى ديفيز فى مقدمة علماء الاجتماع وأساتذة الديموجرافيا الكبار الذين كرسوا حياتهم العلمية لدراسة المجتمعات البشرية من حيث تركيبها وحجمها وتطورها وإبراز العناصر التى يمكن أن تتميز بها المجتمعات بعضها عن بعض، فقد أمضى حياته فى التدريس فى عدد من الجامعات، ونجح بذلك فى نشر أفكاره وآرائه ، وفى تكوين أجيال من الطلاب والباحثين. كما يرجع إليه الفضل فى صك مصطلح (الانفجار السكانى) Population Explosion ومصطلح النمو الحدى أو الصفرى للسكان Zero Population Growth. علاوة على أن دراساته التى أجراها فى المجتمع الأمريكى قد قادته إلى العمل على مستوى عالمى أو مجتمع عالمى بأسلوب علمى ينبى على التحليل الأمبريقى لكل مجتمع على حدة، بالإضافة إلى أنه قاد حركة تجميع أكبر قدر من المعلومات عن المجتمعات المحلية على مستوى عالمى أيضاً مما وسع من نطاق معارفنا بالمراكز الحضرية فى مجتمعات مختلفة متباينة.

ولد كينجزلى ديفيز فى توكسيدو Tuxedo بولاية تكساس الأمريكية ١٩٠٨ ونال درجته العلمية الأولى من جامعة تكساس عام ١٩٣٠ وحصل على درجة الماجستير فى عام ١٩٣٣، ودرجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٣٦. وبدأ طريق حياته الأكاديمية بتدريس علم الاجتماع فى سميث كوليج Smith College فى الفترة من ٣٤ إلى ١٩٣٦ ، ثم أصبح أستاذاً مساعداً فى جامعة كلارك (٣٦-٣٧) وبعدها أستاذاً ثم أستاذا ورئيساً للقسم فى جامعة ولاية بنسلفانيا (٣٧-١٩٤٢). كما كان أستاذاً للأنثربولوجيا وعلم الاجتماع فى جامعة برينستون عندما أكمل عمله الأول والرئيسى « المجتمع البشرى» Human Society عام ١٩٤٨، وهو العمل

الذى صدرت طبعته الثانية والعشرون فى عام ١٩٦٦، وكان لنشره صدى قوى فعمل فى مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية فى جامعة كولومبيا فى الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٥ ومنها انتقل إلى جامعة كاليفورنيا فى باركلى (١٩٥٥إلى ١٩٧٧) ثم أصبح أستاذاً متميزا لعلم الاجتماع فى جامعة ساوثرن كاليفورنيا Southern Clifornia من عام ١٩٧٧.

وبكل المقاييس يعتبر ديفيز علماً بارزاً من أعلام الدراسات السكانية، وقد تأكدت ريادته وأستاذيته فى هذا المجال عندما رأس تحرير مجلة World Population in Transition عام ١٩٤٥، حيث انكب على نشر سلسلة من الدراسات الهامة لاتجاهات السكان وخصائصهم وللموارد المختلفة فى المناطق والأقاليم الرئيسية فى العالم ، بالإضافة إلى دراساته لجوانب التغير السكانى ، وهى مجموعة من الدراسات والمقالات التى تتميز بالتركيز وبالوضوح . ونتيجة لهذه الخبرة الطويلة قامت مؤسسة كارنيجى Carnegie بتكليفه بإجراء دراسة واسعة مولتها بسخاء عن عشر دول إفريقية، كما أشرف على عدد من الدراسات والبحوث فى الهند وأوربا وأمريكا اللاتينية. وقد ظهرت نتائج هذه الدراسات والبحوث فى أكثر من عمل ضخم ، فنشر كتابه « سكان الهند وباكستان» The Population of India and Pakistan عام ١٩٥١، وهى تعتبر أكمل دراسة أجريت على المشكلة السكانية فى هذه المناطق قبل تعدادات عام ١٩٥١. كما «نشر عالم مزدحم: التغير السكانى فى أمريكا» A Crowding Hemisphere : Population Change in America عام ١٩٥١ ، و«الأزمة العالمية للسكان» The World Population Crisis، ثم «التحضر العالمى» من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠. World Urbanization فى جزءين ظهر أولهما عام ١٩٦٩ وثانيهما عام ١٩٧٢ .

ولقد أسهمت العديد من المؤثرات سواء وهو لم يزل فى فترة التكوين العلمى أو أثناء حياته العملية فى تشكيل مواقفه واتجاهاته النظرية والعملية ، وهى مؤثرات تتسم بالتنوع والتعدد والتمايز مما كان له أثره فى توسيع مداركه واتصافها بالشمول والإحاطة. فمن ناحية يتضح من كتاباته مدى تأثره بقراءاته فى النظرية الاجتماعية والفكر الاجتماعى الأنثربولوجى وبخاصة تلك التى تعكسها

كتابات دوركايم وفيبر وباريتو وزيميل وبارسونز وميرتون وماكيفر وبارك وبيرجس.

وإلى جانب هذا التنوع الهائل فى المواقف وحتى فى المنطلقات ، هناك -وهذا من ناحية ثانية - تأثره أيضاً بقراءته رادكليف براون Radcliffe-Brown ولويد Warner وارنر ومالينوفسكى وروث بنديكت ، وكل هذا يعنى أن فكره الخاص قد اصطبغ بغير قليل من ملامح الاتجاهات الوظيفية من ناحية، ومن الناحية الأخرى اتجاهات المدرسة الإيكولوجية كما يعكسها جناحها المعتدل على وجه الخصوص ونتيجة لذلك نجح فى تفادى الكثير من نقاط الضعف التى شابت الموقف الوظيفى من بعض القضايا الأساسية مثل قضية الصراع وقضية الطبقة وهى جوانب أغفلها كثير من الوظيفيين على حين لم يولها البعض الآخر منهم ما تستحق من بحث واهتمام.

ومع ذلك فربما كان الشىء الغريب حقاً هو أن كينجزلى ديفيز لم يكن مغرما لفترة طويلة من حياته العلمية بتقديم نظريات جديدة على الرغم من غزارة إنتاجه وتنوعه وتعدد مصادره. ويصدق هذا حتى بالنسبة إلى كتابه الرئيسى «المجتمع البشرى» وهو الكتاب الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أفضل كتبه، فهو لم يسع فى هذا الكتاب إلى تقديم نظريات بقدر ما كان يهمه الوصول إلى مركب من أهم الأفكار والرؤى التى تعرض لها العلماء والباحثون فى القضايا المثارة ، الأمر الذى نجح فيه إلى أبعد الاحدود ، فالكتاب بأقسامه الستة التى تناول فيها طبيعة المجتمع البشرى والفرد والمجتمع والجماعات الإنسانية والنظم الأساسية والسكان والمجتمع والتغير الاجتماعى كان هدفه الأساسى إبراز الملامح والخصائص العامة للمجتمع البشرى ككل، ومحاولة للإجابة على بعض التساؤلات والقضايا والمشكلات التى تثيرها التغايرات والاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية ، وهى إجابة كان كل همه أن تجىء فى نسق فكرى منتظم فى ضوء ما توافر لديه من معلومات نظرية وإحصاءات، وما أسفرت عنه بحوثه ودراساته الميدانية من مادة اثنوجرافية واقعية .

الاستثناء البارز الذى يقدم فيه ديفيز نظريته الاجتماعية الخاصة بعلم

شامل للمجتمع البشرى نلتقى به فى كتابه «التحضر العالمى» . ففى هذا الكتاب تسهل رؤية المحاور الرئيسية أو المبادئ الأساسية التى ترتكز إليها نظريته .

فمن ناحية هناك أولاً ، عالمية الأسرة النووية كملمح ثقافى عام ولهذا نجده يستغرق فى الحديث عن وظائفها الأساسية فى الحياة الاجتماعية حيث حدد فى ذلك أربع خصائص اجتماعية هى النسل والإنجاب Reproduction والمحافظة والإعالة Maintenance والتوطن Placement والتنشئة الاجتماعية Socialization. وأكد فى هذا على وجه الخصوص على الوظيفتين الأولى والثانية ثم الوظيفة الرابعة .

من الناحية الثانية أكد ديفز أيضاً على التفاعل والاتصال الرمزيين واعتبرهما ملمحين فريدين يختص بهما المجتمع البشرى بالذات، وأخيراً طبيعة العلاقة (العلاقات) بين الفرد والمجتمع، حيث مضى يعالج مشكلات التنظيم فى الفعل الاجتماعى وركز فى ذلك على مشكلات التكامل التى تناولها على مستويين هما المستوى الفردى والمستوى المجتمعى ساعياً ، وهذا من الناحية الثانية ، إلى مناقشة دور التكنولوجيا والمعايير التكنية والاقتصادية فى تحقيق نوع من الاستقرار فى وحدات الفعل الذى يقوم به الأفراد ، ذلك فى الوقت الذى ناقش فيه أيضاً المشكلات المتضمنة فى علاقات وحدات الفعل أو مجموعة من وحدات الفعل التى يقوم بها أفراد عديدون ممن يتفاعلون معاً ، وفى كل من المستويين نجده يناقش مشكلات الملكية والعمل والحقوق والواجبات والمسئوليات والالتزامات ، ومدى ما تتمتع به التصرفات من شرعية. بالإضافة إلى مناقشته لقدرة النظم والقواعد على إشباع الحاجات الأساسية للأفراد وللجماعة ككل، ومدى تقبل الأفراد لأنساق القيم وللسلطة القائمة وهنا نجده يقترب كثيراً من تولكوت بارسونز الذى أكد تأكيداً زائداً على الدور الذى تقوم به القيم والمعايير .

وبالرغم من الطابع الوظيفى الذى يسم معالجة كنيجزلى ديفيز لهذه الجوانب فالملاحظ أنه لم يغفل ما يقوم بين الأفراد والجماعات من مظاهر التنافس والصراع. فعلى المستوى الفردى تصبح مسألة توصيل الخدمات والتسهيلات لكل فرد خاضعة لرؤية كل منهم الخاصة، والتى تخضع لمصالحه التى كثيراً ما تتعارض

مع مصلحة الآخرين ، ونتيجة لذلك فإنه تثار هنا قضية وضع السلطة ومشكلات توزيع القوة فى المجتمع، وهى مشكلات لا تنفصل فى رأيه عن القيم الاجتماعية والثقافية ليس فقط فيما يتعلق بأمر تقبلها ولكن أيضاً من حيث نقلها إلى الآخرين وكلها مسائل شائكة وثيقة الصلة بعملية التنشئة الاجتماعية، وقدرة المجتمع على التنسيق بين الوسائل والأهداف حتى لا تطفو الأهداف التنافسية على السطح بسبب عدم وضوح القواعد أو المحددات مما يؤدى بالتالى إلى نشوب الصراعات فى سبيل إرضاء الغايات وإشباعها ، وتصبح القضية الأساسية إذن منحصرة فى الكيفية التى يمكن بها تطوير وتنمية علاقات اجتماعية متشعبة بين الفرد وبين نظام اجتماعى لم يعد يتسم بالبساطة ولكنه أصبح شديد التعقيد ، تفادياً لعدم التوازن وعدم الاستقرار المهددين لتماسك المجتمع وبقائه .

ولكن إلى المدى الذى ركز به ديفيز على مظاهر التنافس والصراعات التى تظهر فى العمل والسوق والمواقف الاقتصادية المختلفة وارتباط كل هذا بمبدأ الشرعية Legitimacy الذى يؤدى إنكاره أو عدم الاعتراف به إلى تفاقم الصراعات وتزايدها ، فقد سعى أيضاً إلى ربط القضية برمتها ، وبخاصة من حيث علاقتها بتوزع السلطة، بانساق المنزلات الاجتماعية التى افترض منذ البداية أنه يصعب فهمها فهماً سليماً إلا من خلال دعاوى الحق فى السلطة الشرعية أو رفض ذلك من قبل بعض أفراد المجتمع .

وهنا نجد ديفيز فى قلب قضية التدرج الاجتماعى إذا شئنا الأخذ بالمصطلح الذى يميل الكتاب الغربيون (الأمريكيون بالذات) الى استخدامه كبديل لمصطلح الطبقة والصراع الطبقى . ولقد سعى ديفيز إلى تحليل هذه الظاهرة فى أكثر من كتاب ومقال من كتبه ومقالاته. ومع أنه قدم فى عام ١٩٤٣ كتابه « المجتمع الأمريكى الحديث» Modern American Society الذى ألفه بالاشتراك مع هارى بريد ميير Bredemeier وماريون ليفى Levy وهو عبارة عن قراءات مختارة عن تركيب العائلة الأمريكية وكيفية تكوينها وطبيعة ما يقوم به أفرادها من علاقات فى ضوء منزلاتهم الاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى بعض الفصول التى ناقش فيها

خصائص النظام الطبقى والعلاقات العنصرية فى المجتمع الأمريكى ، فإن مقالته «بعض أسس التدرج» Some Principles of Stratification التى نشرت فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع (A.S.R.) بالاشتراك مع ويلبرت مور Moore عام ١٩٤٥ هى التى تعكس موقفه من هذه القضية حيث سلم بأنه ما إن توجد المجتمعات التى تقوم على المنزلة الاجتماعية، فإن الاختلافات فيما بينها تميل إلى التزايد ويصل ذلك إلى درجة يصعب معها فى كثير من الأحيان التعرف على العوامل المؤثرة التى تتدخل فى ذلك .

فى هذه المقالة أهتم ديفيز بمناقشة محددات المنزلة والمركز الاجتماعيين فى الجماعات المختلفة، وهى ناحية اعتقد أن الاجتماعيين لم يهتموا بها ولا بالأسباب التى تجعل المجتمع يخلع على بعض أفراده أو بعض فئاته قدراً من الاعتبار والتبجيل esteem لا يتمتع به الآخرون ، لدرجة أن تصطبغ حياة أولئك وهؤلاء بطابع أو أسلوب معين فى الحياة، حيث يناضلون فى سبيل الحفاظ على ماهم فيه ويسعون إلى تأكيده بكل الطرق.

ولقد مضى ديفيز يناقش القضية من خلال الإطار العام للوظيفية، وأوضح فى ذلك أنه إذا كانت الحقوق والمتطلبات التى ترتبط بالوضعيات المختلفة فى أى مجتمع لابد من تدرجها لأن اختلاف الوضعيات وتغايرها لا يعنى أن هناك تدرجاً اجتماعيا بالفعل، فإنه يلزم عن ذلك أن عدم المساواة الاجتماعية لا يعدو أن يكون حيلة أو وسيلة لا شعورية متطورة تلجأ إليها المجتمعات لتأكيد أن أهم الوضعيات إنما يشغلها أكثر الناس كفاءة واستحقاقاً. ومن ثم فإن كل مجتمع بصرف النظر عن مدى بساطته أو تعقده ، يجب أن يمايز بيْن الاشخاص تحت مقولتى المكانة والاعتبار، مما يعنى بدوره الاعتراف الصريح بوجود قدر من (عدم المساواة) المؤسسية يسمح به النظام ويسعى إلى دمجه فى الكل الاجتماعى .

ومع ذلك فقد ظلت مشكلة المعايير التى تتحدد فى ضوئها الأهمية النسبية للمنزلات وأيضاً ما يرتبط بها من مظاهر الإجلال والتبجيل موضع جدل ونقاش مستفيضين على الرغم من أهمية الدور الذى تقوم به العوامل الوراثية والاقتصادية

فى ذلك وما تشير إليه من رموز تتمتع بتقدير المجتمع أو بالأصح فئاته القادرة التى تحتل مواقع القيادة والسلطة والتوجيه .

• قراءات مقترحة•

- Botomore, T,B; Sociology: A Guide to Problems and Literature . 1962.

- Burgess, E.W. and Locke, H.J., The Family: From Institution to Companionship.

- Lévi- Strauss, Claude; les Structures Élementaires de la Parenté1949.

- Turnin , Melvin M.; Social Stratification. 1967.

- Wilmott, P. and Young, M., Symmetrical Family: A Study of Work and leisure in the London Region . 1973.

★ ★ ★

٤٩- دريدا، جاك (١٩٣٠ -
49 - DERRIDA, Jacques

بالرغم من أن جاك دريدا يصنف عادة ضمن البنائيين الفرنسيين الكبار، إلا أنه كان واحدا من أعنف الذين وجهوا النقد إلى هؤلاء البنائيين، وهو نقد كثيرا ما كان يتسم بغير قليل من التحامل وربما التجريح.

ولقد ولد دريدا فى الأبيار El Biar غربى الجزائر فى ٣١ يوليو عام ١٩٣٠ والتحق بمدرسة المعلمين العليا École Normale Supérieure فى باريس حيث درس على أيدى جان إيبوليت Hyppolite الذى يعتبر من كبار المتخصصين فى فلسفة هيجل، ومن ثم كان تأثره بالهيجلية مثلما تأثر بأفكار وفلسفات نيتشه Nietzche وفرويد Freud وهوسرل Husserl ومارتن هيدجر Heidegger. وبالرغم من أنه قضى عاما (٥٦-٥٧) على منحة دراسية فى هارفارد وقام بالتدريس كأستاذ زائر لجامعة ييل Yale وجامعة جونز هوبكينز Johns Hopkins فى أمريكا كما قام بالتدريس فى السوربون Sorbonne فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤، فقد ارتبط منذ عام ١٩٦٥ حتى الآن بعمله الرئيسى كأستاذ تاريخ الفلسفة فى مدرسة المعلمين العليا، علاوة على ارتباطه بجماعة «الجريف» الفلسفية Group de la Recherches sur l'enseigment Philosophique (GREPH) التى تهتم بالبحث فى طرق تدريس الفلسفة ومشكلات تدريسها وتعليمها فى فرنسا.

وبداية من الستينات على وجه الخصوص يمكن القول بأن اسم دريدا أخذ يعرف طريقه إلى الشهرة إذ بدأت تشغله بصفة أساسية مسألة أولوية اللغة المنطوقة (الكلام) على اللغة المكتوبة، وهى الدعوة التى كانت تسود بوجه عام اللغويات وبخاصة عند فردينان دوسوسير de Saussure ولكن عارضها دريدا معطيا

بذلك الكتابة أفضلية مطلقة على الكلام. وهى المسألة التى ستظل تشغله لفترة طويلة على أى الأحوال وتناولها فى كل كتبه ومؤلفاته الهامة على السواء، وكان لمواقفه وآرائه اللغوية الكثير من التأثير على ما يدور فى ساحة التعبير الأدبى وبخاصة الرواية، وأثارت بالتالى كثيرا من الجدل والمناقشات التى شارك فيها عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين من أمثال فوكو Foucault وكلورد ليفى ستروس Lévi- Strausr وجاك لاكان Lacan.

ولكن شهرته ترتبط مع ذلك بعام ١٩٦٢ على وجه التحديد، وكان ذلك عندما نشر ترجمته لدراسة الفيلسوف الألمانى أدموند هو سرل «عن أصل الهندسة» Origin of Geometry وقدم لها بمقدمة ضافية وهى الترجمة التى نال عليها جائزة كافييه Prix Cavaillés لا لمجرد إقدامه على ترجمة هوسرل فحسب ولكن بسبب مناقشته لآرائه أثناء تعرضه لمشكلة العلاقة بين الموضوعية المغالية للهندسة ووجودها التاريخى التجريبى، وهى المشكلة التى ذهب فيها هوسرل إلى أن اللغة وبخاصة «الكتابة» هى التى تحقق تحول الهندسة من فكرة فى ذهن عالم الهندسة إلى موضوع «مثالى» نتيجة لما تتميز به الكتابة من خاصية لاشخصانية.

وما يعنينا على أى الأحوال هو أن تحليله لفنومنولوجية هوسرل قد أصبح بمثابة نقطة بدء أو انطلاق أقدم منها على نقد الفلسفة الغربية وهو نقد أبرزه فى ثلاثة كتب مهمة ظهرت كلها فى عام ١٩٦٧ وهى كتاب «الكلام والظاهرة» La Voix et le Phenoméne الذى ترجم إلى الإنجليزية فى ١٩٧٣، و« فى الجراماتولوجيا (علم الكتابة)» De la Grammatologie الذى ترجم بدوره إلى الإنجليزية فى عام ١٩٧٦. ويعتبر من وجهة نظر الكثيرين أهم كتبه على الإطلاق. و«الكتابة والاختلاف» L'Écriture et La Différence الذى تمت ترجمته إلى الانجليزية فى ١٩٧٨ وهى كتب كانت خاصتها المميزة الأولى ارتيابه المنهجى المنظم فى كل أشكال التفكير الميتافيزيقى، و هو ارتياب صاحبه ادراكه لحقيقة أن لغتنا أصبحت أشبه بالألغاز بسبب الافتراضات والادعاءات الفلسفية التى يقوم عليها.

والواقع أن كتابه «الكلام والظاهرة» كان دراسة تحليلية نقدية لنظرية

هوسرل عن العلامات (الإشارات) وبصفة خاصة الأفكار الرئيسية التى حوتها مثل فكرة «الصوت» وفكرة «الحضور» Presence ووصف فى ذلك التيار الفلسفى السائد منذ افلاطون بأنه «ميتافيزيقا حضور» قاصدا بذلك تلك الرغبة المستمرة فى الوصول إلى ضمان لليقين والسعى وراء بعض الأسس النهائية للأبستمولوجيا ومصادر المعانى والغايات. وهى رغبة تنعكس فى كل التصورات الفلسفية كالجوهر والماهية، والأصل، والذاتية، والحقيقة، إلى آخر تلك التصورات التى يمتلئ بها الفكر الفلسفى.

أما الكتابان الآخران فقد عمد فيهما دريدا إلى طريقته المفضلة فى الكتابة وهى كتابة المقال الذى عادة ما يدور حول فكر الآخرين وكتاباتهم. وعلى ذلك فقد جاءا فى شكل مجموعتين من المقالات المجموعة الأولى هى التى صدرت باسم «الكتابة والاختلاف» حيث عرض بشكل يكشف عن ثقافته الواسعة لعدد كبير من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفنانين من بينهم ميشيل فوكو وجورج باتاى وكلود ليفى ستروس وفرويد وهوسرل. على حين كانت المجموعة الثانية من هذه المقالات هى التى ظهرت باسم كتابه الثالث الهام «علم الكتابة» أو الجراماتولوجيا» حيث اهتم بدراسة النسق الفكرى لدى مجموعة من الفلاسفة والمفكرين أيضا بداية من أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وكانط Kant وستيفان مالارميه Mallarmé، وهو النسق الذى اعتقد بأنه يختفى وراء النص والكلمات الظاهرة، ولجأ فى ذلك إلى استخدام وسيلته أو بالأصح «إستراتيجيته» فى تحليل النص Texte وتفكيكه إلى مكوناته وعناصره بغرض أساسى هو الكشف عن الطريقة التى تعمل بها الرموز اللغوية أو (الإشارات)، أى توضيح العلاقة التى تقوم بين «الدال» و«المدلول» أو ما تنطوى عليه «الكلمة» من دلالة أو معان ومفاهيم.

وبالرغم من (الطرافة) التى تتضمنها هذه الاستراتيجية فمازالت فى الحقيقة موضع جدل وتساؤل كثيرين، بل وهجوم حاد وعنيف ممن رأوا فيها نوعا من «الموضة» أو «التقليعة» أولا بسبب ما تتسم به من غموض وتلاعب، وثانيا لأنها تركز فيما يرى هؤلاء وخاصة البنائيين التقليديين منهم على كل ما هو هامشى فى

الكتابات والنصوص التى يحللها ويفككها مما يحول بينه وبين أى اهتمام بالمحتوى والمضامين.

وأيا كان الأمر فإن دريدا - للإنصاف - يتمتع ولاشك بشهرة واسعة فى فرنسا وفى أمريكا بالرغم من أنه مازال غير معروف على نطاق واسع فى بريطانيا. وأيا كانت الأسباب وراء ذلك فإن قراءته تثير ولاشك الكثير من الحيرة مثلما تثير الكثير من التساؤلات حول تقييم أعماله ومواقفه وكتاباته التى يرى الكثيرون أنها لا تمثل مذهبا فلسفيا، أو حتى ما يمكن وصفه بأنه مرجع أو حجة فى هذا الاتجاه.

● قراءات مقترحة ●

Works: La Dissémination. 1972.
- Marges de la Philosophie. 1972.
- Positions. 1972.
- Glas. 1974.
- Spurs (Éperons), an Essay on Nietzche. 1976.
- La Vérité on Peinture. 1978.

★ ★ ★

٥٠ - دوبنو، سيمون ماركوفيتش
50 - DUBNOW, Simon Markovich

يعتبر من وجهة نظر الكثيرين من أهم المؤرخين اليهود فى عصره، وواحدا من أكبر المشاركين فى المناقشات الطويلة والجدل الدائر حول ما يطلق عليه القومية اليهودية. حيث سعت كتاباته إلى حل الصراع بين العالمية والخصوصية، وقدم فى ذلك نظريته القائلة بدولة تتكون من القوميات المتعددة؛ بمعنى اشتمالها على عدة قوميات مختلفة ولكن تحتفظ كل منها بإمكانيات الحكم الذاتى على الرغم من انطوائها جميعا تحت لواء الدولة القومية الواحدة. وهى نظرية اعتقد دوبنو أنها ضررورية لتوجيه الحياة السياسية فى أوربا. واعتبره الكثيرون بسبب ذلك مناهضا لليهودية ومعارضا لها.

هو المؤرخ اليهودى سيمون Simon ماركوفيتش دوبنو أو سميون Semyon كما تكتب أحيانا. ولد فى العاشر من شهر سبتمبر عام ١٨٦٠ فى ميستسلاف Mistislave فى روسيا، وتوفى فى ديسمبر عام ١٩٤١ فى ريجا Riga فى لاتفيا Latvia. وانبت شهرته أساسا على لجوئه إلى التفسير الاجتماعى فى دراسته للتاريخ اليهودى وبخاصة اليهود النازحون من دول أوربا الشرقية.

ويبدو أن ظروف نشأته وتربيته الأولى كان لها دخل كبير فى تكوينه العلمى والثقافى إن لم يكن مواقفه الدينية عموما. فمنذ صباه المبكر لم يكن دوبنو مقبلا على القيام بالشعائر والواجبات الدينية بصفة منتظمة الأمر الذى يرجعه بعض المحللين إلى قراءاته المبكرة لأعمال طائفة من الكتاب والعلماء والفلاسفة من أمثال فولتير Voltaire وجون ستيورات مل Mill وهربرت سبنسر Spencer. ومع أنه أدرك مؤخرا أن حياته العلمية كمؤرخ لليهودية لا يمكن أن تنفصل تماما عن الإيمان

بأسلافه القدامى، إلا أن تفكيره ظل متسما بغير قليل من مظاهر التحرر والانطلاق حتى على الرغم من أن كتاب «التلمود» الذى يمثل التراث الشفوى لليهود قد ظل يمثل حجر الأساس الذى انطلقت منه دراساته اللاحقة.

ولقد اعتمد دوبنو منذ فترة مبكرة على تعليم نفسه بنفسه، فعمل مدرسا كما عمل كاتبا محترفا لفترة طويلة من حياته. ولكن فى عام ١٨٨٢ بدأت صلاته وهو فى الثانية والعشرين من عمره بمجلة «النهضة» Voskhod الروسية اليهودية، حيث أخذ يكتب سلسلة من الدراسات والمقالات التى أصبحت من أظهر أعماله. ومع ذلك فقد اضطر فى عام ١٩٢٢ إلى مغادرة روسيا بسبب كراهيته الواضحة للبولشفيك. ومع أنه استقر فى برلين إلا أنه عاد فى عام ١٩٣٣ فهرب من ألمانيا بسبب السياسات النازية المضادة لليهودية. حيث مضى يبحث عن ملجأ فى ريجا ولكنه لقى مصرعه على أيدى النازى أثناء مذابح المعسكرات التى شهدتها المدينة.

ويعتبر دوبنو من أوائل الدارسين الذين أخضعوا الحسيدية (الهاسيديزم Hasidism) للدراسة المنهجية المنظمة. فعلى الرغم من أن الهاسيديزم هى فى الأصل حركة دينية واجتماعية إلا أنه فى ضوء قراءاته للمصادر الموثوق بها سواء من اتباع الحسيدية أو المعارضين لها قد نجح فى إلقاء كثير من الأضواء على التطورات التى لحقت التفكير الحسيدى والعوامل التى أثرت فيها والتى أدت إلى تقويتها وانتشارها أو إلى إضعافها وتراجعها.

ومنذ البداية فقد أوضح دوبنو أن الهاسيديزم هى على العكس من «الربانية» التى اعتبرت أن دراسة التلمود هو أساس اليهودية. كما أوضح أيضا الاختلافات ما بين الهاسيديزم وبين المتصوفين الذين يطلق عليهم (القبالاه) الذين يدعون لنوع من التصوف الذى يقوم على فكرة الخلاص المبنية على العذاب الجسمانى. وعلى العكس من ذلك رأى أن الهاسيديزم تتجه إلى تقديم تفاسير بسيطة للشرائع بدلا من التعقيدات التى يتوه الأفراد فى داخل متاهاتها. ومن هنا تأكيدها على قيمة الصلاة والعبادة الشخصية مبتعدة بذلك عن دراسة التلمود وتعاليمه.

ومن الناحية الثانية فقد نجحت هذه الدراسة أيضا فى كشف الكثير من

الخرافات التى ينطوى عليها التفكير الحسيدى كالإيمان بظهور المسيح وعبادة الملائكة وما إلى ذلك من الأفكار التى تسيطر على عقلية البسطاء ومشاعرهم. وإن كان الأهم من كل هذا أنه أوضح طبيعة التناقض الحاد الذى مرت به الحسيدية. فعلى الرغم من أنها بدأت كقوة أو كحركة متمردة تواجه ما هو قائم وتدعو إلى نبذ الصورة المتحجرة للدين اليهودى، فسرعان ما تراجعت وعقدت الاتفاقات مع القوى القديمة التى جاءت لمناهضتها؛ وبذا أصبحت الهاسيديزم بدورها حركة متعصبة، تبذل الجهد كل الجهد لمحاربة أى محاولات للتغيير مما ظلت تقوده الهاسكالا Haskala أو حركة التنوير اليهودية. وعلى العموم فقد ظهرت هذه الدراسة فى مؤلفه الضخم الذى قدمه عام ١٩٣١ بعنوان «حركة الهاسيديزم» وهو مؤلف لقى إقبالا شعبيا متزايدا حتى أنه أعيدت طباعته أكثر من مرة كان آخرها عام ١٩٦٩.

أما أعماله اللاحقة فقد جاءت أكثر نضوجا وأوضح منهجا، ولعل فى مقدمتها، وربما أهمها أيضا مؤلفه الضخم الذى قدمه فى ١٠ أجزاء فى الفترة من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠ عن قدرات وخصائص اليهودية والشعب اليهودى، وأيضا كتابه الذى نشره بعد ذلك فى خمسة أجزاء فى الفترة من ٦٧ إلى ١٩٧٣ عن «تاريخ اليهود» وهو كتاب ترجم إلى عدة لغات فى وقت قصير نسبيا.

والواقع أن هذا الكتاب الأخير يرى الكثيرون أن له أهمية خاصة ترجع بالدرجة الأولى إلى طابعه الأصيل، ولأنه أيضا يكشف عن معرفة كاملة بالاتجاهات الاجتماعية والظروف الاقتصادية التى عرفها تاريخ اليهود. ومن وجهة نظر دوبنو فإن اليهود ليسوا مجرد مجتمع دينى ولكنهم يمتلكون خصائص مميزة لثقافة قومية، ولهذا فقد خلقوا لأنفسهم نمطهم الثقافى والاجتماعى الخاص بهم مما يعنى فى النهاية أن تاريخ اليهود هو تاريخ العديد من المراكز الضخمة.

وتقترب من فلسفته عن تاريخ اليهود نظريته فى القومية الدياسبورية Diaspora Nationalism التى عبر عنها فى مؤلفه «رسائل فى اليهودية القديمة والحديثة» الذى صدرت طبعته الروسية فى عام ١٩٠٧، وكذلك مؤلفه «القومية

والتاريخ» وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التى تناول فيها الشخصية اليهودية والمجتمع اليهودى عبر فترات مختلفة حتى عام ١٩٥٨.

وعلى العموم فالواضح أن دوبنو قد عارض فى كل كتاباته عملية إدماج أو تذويب اليهود فى الكيانات الأخرى وإن كان قد آمن فى الوقت نفسه بأن الصهيونية Zionism ليست حقيقية أو واقعية. وهو الاعتقاد الذى أخذ يتضح فى كتاباته وأعماله المتأخرة، وبخاصة كتابه «تاريخ اليهود فى روسيا وبولندا» وقد صدر فى ٣ أجزاء وأيضا «تاريخ اليهود فى روسيا وبولندا من العصور القديمة حتى وقتنا الحاضر» ١٩٧٥ وأيضا فى سيرته الذاتية التى ظهر منها الجزء الأول والثانى الذى تناول فيها الفترة من ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٢ ثم الجزء الثالث والأخير فى عام ١٩٤٠.

• قراءات مقترحة •

- Steinberg, Aron. (ed.). Simon Dubnow: The Man and His Work. 1963.

★ ★ ★

٥١ - دنكان، أوتيس دودلى

51 - DUNCAN, Qtis Dudley

على الرغم من كل الانتقادات التى توجه للنظرية الإيكولوجية، واصطناع معظم الباحثين فى علم الاجتماع الحضرى الاتجاه الإيكولوجى الذى يركز على الدور الذى يقوم به الوضع الأيكولوجى فى فهم البناء الاجتماعى، وعمليات النمو الذى تتميز به الحياة الحضرية عموما، وإنها تجاهلت بذلك، أو على الأقل قللت من شأن العوامل الثقافية وأهميتها فى تشكيل المظاهر المختلفة للسلوك الإنسانى، فقد نجحت جهود وكتابات عالم الاجتماع الأمريكى، أو تيس دودلى دنكان عن قضايا ومشكلات الحراك الاجتماعى والتدرج الاجتماعى، وتطور المجتمع الحضرى بعامة فى تأكيد مكانة الايكولوجيا البشرية وأهميتها كمبحث متطور من مباحث علم الاجتماع الحضرى لا يساعد فحسب فى تحقيق قدر من المعرفة الأشمل والأعمق بطبيعة البناء الاجتماعى للمجتمع الأمريكى والمدن الأمريكية الجديدة، ولكنه يساعد أيضا فى ألقاء المزيد من الضوء على كثير من المشكلات النظرية والمنهجية التى يتعين الانتباه إليها كى يتم توظيف هذا الاتجاه توظيفا أكثر تكاملا.

ولقد ولد دنكان فى نوكونا Nocona بتكساس عام ١٩٢١، وحصل على درجته الجامعية الأولى من جامعة ولاية لويزيانا Louisiana عام ١٩٤١ ثم على درجة الماجستير من جامعة مينسوتا Minnesota عام ١٩٤٢ وبعدها التحق بجامعة شيكاغو التى حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٩. ومنذ وقتها درس دنكان كما حاضر فى الايكولوجيا البشرية فى عدد من الجامعات سواء فى أمريكا أو فى خارجها إذ عمل فى جامعة شيكاغو من عام ١٩٥١ ثم عندما أصبح أستاذا مساعدا لهذا الفرع (١٩٥٧ إلى ١٩٦٠)، وبعدها وهو أستاذ (١٩٦٠ إلى ١٩٦٢) وبعد

ذلك عمل كأستاذ زائر متميز فى نافيلد كوليج Nuffield بجامعة أكسفورد (١٩٦٨)، وأستاذا لعلم الاجتماع بجامعة أريزونا (١٩٧٣)، ثم عمل فى معهد الدراسات المتقدمة (العليا) فى فيينا عام ١٩٨٣، وهى أعمال ومناصب لم تحل أعباؤها دون تحمله مسئولية رئاسة الجمعية الاستشارية لتنسيق البحوث الخاصة بالدلالات والمؤشرات الاجتماعية من ١٩٧٢.

وبالرغم من أنه قد ظهرت منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية العديد من الكتابات والمؤلفات التى تعرضت فى غير قليل من الإفاضة لتاريخ الايكولوجيا وناقشت مناقشة تحليلية الوضعية التى تحققت لها. فقد تميزت كتابات دنكان بوضوح فهم خاص للايكولوجيا البشرية، ذلك أنها تدل على الدراسات الخاصة بالعلاقات المتبادلة بين التنظيم الاجتماعى والثقافة، وبين البيئة الطبيعية والتكنولوجيا القائمة، بمعنى مجموعة الأساليب الفنية التى يستخدمها الناس ويمارسونها فى أعمالهم، وهو فهم من الواضح أنه يجعل من الايكولوجيا البشرية مبحثا مميزا من مباحث علم الاجتماع الحضرى كفرع من كفروع علم الاجتماع العام له نظرياته ومنهجيته التى تمليها الخصوصية الذاتية طبعا إلى جانب إفادته من النظرية السوسيولوجية العامة والمنهجية العامة أيضا لعلم الاجتماع.

ومع أنه قد عرض لهذه النواحى جميعا لأول مرة فى كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع فيليب هاوزر Hauser ونشره عام ١٩٥٢ تحت عنوان «دراسة الإيكولوجيا البشرية» The Study of Human Ecology، فقد نجحت كتاباته اللاحقة فى إبراز المتضمنات المتشعبة لهذا الفهم الخاص. حيث أكدت دراسته الأولى التى أجراها على السود فى مدينة شيكاغو عام ١٩٥٧ مدى أهمية الايكولوجيا كإطار يتم من خلاله تحليل وبالتالى فهم التكوين العنصرى للسكان. وحيث كشفت هذه الدراسة عن حقيقة أن المحدد الأساسى للتنظيم الاجتماعى والسلوك إنما يتمثل فى التأثير الذى يحدثه المجتمع الحضرى الذى يعتبر كبر الحجم وكثافة السكان واللاتجانس من أهم خصائصه المميزة. بالإضافة إلى شدة الحراك الاجتماعى وتداخل المعايير وعدم وضوحها وما يرتبط بكل هذا من مظاهر تقسيم العمل

والتخصص، على النحو الذى نجده بصفة خاصة فى كتابه «الايكولوجيا البشرية والدراسات السكانية» الذى ظهر فى عام ١٩٥٩ وسعى فيه لإبراز الأثر الاجتماعى للخصائص والسمات الديموجرافية.

ولكن الكتاب الذى أرسى قواعد شهرة دنكان كان ولاشك مؤلفه ذائع الصيت الموسوم «البناء المهنى الأمريكى» The American Occupational Structure الذى نشره عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع بلاو Blau. ففى هذا الكتاب يكشف دنكان عن فهم دقيق لبناء وتطور المجتمع الحضرى المعاصر، وذلك من خلال تفسيره للسكان كقوة عمل متحركة، ذلك بالإضافة إلى العديد من المشكلات المنهجية التى أثارها فى ثناياه مما جعل الكتاب فى آخر الأمر واحدا من أهم الكتب فى الحراك الاجتماعى، حتى أن البعض قد وضعه فى مرتبة مؤلف بيتريم سوروكين Sorokin «الحراك الاجتماعى». وإن كان البعض قد اعتبر أيضا مقالته «التنظيم الاجتماعى والنسق الايكولوجى» التى نشرها فى كتاب فارس Faris المعنون «دليل علم الاجتماع الحديث» (١٩٦٤) لا تقل أهمية عن كتاب «البناء المهنى الأمريكى» حيث برز فى كليهما اهتمام بمقاييس المكانة والمركز ومقاييس الوضعية المهنية والعوامل التى تتحدد بها نطاقات التدرج الاجتماعى. وهى جوانب نجد صداها أيضا فى دراسته الرائدة عن التدرج الاجتماعى التى انتقد فيها بعض أعمال لويد وارنر Warner التى تدور حول الطبقة الاجتماعية فى أمريكا والتى نشرها بالاشتراك مع هارون بوفوتز Pfautz فى المجلة الاجتماعية بعنوان «تقييم نقدى لعمل وارنر فى تدرج المجتمع الصغير» A Critical Evaluation of Warner's Work in Community Stratification.

وتبدو أهمية هذا المنظور بعيدالمدى إذا ما وقفنا على أمرين بذاتهما، الأول حديثه فى معظم هذه الكتابات عن بعض المصطلحات التى يشيع استخدامها فى الدراسات الايكولوجية مثل مصطلح المجتمع الصغير Community ومصطلح المدينة أو العاصمة Metropolis ومصطلح الإضافة إلى العاصمة بمعنى أحد أبنائها Metropolitan وأيضا مصطلح الإقليم أو المنطقة الحضرية Metropolitan Region فهو يرى أنها مقولات ومفهومات أو حتى بناءات تم تشييدها من قبل كثير من الباحثين

بطرق مختلفة. ومن هنا فهى تصنيفية بالدرجة الأولى وذات طبيعة خلافية نظرا لصياغتها بطرق مختلفة تخدم فى الأغلب وجهات نظر الباحثين الذين صكوها أو اعتمدوا عليها، وهو موقف نجح فى التعبير عنه فى كتابه المعنون «المدينة والإقليم» Metropolis and Region (١٩٦٠) الذى قدمه بالاشتراك مع وينسبرو Winsborough وسكوت Scott وستانلى ليبرسون Lieberson وبيفرلى دونكان.

أما الأمر الثانى الذى تجب الإشارة إليه فهو موقفه من التكنيكات والأساليب الكمية التى يجرى استخدامها فى تحليل المشكلات السكانية والتوزعات المكانية. ففى كتابه الذى قدمه عام ١٩٦١ بالاشتراك أيضا مع كوزورت Cuzzort وبيفرلى دونكان تحت عنوان «الجغرافيا الإحصائية» Statistical Geography نجده يتقصى طرائق وحدود وبالتالى إمكانيات استخدام هذه الأساليب التى أصبحت تستخدم على نطاق واسع فى علم الاجتماع الحضرى، وأيضا فى التخطيط والتنمية والجغرافيا الاقتصادية والايكولوجيا ربما بشكل متداخل يقلل من قيمتها ومن الفائدة التى يرجى تحقيقها من وراء استخدامها.

وأيا كان الأمر فمازالت أعمال دنكان تلهم الكثير من شباب العلماء والباحثين والمتخصصين فى علم الاجتماع الحضرى، والذين يثير اهتمامهم بصفة خاصة مدخل الايكولوجيا البشرية كمدخل بمقدوره أن يعطى صورة متكاملة للتفاعل بين الإنسان والبيئة والظواهر التى يتجسد فيها هذا التفاعل.

- قراءات مقترحة•

- Lipset, S. M. and R.Bendix; Social Mobility in Industrial Society. 1979.
- Warren, Roland L; The Community in America. 1978.

* * *

٥٢ - ديورانت، ول

52 - DURANT, Will and Ariel

يشغل وليم جيمس ديورانت مكانة مرموقة لست أظن أن أحدا من المهتمين بالحضارة وتاريخ الثقافة والمجتمع يجهلها. وظنى أن هذا لا يصدق بالنسبة إلى المتخصصين فحسب، ولكنه يصدق أيضا بالنسبة إلى القارئ العادى الذى تجذبه قضية الإنسان وقصة تطوره الحضارى بوجه عام.

ولقد ولد ديوارنت فى عام ١٨٨٥ فى نورث آدمز North Adams بولاية ماساشوستس الأمريكية، وتوفى فى لوس انجلوس بأمريكا عام ١٩٨١ وقد شاركته معظم سنى هذه المسيرة الطويلة (٩٦) عاما زوجته إدا كوفمان Ada Kaufman (١٨٩٨ - ١٩٨٢) وهى إحدى طالباته ومن أصل روسى كان قد التقى بها أثناء تدريسه بمدرسة الفرير الجديدة Ferrer Modern School فى نيويورك، وتزوجها عام ١٩١٣ وعرفت منذ ذلك الحين باسم إيريل Ariel وهو الاسم الذى اتخذته بصفة رسمية بعد زواجها. وكان ديورانت وقتها فى الثامنة والعشرين من عمره بينما هى فى الخامسة عشرة. وقد قامت بدور كبير فى حياته العلمية حيث اشتركت معه فى تأليف بعض أعماله الضخمة لعل فى مقدمتها كتابه «قصة الحضارة» Story of Civilization الذى جاء فى عشرة أجزاء كتبها فى الفترة من ١٩٣٥ - ١٩٧٥ ونشرت فى شكل سلسلة شعبية فى لغة بسيطة مشوقة، وكان بذلك أشبه ببانوراما واسعة فى التاريخ والفلسفة العامة والحضارة.

ولقد ترك ديورانت عددا من المؤلفات الهامة أولها «الفلسفة والمسألة الاجتماعية» Philosophy and Social Problem (١٩١٧)، بالاضافة إلى مجموعة من المؤلفات التى شاركته زوجته فى بعضها. ويعتبر كتابه «قصة الفلسفة» The Story of

Philosophy الذى نشر لأول مرة عام ١٩٢٦ واحدا من أهم الكتب التى ظهرت باللغة الإنجليزية فى الموضوع، وأيضا من أحب الكتب التى أقبل القراء عليها لدرجة أن وصلت مبيعاته فى أقل من ٣ عقود إلى أكثر من مليونى نسخة وخاصة بعدما تمت ترجمته إلى العديد من اللغات.

ومع أنه صدرت له فى العام التالى قصته الوحيدة باسم «التحول» Transition وهى نوع من السيرة الذاتية التى تناول فيها المراحل الأولى والمبكرة من حياته وأحلامه السياسية والاجتماعية، فإن الكثيرين يعتبرون أن مؤلفه «روسو والثورة» Rousseau and Revolution الذى ظهر فى عام ١٩٦٧ وهو يمثل الجزء العاشر من موسوعته الثقافية التاريخية «قصة الحضارة» هو أهم كتاباته قاطبة وأكثرها عمقا وتحليلا، وخاصة أنه عالج هنا الظاهرة السياسية بمفهومها الواسع. ويستندون فى ذلك إلى أن هذا الجزء قد فاز بجائزة بوليتزر Pulitzer وإن كان من الممكن النظر إلى هذا من زاوية أخرى تكشف عن مدى عمق العلاقة والفهم المتبادل بين ديورانت وزوجته التى اشتركت معه فى هذا الجزء ومن قبله أيضا فى الجزء السابع الذى ظهر تحت عنوان «وقد بدأ عصر العقل» The Age of Reason Begins (١٩٦٠) وأيضا «دروس التاريخ» Lessons of History (١٩٦٨). أما كتابه الذى نشره فى عام ١٩٧٠ بعنوان «تفاسير وشرح الحياة: مسح للأدب المعاصر» Interpretations of Life: A Survey of Contemporary Literature: فيعتبر محصلة لتجاربة وخبراته وملاحظاته على مدى حياته وهو ينهل من عيون الآداب الحديثة مما جعله أقرب إلى ذوق القارئ غير المتخصص. وأخيرا كتابهما الذى أصدراه عام ١٩٧٧ وفيه وصف لحياتهما الفكرية والشخصية المشتركة فجاء سيرة ذاتية متكاملة باسم «يورانت ول وإيريل: سيرة ذاتية مشتركة» Durant Will and Ariel: A Dual Autobiography.

★ ★ ★

٥٣ - دوفرجيه، موريس
53 - DUVERGER, Maurice

يمثل موريس دوفرجيه أستاذ القانون وعلم الاجتماع السياسى بجامعة باريس حلقة بارزة من حلقات تطور الفكر الاجتماعى الفرنسى الذى يمكن تتبع أصوله فى كتابات بودان وروسو ومونتسكيو، وفى وقت أكثر حداثة إميل دوركايم وتراث المدرسة الفرنسية بوجه عام. بل إنه يعتبر من وجهة نظر بعض مؤرخى الفكر الاجتماعى والسياسى من الورثة الشرعيين المباشريين لجيانا موسكا وميتشلز وماكس فيبر، حيث أسبغ على علم الاجتماع السياسى وفلسفة التاريخ توجها أكثر تميزا وحيوية، ما كان علم الاجتماع الفرنسى بدونه إلا ليصبح أكثر فقرا وضحالة، وذلك بإثرائه التقليد التاريخى الفلسفى الذى سار فيه رايموند آرون Aron وجورج فريدمان Friedman. فهو من جيل الكتاب والمفكرين الاجتماعيين الذى تلقوا تعليمهم الرسمى فى سنوات ما قبل الحرب ووجهوا تفكيرهم للإحاطة على نحو واسع بمجالات علم الاجتماع وللكتابة فى المشكلات والقضايا الاجتماعية مثل آرون وجيرفيتش وكويفيليه Cuvillier، وهى الكتابات التى وضحت آثارها فى سنوات ما بعد الحرب.

ولقد تعرض دوفرجيه منذ فترة مبكرة من حياته العلمية لتأثير الاتجاه الوظيفى الذى ظهر جليا فى تناوله للقضايا وطريقة تحليلها. وبالرغم من تأثره بإميل دور كايم فقد انتقد موقفه الذى ينظر إلى الظواهر على أنها أشياء Things. وذلك على اعتبار أن المجال الذى يصلح فيه النظر إلى الحقائق على أنها أشياء يمكن المقارنة بينها هو مجال الدراسة المقارنة للنظم والروابط الاجتماعية، كاتحادات العمال والنقابات وأشكال الحكومات والأحزاب السياسية، وهو منظور

انعكس على أية حال فى معظم كتاباته ودراساته وبخاصة الأحزاب السياسية التى مثلت جانبا كبيرا من اهتمامه، إذ أصدر كتابين رئيسيين على الأقل هما «الأحزاب السياسية» Partis Politiques عام ١٩٥٤ و«الأحزاب السياسية والطبقات الاجتماعية فى فرنسا» Partis Politiques et Classes Sociales en France عام ١٩٥٥، وهما كتابان ينطويان على وجهه نظر تحليلية تعتبر صدى لتعمقه فى الدراسات الخاصة بالأحزاب السياسية وجماعات الضغط وعمليات الحكم والإدارة بوجه عام، كما أنهما كتابان لهما طابع ملح أو خاصية أساسية إذ أقامهما على أساس مقارن بهدف التوصل إلى بعض التعميمات أو المبادئ العامة التى يتحدد بها شكل وطبيعة العلاقات فى التنظيمات والمؤسسات السياسية والعمل السياسى نفسه.

ويظهر فى الكتاب الأول مدى حرص دوفرجيه على إبراز وجهة النظر التى يتبناها روبرت ميتشلز فيما يتعلق بالأحزاب الشيوعة فى الدول التى تعتنق هذا المذهب والتى تذهب إلى أن الأحزاب السياسية الثورية فى هذه الدول قد تحولت إلى نوع من البيروقراطية والأوليجاركية، وهو الأمر الذى يتفق معه دورفرجيه إلى أبعد الحدود، حيث أكدت دراسته على إبراز ملامح الشخصية الأوليجاركية التى أصبح يتسم بها زعماء الأحزاب فى البلدان التى تأخذ بنظام الحزب الواحد عموما. كما كشف الكتاب أيضا عن عدد من التعميمات التى صاغها بصدد العلاقة بين النظام الانتخابى وعدد الأحزاب مع إشارات واضحة للتأثيرات التى أصبح يمارسها نظام التمثيل النسبى فى فرنسا.

أما الكتاب الثانى فيعتبر بدوره دراسة مقارنة للأحزاب السياسية، ولكنه يؤكد فيه على قضايا الانتماء الحزبى والأيديولوجى، وعلى دور الطبقة العاملة الذى اعتقد انه ظل مرتبطا بشكل تقليدى بالجناح اليسارى، وهو ما طرأ عليه غير قليل من التغيير حيث لم يعد لهذا الدور سو» تأثير ضئيل على نتائج الانتخابات، ويستشهد دوفرجيه على ذلك بالانتخابات التى أجريت فى فرنسا عام ١٩٥١ حيث لم يصوت للحزب الاشتراكى سوى حوالى ٦٣٪ من أفراد هذه الطبقة مما يعنى ضمنيا حدوث تغيرات فى البناء الطبقى نفسه، وفى تطلعات الطبقة العاملة، إن لم يكن خلخلة هذه الطبقة وتهافتها.

وأيا كانت درجة الاتفاق مع تلك النتائج التى ينتهى إليها دوفرجيه فى هذا الكتاب فإنها تتمتع ولاشك بتقدير كبير، خاصة أن الكثيرين يعتبرونه واحدا من أهم وأشهر منظرى علم السياسة الحديث فى وقتنا الراهن. فقد أسس كما شغل منصب مدير مركز الدراسات السياسية Centre d'Etudes Politique فى بوردو Bordeaux وأحد كبار الكتاب والمحللين السياسيين فى مجلة Le Monde والإكسبريس L'Express، وإن كان من المهم القول بأن مواقفه ورؤاه السياسية من الصعب الإحاطة بها تماما دون الرجوع إلى كتبه الأخرى التى دارت من حول القضية السياسية. فقد ظهر له كتاب «علم السياسة المعاصر» La Science Politique Contemporaine عام١٩٥٠ ثم كتابه عن المناهج فى علم السياسة M'ethodes de la Science Politique عام ١٩٥٩، ثم ظهر له بعد ذلك «فكرة السياسة: استخدامات القوة فى المجتمع» The Idia of Politics: The Uses of Power in Socity عام ١٩٦٦.

وبالرغم من أهمية هذه المؤلفات جميعها فمازال البعض يرى أن فهم موريس دوفرجيه فهما موضوعيا يساعد فى التعرف على موقفه من العلوم الاجتماعية ذاتها وعلى نظرته إلى الدور الذى تقوم به هذه العلوم فى عالم اليوم، لا يتسنى إلا بالوقوف على كتابه «المدخل للعلوم الاجتماعية، مع إشارة خاصة لمناهجها» An Introduction to the Social Sciences (With Special Reference to The Methods) الذى نشره بالفرنسية لأول مرة عام ١٩٦١ ثم نشر بعد ذلك مترجما إلى الانجليزية فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٤، وهو كتاب يعتبر بشكل عام محاولة ناضجة لتحديد مكانة العلوم الاجتماعية فى العالم المعاصر الذى أصبح خاضعا بشكل مباشر ومؤثر لمختلف تأثيرات وسائل الإعلام والدعاية (البروباجاندا) والإعلان وسائر أدوات الاتصال والتأثير.

فى هذا الكتاب تتبع دوفرجيه التطورات التى لحقت العلوم الإجتماعية التى انبثقت من الفلسفة الاجتماعية حتى أصبح لها شخصيتها الذاتية وانساقها العلمية المميزة. ومع أنه يعترف بحدود هذه التطورات وبآثارها فقد اعتقد أن أهمها يدور فى مجالات وسائل البحث وأساليبه وتكنيكاته؛ ولهذا نجده يفيض فى دراسة

المناهج ومعالجة أساليب البحث العلمى ووسائل جمع المادة وطرق الملاحظة والأساليب التى يلجأ إليها الباحثون عند تحليلهم للمادة وتفسيرها. وهو يعلن صراحة أن العلوم الاجتماعية لم تزل فى مكانة متخلفة فى هذا المجال، ويرجع السبب فى هذه الوضعية إلى وجود اختلافات أساسية على التصورات الرئيسية بل والتعاريف الأولية، وهو ما عبر عنه بتخلف النظرية عن الممارسة والتطبيق. ومن هنا يعتبر هذا الكتاب بالدرجة الأولى محاولة لتوضيح المفهومات والمبادئ فى هذا المجال، علاوة على كونه دراسة للمسلمات النظرية والوسائل التطبيقية وهى محاولة مازالت تتمتع بكثير من الاحترام وتعتبر مرجعا لجماهير الدراسين والباحثين.

• قراءات مقترحة•

- Goldman, Alvin I: A Theory of Human Action. 1970.
- Lukas Steven: Power: A Radical View. 1974.
- Oakeshott. Michael: Rationalism in Politics. 1967.

★ ★ ★

E

٥٤ - إيستمان، ماكس فورستر (١٨٨٣ - ١٩٦٩)

54 - EASTMAN, Max Forrester

كانت نظراته ومواقفه الإصلاحية سببا فى اعتقاله أكثر من مرة، كما كانت سببا فى إغلاق المجلات التى أشرف على تحريرها وتقديم كل محرريها للمحاكمة، ولكن المحكمة انقسمت على نفسها نتيجة لاختلاف وجهات نظر أعضائها ما بين مساند له ومتحامل عليه. ومع ذلك فهو لم يفقد إيمانه أبدا بكل الدعاوى التى نادى بها، فأنشأ أول جمعية (رجالية) وقفت إلى جانب المرأة فى مناداتها بحقها فى التصويت والانتخابات، وكانت هذه خطوة مبكرة جداً (١٩١٠) حتى بدا الأمر فى عين الرأى العام الأمريكى المحافظ شيئا مبتذلا ومستهجنا.

ولد ماكس فورستر إيستمان فى ١٢ يناير عام ١٨٨٣ فى كاناندايجو Canandaigua فى نيويورك، وتوفى فى ٢٥ مارس ١٩٦٩ فى بريدج تاون Bridgetown بالبريادوس Barbados وحقق شهرته الواسعة كواحد من زعماء الاصلاح التقدميين الذين قادوا الكثير من الحملات الراديكالية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. وإن كان قد اتخذ بعدما تقدمت به السن مواقف انتقادية من سياسات الاتحاد السوفياتى والفكر الماركسى عموما.

على أية حال فقد كانت حياته مزيجا من العمل الصحفى والعمل الأكاديمى الجامعى. فقد تلقى علومه فى ويليامز كوليج Williams College فى ويليامزتاون Williamstown فى ولاية ماسوشيستس Massachusetts الأمريكية وهى الجامعة التى تخرج فيها فى عام ١٩٠٥، والتحق بجامعة كولومبيا حيث قام بتدريس الفلسفة والمنطق لمدة أربعة أعوام.

ولقد كان للظروف التى تعرضت لها أوربا والتى امتدت آثارها إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال العقدين الأول والثانى من القرن دخل كبير فى تشكيل نشاطاته العلمية والعملية، والتى تحققت بها شهرته. ففى نهايات الحرب العالمية الأولى أقدم ايستمان على نشر وتحرير مجلة «الجماهير» The Masses وهى مجلة سياسية وأدبية اشتهرت باتجاهاتها المتطرفة التى كانت سببا فى تقديم هيئة تحريرها إلى المحاكمة مرتين فى عام ١٩١٨ لاتخاذها موقفا معارضا لدخول الولايات المتحدة الحرب.

ولقد أثار هذا الموقف ثائرة فئات وشرائح عريضة من المجتمع الأمريكى التى أعلنت تعاطفها معه، فأقدم من ثم على تحرير مجلة جديدة باسم The Liberator لم تكن سياستها تختلف كثيرا عن سابقتها وإن أفرد فيها مساحة أكبر للنقد الأدبى وللشعر (١٩٢٢) عندما أخذ يعد للسفر إلى روسيا لدراسة النظام السوفيتى عن كثب.

والواقع أن زيارته للروسيا كانت نقطة تحول فى حياة ايستمان الشخصية والفكرية على السواء، فقد تزوج من إلينياكرايلنكو Krylenko شقيقة وزير العدل السوفيتى وقتذاك. ولكنه عندما عاد إلى الولايات المتحدة كانت الفكرة التى رسخت فى ذهنه نتيجة زيارته للروسيا هى أن الهدف الأصيل لثورة أكتوبر قد أجهض على أيدى جماعة فاسدة صارت إليها كل الأمور.

ومهما يكن من شىء فقد كان لذلك الاعتقاد أثره فى كتاباته وبخاصة تلك التى ظهرت فى العشرينات والثلاثينات حيث نشرت له عدة كتب هاجم فيها التطورات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى ساعدت بدورها فى تدعيم شهرته. من بينها: «منذ وفاة لينين» Since Lenin Died الذى ظهر فى ١٩٢٥ و«فنانون فى الزى الرسمى» Artists in Uniform وظهر فى ١٩٣٤، و«نهاية الاشتراكية فى روسيا» The End of Socialism in Russia فى ١٩٣٧ و«روسيا الستالينية وأزمة الاشتراكية» Stalin's Russia and the Crisis of Socialism (١٩٣٩) كما قام بترجمة كتاب ليو تروتسكى Trotsky «تاريخ الثورة الروسية» فى عام ١٩٣٢.

وبالرغم من أن هذه الكتب قد أفلحت فى إلقاء كثير من الضوء على الواقع السياسى والاجتماعى الذى عاشه الاتحاد السوفيتى خلال تلك الفترة وكشفت عن كثير من القوى والديناميات التى تدخلت فى صياغة هذا الواقع وتشكيله فإن الكثيرين مازالوا يرون أن عام ١٩٤١ بالذات كان هو العام الذى بدأت شهرته تأخذ طابعا عالميا بعدما أصبح محررا متجولا لمجلة ريدرزديجست Reader's Digest. إذ أتاح له ذلك أن يتناول بقلمه كل ما يثيره أو يجذب اهتمامه من موضوعات بما فى ذلك الأدب والفن والشعر. فظهر له فى عام ١٩٦٢ كتابان هما: «متعة الشعر» Enjoyment of Poetry وهو كتاب قديم يرجع إلى عام ١٩١٣ عاد إلى إبرازه وتطويره، و«متعة الضحك» Enjoyment of Laughter وهما كتابان أعيدت طباعتهما أكثر من مرة. ذلك بالاضافة إلى عملين رئيسيين آخرين ضمنهما سيرته الذاتية ظهر أولهما فى ١٩١٨ بعنوان «الاستمتاع بالحياة» Enjoyment of Living، وظهر الثانى فى عام ١٩٦٥ أى قبل وفاته بأربع سنوات بعنوان «الحب والثورة: رحلتى فى فترة من الزمان» Love and Revolution: My Journey Through an Epoch.

• قراءات مقترحة•

- Cantor. Milton: Max Eastman. 1970.
- O'Neill. William L.; The Last Romantic: A Life of Max Eastman. 1978.

★ ★ ★

٥٥ - إيزلى ، لورين كورى

55 - EISELEY, Loren Corey

يعتبر عالم الأنثربولوجيا الأمريكى لورين كورى إيزلى من العلماء القليلين الذى نجحوا فى تناول علم دراسة الإنسان بأسلوب سهل جعله فى متناول القارئ غير المتخصص ، وفى طبع الأنثربولوجيا بطابع شعبى أتاح للكثيرين من القراء العاديين فرصة التعرف على هذا التخصص وذلك من خلال مؤلفاته وأحاديثه التليفزيونية التى جعلته وجها مألوفا لدى الجماهير .

ولقد ولد إيزلى عام ١٩٠٧ فى لينكولن Lincoln بنبراسكا Nebraska . ونال تعليمه فى جامعه نبراسكا التى حصل منها على درجته العلمية الأولى عام ١٩٣٣ . ثم التحق بجامعة بنسلفانيا حيث حصل على درجة الماجستير (١٩٣٥) ثم درجة الدكتوراه عام ١٩٣٧ . أما حياته العلمية وطريقه الأكاديمى فقد بدأهما فى جامعة كنساس Kansas التى عمل بها فى الفترة من ٣٧ إلى ١٩٤٤ ثم أوبرلين كوليج Oberlin فى الفترة من ٤٤ إلى ١٩٤٧ . وفى رحلته الطويلة مع جامعة بنسلفانيا التى دامت ثلاثين عاماً تبوأ إيزلى العديد من المناصب وشغل أكثر من مكان ، فقد عمل استاذاً للأنثربولوجيا (١٩٤٧-١٩٦١) ومحاضراً للإنسان الأول فى جامعة المتحف University Museum فى الفترة من ٤٧ إلى ٧٧. كما أصبح رئيساً للجامعة (٥٩ - ٦١) وأستاذاً للأنثربولوجيا وتاريخ العلوم من عام ١٩٦١ وحتى وفاته فى فيلادلفيا عام ١٩٧٧ . أضف إلى ذلك عمله كمستشار للمتاحف والمؤسسات العلمية ولدى الحكومة الأمريكية ، كما حظى بكثير من مظاهر التكريم والتشريف فكان عضواً فى المعهد القومى للفنون والآداب، وكذلك الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم American Academy of Arts and Sciences .

وقد تركزت بحوث إيزلى العلمية فى الكشف عن المستحجرات وتحديد أعمارها وأزمنتها الجيولوجية وفى هذا فقد كان يهتم بصفة خاصة بتلك المستحجرات التى ترجع إلى العصور البليوستسينية Peleosticine وإلى العصر الجليدى Ice Age التى قام بتوصيفها وتصنيفها فى فهارس كاملة .

وتغطى كتاباته هذه العصور بشكل متعمق حيث نجده يتعرض لكثير من المسائل المرتبطة بالتطور، كما يكشف عنه السجل الحفرى . وفى هذا فقد ترك إيزلى أكثر من اثنى عشر كتاباً ومؤلفاً فى العلم والطبيعة البشرية من بينها ستة كتب على الأقل تمتعت بشهرة ممتازة نظراً لسلاسة أسلوبها والطابع القصصى الذى يغلب عليها. وربما كان فى مقدمة هذه الكتب كتابه الذى أصدره بعنوان «الرحلة الواسعة» The Immense Journey عام ١٩٥٧ ، وكتابه « قرن دارون» Darwin's Century (١٩٥٨) و«قبة الزمان» Firmament of Time (١٩٦٢) و « الكون غير المتوقع» The Uexpected Universe (١٩٦٩) و «مملكة الظلام» The Night Country (١٩٧١) و«كل الساعات الغريبة» All Strange Hours (١٩٧٥) .

ومن الناحية العلمية فإن كتابه «قرن دارون» يعتبر أفضل هذه الكتب جميعا إن لم يكن واحدا من أفضل وأهم الكتب المعروفة. فهو دراسة رزينة للأسس العقلية للنظرية التطورية الحديثة، وهذا يختلف عن باقى كتبه التى قلنا أنه تناولها بأسلوب بسيط وفى قالب قصصى مما جعلها تلقى رواجًا ملحوظًا ، والحقيقة أنه فى هذه الكتابات العلمية البسيطة لم يكن إيزلى يختلف كثيراً عن الطريقة التى كان يكتب بها كتاباته الأدبية وبخاصة مجموعاته الشعرية التى كان يصدرها من آن لآخر وفى مقدمتها ديوانه «نوع آخر من الخريف» Another Kind of Autumn الذى ظهر عام ١٩٧٧ قبيل وفاته بشهور قليلة .

★ ★ ★

٥٦ - إلياد، ميرسو

56 - ELIADE , Mircea

ترجع شهرة ميرسو إلياد الذى يعتبر واحداً من أشهر علماء تاريخ الأديان المقارن History of Comparative Religion إلى بحوثه وكتاباته فى اللغة الرمزية Symbolic التى تستخدم فى الاحتفالات وفى الشعائر والتقاليد والطقوس الدينية المختلفة ، ومحاولته ربط معناها ودلالتها بالأساطير الرئيسية التى توجد فى مختلف بقاع العالم ، والتى اعتبرها أساساً للظاهرة الطبيعية الكونية، ولكل الظواهر الخارقة والغامضة الأخرى .

وإلياد مؤرخ اجتماعى رومانى الجنسية أصلاً فقد ولد فى بوخارست عام ١٩٠٧ ، وحصل على درجة الماجستير فى الفلسفة من جامعتها (١٩٢٨) . ولكنه درس اللغة السنسكريتية Sanskrit والفلسفة الهندية فى جامعة كلكوتا Calcutta فى الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣١ ثم عاش فترة تزيد على ستة أشهور فى صومعة ريشيكيش Rishikesh بإحدى قمم الهيمالايا ، عاد بعدها إلى رومانيا حيث نال درجة الدكتوراه عام ١٩٣٣ فى رسالة عن اليوجا قدمها بعنوان : «اليوجا : مقالة فى أصول التصوف الهندى» Yoga : Essai Sur Les Origines de la Mystique Indienne .

ولقد شغل ميرسو إلياد عدداً من المناصب العلمية والعملية الهامة. إذ عمل أستاذاً مساعداً وقام بتدريس تاريخ الأديان والفلسفة الهندية فى جامعة بوخارست من عام ٣٣ إلى ٣٩ وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية انتقل إلى باريس فى عام ١٩٤٥ كأستاذ زائر فى مدرسة الدراسات العليا فى السربون. ولكنه انتقل بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٦ حيث التحق بجامعة شيكاغو كأستاذ لتاريخ الأديان أيضا. ثم أقدم فى عام ١٩٦١ على تأسيس المجلة الدولية لتاريخ

الأديان وهى مجلة أسهمت بقدر كبير فى التعريف وأيضاً ترسيخ هذه الاهتمامات.

وتتبلورالفكرة المحورية فى كتابات ميرسو إلياد فى أن التجربة الدينية كما نراها فى المجتمعات التقليدية والمعاصرة هى فى جوهرها ظواهر يمكن تصديقها وذلك على اعتبار أنها تجليات المقدس فى العالم . وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فقد عكف إلياد فى بحوثه ودراساته على استقصاء أشكال هذه التجليات وكيفية انتشارها فى العالم خلال الزمان.

وفى كل أعماله تكمن هذه الفكرة التى صارت توجه تفكيره وتفسيره الذاتى للثقافة الدينية، حيث نجده يقدم من خلالها تحليلاً دقيقاً للأشكال الغامضة والتجارب الصوفية، الأمر الذى أكسب مؤلفاته طابعاً مميزاً، حتى تلك المؤلفات التى كتبها فى مرحلة مبكرة من حياته العلمية، وهو ما يظهر فى كتابين صدرا له فى عام ١٩٤٩ وهما «ملامح فى تاريخ الأديان» Traité de L'Histoire des Religions و«أسطورة العودة السرمدية» La Mythe de L'éternal Retour .

ولكن كتاباته اللاحقة هى التى أكسبته تلك المكانة العلمية المرموقة التى يتمتع بها . ففى عام ١٩٦٩ صدر مؤلفه « الضالة المنشودة : تاريخ ومعنى» The Quest : History and Meaning . ثم صدر له بعد ذلك « الطقوس والشعوذة والأنماط الثقافية : مقالات فى الأديان المقارنة» : Occultism, Witchcraft and Cultural Fashion Essays in Comparative Religion (١٩٧١)، وهو كتاب يبلور فيه إلياد نظرياته كلها حيث وجد فى الأسطورة الأولى شكلاً نقياً وخالصاً للتجربة الدينية هو الذى يعطى الظواهر الدينية فى العالم ملامحها العامة وخصائصها الأساسية، كما تضمنت سيرته الذاتية التى نشر الجزء الأول منها عام ١٩٨١ الكثير من جوانب فلسفته الدينية ورؤاه عن علاقة الدين بالأفراد وبالمجتمعات عموماً .

● قراءات مقترحة●

- Banton . M.; Anthropological Approaches to the Study of Religion. 1976.
- Robertson, R.: The Sociological Interpretation of Religion. 1981.
- Yinger, J.M.; Religion , Society and the Individual. 1957.

★ ★ ★

٥٧ - إيفانز بريتشارد ، السير إدوارد إيفان
57 - EVANS - PRITCHARD, Sir Edward Evan

لعل واحداً من كبار أساتذة الأنثربولوجيا البريطانيين لم يترك أثرا فى الأجيال المعاصرة من علماء الأنثربولوجيا لا فى بريطانيا فحسب ، ولكن فى أنحاء عديدة من العالم، وخاصة تلك التى ترتبط باتجاهات وتقاليد البنائية البريطانية ، مثلما ترك السير إدوارد إيفان إيفانز - بريتشارد . الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أشهر علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانيين ، وهى الشهرة التى اكتسبها بسبب بحوثه ودراساته الحقلية (الميدانية) التى أجراها فى القبائل والثقافات الأفريقية على وجه الخصوص.

ولقد ولد إيفانز بريتشارد فى عام ١٩٠٢ فى كروبروه Crowborough بمقاطعة سسكس Sussex بإنجلترا، وبدأ تعليمه فى كلية ونشستر التى هيأته للالتحاق بكلية أكستر فى جامعة أكسفورد التى حصل منها على درجته العلمية الأولى فى التاريخ. وبعدها التحق بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية لمتابعة دراساته العليا، حيث بدأت تظهر ميوله إلى الأنثربولوجيا التى نال فيها درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٢٧ . وذلك عن دراسته التى أجراها عن الأزاندى Azande والتى كانت موضوعاً لكتابه الذى ظهر بعد ذلك بسنوات فى عام ١٩٣٧ بعنوان «الشعوذة والعرافون والسحر عند الأزاندى» Witchcraft. Oracles and Magic Among the Azande وهى أول دراسة حقلية مركزة تتم على أحد الشعوب الأفريقية حيث أمضى حوالى العامين (٢٠ شهراً) فى منطقة البحث، وتعلم لغة الأهالى التى استخدمها فى مقابلاته ولقاءاته مع الأهالى نزولاً على متطلبات المنهج الأنثربولوجى كما عرفه على أيدى أستاذه مالينوفسكى الذى تتلمذ على يديه. وبعد ذلك قام بعدة دراسات

حقلية أخرى فى النوير Nuer بجنوب السودان وأصدر عن هذه الدراسات ثلاثة كتب على الأقل، أولها هو كتاب النوير The Nuer الذى ظهر فى عام ١٩٤٠ تحت عنوان طويل نسبيا هو : وصف لأحوال المعيشة والنظم السياسية عند أحد الشعوب النيلية The Nuer : A Deiscription of the Modes of Livelihood and Polictical Institutions of a Nilotic People ، وقدم فيه وصفًا لأحوال المعيشة والنظم السياسية عندهم. أما كتابه الثانى فهو كتاب « القرابة والزواج عند النوير» Kinship and Marriage Among the Nuer الذى ظهر عام ١٩٥١ على الرغم من أن إيفانز بريتشارد كان قدفرغ منه منذ فترة طويلة ولكن ظروف الحرب العالمية هى التى منعت نشره فى أوائل الأربعنيات. ثم «الدين عند النوير» Nuer Religion الذى ظهر عام ١٩٥٦. ذلك بالإضافة إلى كم هائل من المقالات التى اعتمد فيها على المادة الخام التى كان يجمعها أثناء زياراته المتعددة (وإن تكن على فترات متقطعة) لجنوب السودان، وهى كتابات يمكن بسهولة أن نلاحظ فيها تأثير مالينوفسكى من ناحية (على الرغم من اختلافهما فى النظرة إلى التاريخ الذى كان مالينوفسكى يدعو صراحة إلى عدم استخدامه فى البحوث الأنثربولوجية) وكذلك تأثير الأستاذ سليجمان Seligman من ناحية ثانية والذى يعتبر فى الحقيقة أول من دفعه إلى الاهتمام بدراسة المجتمعات القبلية فى جنوب السودان فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٦، ذلك بالإضافة إلى بعض التأثيرات الأخرى التى جاءته من المدرسة الفرنسية وبخاصة إميل دوركايم Durkheim الذى يظهر بوضوح فى كتابه «الدين عند النوير» وأيضاً ليفى برول Bruhl وموريس هاليفاكس Halifax ومارسيل موس Mauss علاوة على تأثره ببعض الرواد الكبار من أمثال السيرهنرى مين Maine وفوستيل دوكولانج Foustel de Coulanges على وجه الخصوص. ولهذا كله فلا يعتبر غريباً أبداً أن ينظر إلى إيفانز بريتشارد على أنه واحد من كبار الوظيفيين حيث كان يبحث دائماً عن علاقة الأجزاء بعضها ببعض وعلاقتها بالكل الاجتماعى، وهو المبدأ الأساسى الذى انطلقت منه كل بحوثه وكتاباته التى استقى مادتها الاثنوجرافية فى ضوء ملاحظاته ومعايشته للنظم والظواهر التى تناولها بالدراسة والتحليل.

ويعتبر عام ١٩٤٠ بمثابة نقطة انطلاق حقيقية لإيفانز بريتشارد ، فبالرغم من تنقلاته ورحلاته الواسعة والتى زار خلالها مصر حيث قام بالتدريس فى الجامعة المصرية بالقاهرة وألقى عددا من المحاضرات التى دارت معظمها حول السحر والدين والعلم فى الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤ ، وكذلك زياراته المتكررة للسودان وكينيا. والتى تمخضت عن عدد كبير جداً من المقالات إلى جانب دراساته الحقلية المركزة فقد تمكن من إنجاز دراسته للأنواك إلى جانب دراسته للشيلوك واللوو Luo فى كينيا، وإذ كان كل هذا قد أسفر عن كتابه «النسق السياسى عند الأنواك فى السودان المصرى الإنجليزى» The Political System of the Anuak of the Anglo-Egyptian- Sudan الذى ظهر فى عام ١٩٤٠ ، فقد تأكدت شهرته فى العام نفسه عندما اشترك مع ميرفورتس Fortes فى إصدار كتابهما عن النظم السياسية فى أفريقيا African Political Systems وهو عبارة عن مجموعة مقالات مثلت ثورة وانقلاباً حقيقيين فى دراسة الحكومة البدائية وشكل الحكم فى المجتمعات البدائية على وجه الخصوص. وذلك بالإضافة إلى كتابه الذى ظهر عام ١٩٤٨ عن «الملكية المقدسة عند الشيلوك» The Divine Kingship of the Shilluk of Nilotic Sudan ثم بعد ذلك كتابه عن « السنوسى فى برقة» The Sanusi of Cyrenaica الذى ظهر عام ١٩٤٩ مستفيداً من وجوده فى شمال أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية كضابط اتصال بين الإدارة العسكرية البريطانية والسلطات والعشائر والقبائل الليبية. بالإضافة إلى كتابه الآخر عن الأزاندى الذى نشر عام ١٩٧١ بعنوان «الأزاندى: التاريخ والنظم السياسية» The Azande: History and Political Institutions . ولا جدال فى أن كل هذا معناه أنه كان كاتباً مميزاً يتصف بتنوع اهتماماته التى تراوحت ما بين موضوعات القرابة والدين وتاريخ الأنثربولوجيا ودراسة الظاهرة السياسية وتحليلها . وهى موضوعات نجح فى توجيه عدد كبير من تلاميذه لدراستها وبحثها، حيث اتبعوا فى دراستهم أسلوبه فى البحث وطريقته فى تحليل المواد الاثنوجرافية .

ومما هو جدير بالذكر أن تنقلاته الواسعة وبحوثه الحقلية (الميدانية) التى بلغت ستة بحوث لم تمثل عائقاً أمام نشاطه الأكاديمى، مهمته التدريس بالدرجة

الأولى ، فقد ظل تأثيره كمحاضر وكأستاذ جامعى ذا أهمية كبيرة ، لأنه انتقل بعد عمله فى الجامعة المصرية بالقاهرة إلى أكسفورد كمحاضر باحث فى علم الاجتماع الأفريقى فى الفترة من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٠ حيث عمل تحت رئاسة الأستاذ رادكليف براون Radcliffe-Brown الذى توطدت العلاقة بينهما على الرغم من اختلافهما النظرى فى كثير من المواضع . ويمكن القول بأنه لم يبتعد عن الجامعة إلا خلال سنى الحرب ولكن ليعود بعدها فى عام ١٩٤٥ فيلتحق بجامعة كمبردج ثم ليشغل بعد ذلك كرسى الأنثربولوجيا فى جامعة أكسفورد خلفا لرادكليف براون وهو المنصب الذى ظل يشغله حتى عام ١٩٧٠ وهو العام الذى تقاعد فيه وهو فى الثامنة والستين من عمره، ذلك بالإضافةإلى أنه كان زميلاً فى All Souls College طوال الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٠ حيث نصب فارسا عام ١٩٧١ أى قبيل وفاته بعامين اثنين، حيث توفى عام ١٩٧٣ بعدما نجحت مدرسة اكسفورد فى الأنثربولوجيا الاجتماعية وبخاصة فى السنوات الأخيرة من حياته فى جذب عدد متزايد من الدارسين من مختلف أنحاء العالم. كما أشرف على كثير من الدراسات والرسائل العلمية التى كانت تجرى دراساتها الحقلية فى أفريقية وفى أماكن أخرى فى ضوء منهجيته العامة التى أوضح معالمها فى كتابه الهام الذى أصدره عام ١٩٥١ بعنوان « الأنثربولوجيا الاجتماعية» Social Anthropology . وهو كتاب ما زال حتى اليوم يتمتع بتقدير كبير على كافة المستويات العلمية والأكاديمية رغم ما قد تثيره بعض مواقفه وآرائه النظرية من نقاش وجدل باعتبار أنه هو نفسه لم يكن ممن يسعون إلى تكوين نظرية عامة، مما جعل البعض يرى أن كتاباته النظرية إنما تحتل مكانة ثانوية بالنسبة إلى بحوثه الحقلية، وهى دعوى تنطوى على غير قليل من التجنى والافتراء خاصة إذا ما تم تقييمها (الدعوى) فى ضوء الآراء النظرية التى اشتمل عليها كتابه «مقالات فى الأنثربولوجيا الاجتماعية» Essays in Social Anthropology الذى نشره عام ١٩٦٢ .

● قراءات مقترحة ●

- **Works** : Zande Iron-Working . Paideuma.1967.

- : Zande Bridewealth, Africa, 40. 1970.

● وانظر أيضاً :

- Biedelman, Thomas O.; Sir Edward Evan Evans - Pritchard (1902 - 1973): An Appreciation - 1974.

- Douglas. M.; Evans - Pritchard. 1980.

★ ★ ★

F

٥٨ - فاى ، سيدنى برادشو (١٨٧٦ - ١٩٦٧)
58 - FAY, SIDNEY BRADSHAW

قد يكون من اليسير - حتى ولو تجاوزا - أن نتخيل عالما بلا حروب ، ولكن من المستحيل أن نتصور أن تكون الحروب مسئول عنها طرف واحد فحسب. الحروب باستمرار مسئولية كل الأطراف المنخرطة فيها جميعها، مسئولية جمعية بتعبير أدق.

ذلك هو التصور الجوهرى والمحورى أيضاً الذى أدار المؤرخ الأمريكى سيدنى برادشو فاى من حوله كل كتاباته. وذلك التصور بالذات كان السبب المباشر وراء شهرته الطاغية باعتباره أول مؤرخ أمريكى يقف فى مواجهة الاعتقاد السائد بأن ألمانيا «وحدها» كانت هى المسئولة عن الحرب العالمية الأولى، وكان لذلك الموقف «المتميز» أثره الكبير فى تعديل وتغيير كثير من الاتجاهات نحو ألمانيا بعد الحرب .

ولد فاى فى الثالث عشر من إبريل عام ١٨٧٦ فى واشنطن، ومات فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٦٧ فى لكسنجتون Lexington بولاية ماسا شوستس Massachusetts الأمريكية ومعنى هذا أن حياته امتدت إلى أكثر من تسعين عاماً شهد خلالها كل أحداث العصر. شاهد على العصر بتعبير -مرة ثانية- أدق . فبعد أن نال الدكتوراه من هارفارد فى ١٩٠٠ درس فى السوربون Sorbonne وفى جامعة برلين ليعود بعد ذلك ليقوم بتدريس التاريخ فى دارتموث كوليج Dartmouth College بهانوفر فى نورث هامبشاير North Hampshire وسميث كوليج Smith فى نورث هامبتون Northampton بماساشوستس، وأيضاً فى جامعتى هارفارد وييل حتى بلغ سن التقاعدفى عام ١٩٤٦.

مسيرة طويلة هى إذن ومليئة بالعمل الأكاديمى . ومع ذلك فإن شهرته ارتبطت بصفة رئيسية بمراجعته الكلاسيكية لأسباب الحرب العالمية الأولى. وهى المراجعة التى أبرز نتائجها فى مؤلفه الضخم الذى ظهر فى جزءين فى عام ١٩٢٨ بعنوان «أصول الحرب العالمية الأولى» Origins of the World war I وهو المؤلف الذى اعتمد فيه كثيراً على دراسته وفحصه لكثير من الوثائق والسجلات والمحفوظات التى لم تكن قد بحثت أو كشف عنها من قبل، حيث مكنه ذلك من بلورة مقولته القائلة «بالمسئولية الجمعية» Collective Responsibility فى نشوب هذه الحرب واندلاعها .

وبالرغم من مظاهر التحفظ والبرود التى استقبلت بها كثير من الأوساط هذا العمل، فإن النظرة المدققة لمقولة «المسئولية الجمعية» تكشف عن حقيقة ما يتمتع به فاى من قدرة على النظر والتحليل إضافة إلى ما تنطوى عليه المقولة ذاتها من (واقعية) صادقة تتكشف من خلال الربط بين الوقائع والأحداث واستقصاء ما يعمل فى باطن هذه الوقائع والأحداث من عوامل وأسباب . علاوة على ما تعكسه المقولة (المسئولية الجمعية) من رأى علمى يبتعد عن مظاهر التحيز أو المحاباة .

والواقع أن فاى يلقى بجانب كبير من اللوم والمسئولية على الصرب Serbia بصفة خاصة نظراً لدورها المباشر والواضح تماماً فى اغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند Archduke Francis Ferdinand فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٩١٤ . كما نجده يلقى باللوم أيضاً على النمسا ومطالبها وعلى ألمانيا لمساندتها لدولة النمسا الهنغارية Austria - Hungary وعلى روسيا لإقدامها على التعبئة العسكرية وبالمثل إنجلترا وفرنسا لتواطؤ الدولتين مع الروسيا .

وأياً كان الأمر فيما ذهب إليه فاى من أسباب أدت إلى وقوع الحرب العالمية الأولى فقد كان لهذا العمل نتيجة مزدوجة، ففى الوقت الذى أدى إلى خلق ما يمكن أن يوصف بأنه نوع من التعاطف مع ألمانيا مما أدى بالتالى إلى تغيير كثير من الاتجاهات نحوها بعدما كانت تصب باللوم كله عليها، فقد أثار لدى الكثيرين من الأسباب ما جعل قادة هذه الدول وساستها يقدمون على إعادة النظر فى طبيعة

وشكل العلاقات القائمة ، بل وأدى هذا إلى بذر بذور الحرص والتشكك فى نوايا البعض مما كان له أثره على أى الأحوال فى المواقف السياسية التى مثلت بدورها خلفية للحرب العالمية الثانية على الرغم من التغير الذى طرأ على مواقف أطرافها.

وعلى العموم فقد نجحت مؤلفات فاى وكتاباته فى أن تجعله واحدا من أعظم المراجع الأمريكية التى يرجع إليها بصدد التاريخ الألمانى، وخاصة بالنسبة إلى ظهور الإمبراطورية البروسية وسياستها الخارجية. وهو ما ينعكس فى أكثر من واحد من كتبه حيث قدم فى عام ١٩١٦ مؤلفه المعنون باسم « سياسة أسرة هوهنزوليرن فى القرن السادس عشر» The Hohenzollern Houschold and Administraion in the Sixteenth Century . كما قدم فى ١٩٣٨ كتابه «نهضة بروسيا حتى ١٧٨٦» The Rise of Brandenburg Prussia to 1786. وكذلك قيامه بترجمة كتاب المؤرخ الألمانى فردريك مينيكى Meinecke المعنون باسم « الكارثة الألمانية» Die Deutsche Katastrophe . الذى ظهرت ترجمته بالإنجليزية فى ١٩٥٠.

★ ★ ★

٥٩ - فيرث ، سير رايموند وليام
59 - FIRTH, Sir Raymond William

يعتبر السير رايموند وليام فيرث من جيل علماء الأنثربولوجيا البريطانية الذين درسوا فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، حيث التقى بعدد من الدارسين من بينهم إيفانز بريتشارد الذى كان فيرث يكبره بعام واحد، وميير فورتس الذى كان يصغره بخمسة أعوام، والأستاذة أودرى ريتشاردز، وغيرهم ممن قدر لهم أن يحملوا لواء الأنثربولوجيا البنائية التى انتشرت عن طريقهم وبجهود زملائهم وتلامذتهم فى مختلف بقاع العالم .

ولقد ولد رايموند فيرث عام ١٩٠١ فى نيوزيلاندة New Zealand وبدأ دراسته فى جامعة أوكلاند Ouckland بموطنه الأصلى حيث حصل على درجتى البكالوريوس والماجستير ، ولكنه أكمل دراسته بعد ذلك فى جامعة لندن التى حصل منها على درجة الدكتوراه عن رسالته التى قدمها عن اقتصاديات المورى Maori وهى الرسالة التى ظهرت فى شكل كتاب لأول مرة عام ١٩٢٩ ، ثم أعيدت طباعتها بعد ذلك عام ١٩٥٩ تحت عنوان « اقتصاديات المورى فى نيوزيلندة» Economics of The New Zcaland Maroi .

ولقد ارتبط فيرث لفترة من الوقت بجامعة سيدنى Sydney بأستراليا (١٩٣٠ إلى ١٩٣٢) حيث عمل محاضراً ثم أستاذاً للأنثربولوجيا الاجتماعية وهى فترة انقطعت خلالها صلته بجامعة لندن التى عاد إليها فى عام ١٩٣٣، حيث أصبح أستاذاً فى ١٩٤٤، وظل بهذه الجامعة إلى أن أعتزل العمل وأصبح أستاذاً متفرغاً بها عام ١٩٦٨. ونتيجة لجهوده العلمية واعترافا بفضله فقد نصب فارساً فى عام ١٩٧٣.

وبوجه عام يمكن القول بأن شهرة رايموند فيرث قد انبنت أساساً على تلك الدراسات والبحوث التى أجراها عن قبائل المورى وبين شعوب جنوب شرقى آسيا والأقيانوس، وهى الدراسات التى يظهر فيها مدى تأثره بالأستاذ برينسلاف مالينوفسكى الذى درس الأنثربولوجيا على يديه، وكان يعجب به أتم إعجاب حتى أنه ألف كتابه «الإنسان والثقافة : تقييم لأعمال مالينوفسكى» Man and Culture : An Evaluation of the Work of Malinowski (١٩٥٧) وهو كتاب يعتبر من أمتع وأعمق الكتب التى تكشف عن فهم فيرث العميق لهذا العالم الأنثربولوجى الشهير. كما يظهر فيه أيضاً مدى تأثره به خاصة، وهو يتعرض لطبيعة العمل وتقسيم العمل. حيث يظهر تمييزه بين العمل البسيط والعمل المركب وهى نفس التفرقة التى كان مالينوفسكى يقيمها بين العمل الجماعى Communal Labour والعمل المنظم Organized على اعتبار أن أساس العمل فى المجتمعات البدائية هو عمل جماعى دائماً.

ولا شك أن مجموعة كتبه ومقالاته التى أصدرها عن جزيرة تيكوبيا Tikopia التى تقع شرقى جزرسولومون البريطانية Solomen Islands والتى عالج فيها مختلف أوجه الحياة الاجتماعية مثل الحياة الأسرية والقرابة والاقتصاد والدين والأساطير والتاريخ هى التى تمثل حجر الزاوية فى هذه الشهرة التى تمتع بها فيرث، على الأقل فى مرحلة معينة من حياته العلمية حيث يرجع اهتمامه بهذه المنطقة إلى أوائل العشرينات وهو لم يزل طالباً يبحث عن موضوع لرسالته فى الدكتوراه . وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أنه نشر هذه الرسالة فى شكل كتاب صدر عام ١٩٢٩ فإن أول كتبه التى نشرها عن سكان الجزيرة لم يظهر إلا بعد ذلك فى عام ١٩٣٦ وهو الكتاب الذى أصدره تحت عنوان طويل نسبياً هو «نحن، تيكوبيا : دراسة اجتماعية للقرابة فى بولينيزيا البدائية» We Tikopia : A Sociological Study of Kinship in Primitive Polynesia وحيث نلمس فى هذا الكتاب مدى اهتمامه بإبراز فكرة البناء الاجتماعى، وأيضاً بالدين والمعالجة الأنثربولوجية للرموز. علاوة على اهتمامه الأصيل بالنسق القرابى الذى اعتبره أساس الحياة الاجتماعية فى كثير من المجتمعات بما يتضمنه من ظواهر اجتماعية جوهرية مثل تعدد الزوجات والأبوة الحقيقية والاجتماعية.

والحقيقة أن اهتمام فيرث بالبناء الاجتماعى وبالمناشط الاجتماعية هو اهتمام يشارك فيه معظم العلماء الذين ينتمون إلى مدرسة لندن فى الأنثربولوجيا حتى ليمكن القول بأنه اهتمام مشترك بينه وبين إيفانز بريتشارد وميير فورتس على ما بين مواقف ثلاثتهم من فوارق واختلافات .

فعلى حين قد اهتم إيفانز بريتشارد بهذه النواحى من زاوية التركيز على البناء السياسى على نحو ما تأكد فى دراسته لمجتمع النوير ، فإن رايموندفيرث قد اهتم بها أيضاً وإنما من زاوية البناء الاقتصادى فى مجتمع تيكوبيا . ولا شك فى أن مثل هذا التشابه فى الاهتمامات راجع أساساً إلى كونهما معاً من جيل التلاميذ الأوائل الذين تشربوا الأنثربولوجيا على أيدى الأستاذ مالينوفسكى .

وقد لا يعنينا هنا إبراز أو مناقشة أوجه الاختلاف بين هؤلاء الثلاثة فى نظرتهم للبناء الاجتماعى ، ولكن من الضرورى مع ذلك القول بأن البناء الاجتماعى عند فيرث يتضمن مختلف أنواع الجماعات والنظم التى تربط بين أفراد المجتمع. كما أنه يقوم على أساس التخصص المهنى الذى اعتبره أحد المبادئ الأساسية فى كل المجتمعات البدائية، وكذلك مبدأ الاختلاف الطبقى أو المرتبة الاجتماعية، وكأنما اهتمامه بالبناء الاجتماعى هو بالدرجة الأولى اهتمام بإبراز دور المهن وتقسيم العمل والطبقات والمراتب الاجتماعية. ومن هنا اهتمامه بدراسة العلاقات الاجتماعية الواقعية والمتحققة بالفعل فى المجتمع اعتماداً على ما تقدمه الدراسة الميدانية من معطيات فى ضوء الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة وإن لم يكن معنى هذا عدم ضرورة فهم العلاقات المثالية لدى المجتمع باعتبار أنها تلعب دوراً فى تحديد مظاهر الفعل والسلوك المتوقعين .

وبتعبير آخر ينصب اهتمام رايموند فيرث على إبراز العلاقات المتبادلة والمتداخلة للنظم الاجتماعية المختلفة كالسحر والدين والاقتصاد والسياسة على اعتبار أنها تمثل أهم العناصر أو المكونات التى تتفاعل فى داخل الكل الاجتماعى، وبذا فهو يجمع البناء الاجتماعى فى تلك العلاقات الثابتة التى تدور حول النوع Sex والقرابة والموطن والسن وما يقوم فيها من اختلافات فى المراتب والطبقات تبعاً

للتخصص المهنى وتقسيم العمل، وبدون إغفال لدور القيم والعلاقات المثالية على ما أشرنا.

وإذا كان كتابه «نحن ، تيكوبيا» هو أول كتبه التى كتبها عن تيكوبيا وأرسى فيه قواعد ومبادئ مدخله الاقتصادى فقد سعت كتاباته الأخرى عن هذا المجتمع إلى تعميق هذا المدخل وبلورة مواقفه، وبهذا نجده يعاود زيارته لهذا المجتمع مرة ثانية فى عام ١٩٥٢ حيث قضى حوالى ستة أشهر درس خلالها مظاهر التغير الاجتماعى التى طرأت عليه. وعلى العموم فقد ظهر كتابه «عمل الآلهة فى تيكوبيا» The Work of the Gods in Tikopia فى عام ١٩٤٠ ، ثم كتابه « تاريخ تيكوبيا وتقاليدها» History and Traditions of Tikopia عام ١٩٦١ ، وأيضاً «المرتبة والدين فى تيكوبيا» Rank and Religion in Tikopia عام ١٩٧٠ بالإضافة إلى كتابه عن التغير الاجتماعى الذى كان قد نشره عام ١٩٥٩ بعنوان «التغير الاجتماعى فى تيكوبيا » Social Change in Tikopia.

ولقد ظل موضوع التنظيم الاقتصادى يمثل دائماً واحداً من أكبر الاهتمامات التى شغلت فكر رايموند فيرث. فقد قام هو وزوجته فى عامى ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ بإجراء دراسة ميدانية عن الفلاحين فى الملايو ، ونشرت هذه الدراسة بعنوان «صيادو الملايو : اقتصادياتهم القروية» The Malay Fishermen : Their Peasent Economy (١٩٤٦) كما صدرت له أيضاً مجموعة أخرى من الكتب والمقالات التى اهتمت بالموضوع نفسه من خلال التنظيم الاجتماعى الأشمل من أهمها «عناصر التنظيم الاجتماعى» Elements of Social Organization و«مقالات فى التنظيم الاجتماعى والقيم» Essays on Social Organization and Values (١٩٦٤) وأيضاً «الطقوس والمعتقدات فى تيكوبيا» Tikopia Ritual and Belief (١٩٦٧) وقد عالج فى الكتاب الأول ما اعتبره الخصائص المميزة لكل ثقافة، وأكد فى هذا على أن هذه الخصائص إنما هى انعكاس لقيمها الأساسية على اعتبار أن نسق القيم هو الذى يعطى الثقافة تماسكها وهويتها واستقرارها. كما عرض فيه أيضاً نظريته فى الفن البدائى، وهى نظرية لا تخلو من مضامين اقتصادية حيث رأى أن الفنان البدائى

هو إنسان حرفى قبل أى شئ. وهذا معناه أنه يرفض بالنسبة لهذه المجتمعات البدائية النظرية التى تقول بالفن للفن، وإنما للفن فى هذه المجتمعات وظيفة، كما أن له هدفا. أما المتعة بالمعنى الذى تعرفه المجتمعات الحديثة فمسألة لا تدخل فى حسبان الفنان البدائى الذى لا يصنع الأشياء لمجرد النظر إليها أو الاستمتاع بها على حد تعبير الأستاذ هاموند Hammond. وهو الموقف نفسه الذى تردد بعد ذلك فى بعض أعماله مثل كتابه الذى أصدره بعنوان «موضوعات فى الأنثر بولوجيا الاقتصادية» Themes in Eoconomic Anthropology الذى نشر لأول مرة عام ١٩٦٧ ، وأيضاً كتابه « الرموز : العامة والخاصة» Symbols : Public and Private الذى ظهر فى عام ١٩٧٣ .

وبالرغم من كل هذا الإنتاج العلمى الضخم فمازال الكثيرون يرون أن أشهر كتبه وأكثرها انتشاراً هو كتابه « الأنماط البشرية : مقدمة فى الأنثربولجيا الاجتماعية» Human Types : An Introduction to Social Athropology (١٩٥٨) .

• قراءات مقترحة•

Works : Primitive polynesian Economy . 1960.

--------: Offering and Sacrifice : Problems of Organization . Journal of the Royal Anthropological Institute . 93, 1963.

---------: An Analysis of Mana: An Empirical Approach, Journal of the Polynesian Society . 58.1940.

---------; An Appraisal of Modern Social Anthropology. in B. Siegel and Others (eds.) Annual Review of Anthropology. 1975.

★ ★ ★

٦٠ - فورد ، سيريل داريل

60 - FORDE, Cyril Daryll

ينتمى عالم الأنثربولوجيا البريطانى سيريل داريل فورد إلى جيل العلماء الذين تلقوا تدريبهم فى العشرينات والثلاثينات من القرن، وهو الجيل الذى يضم إيفانز بريتشارد Evans Pritchard ومبير فورتس Fortes ورايموند فيرث Firth ولوسى مير Mair وليوناردوشابيرو Schapiro وغيرهم ، ممن ظهرت لديهم الاتجاهات ذاتها فى التفكير وربطت بينهم الاهتمامات المشتركة فوضعوا بدراساتهم وبحوثهم الحقلية الأسس المتينة لفهم ظواهر الدين والسحر والشعوذة، وكذلك أنماط وطبيعة النظم السياسية والاقتصادية والأنساق القرابية .

ولقد اشتهر فورد كواحد من أبرز علماء الأنثربولوجيا الفيزيقية الذين شغفوا بدراسة الثقافات البدائية والآثار التى تخلفها التطورات التكنولوجية فى البناءات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية عموماً ، الأمر الذى أدى إلى إفساح الطريق أمام ازدهار دراسات الجغرافيا المقارنة .

ولقد ولد فورد عام ١٩٠٢ فى توتنهام Tottenham بميدلسكس Middlesex بإنجلترا، ودرس الجغرافيا وعلم آثار ما قبل التاريخ فى يونيفرستى كوليج ثم نال درجة الدكتوراه عام ١٩٢٨ وعين وهو فى الثانية والعشرين من عمره بجامعة ويلز Wales فى عام ١٩٣٠ واعتبر بذلك أصغر أستاذ يتم تعيينه فى المملكة المتحدة.

وبداية من عام ١٩٤٤ عين مديراً للمعهد الأفريقى الدولى وهو منصب ظل يشغله حتى وفاته فى عام ١٩٧٣ . وخلال هذه الفترة شغل فورد أيضاً كرسى الاستاذية الجديد للأنثربولوجيا فى كلية الجامعة بلندن (١٩٥٤) وبذلك أتيحت له فرصة الاتصال المباشر بالأسماء اللامعة التى عرفتها جامعة لندن وكان لهم

تأثيرهم البالغ فى تحول اهتمامه إلى الأنثربولوجيا وإلى دراسة الثقافات البدائية فى المجتمعات الأفريقية على وجه الخصوص .

ولقد نجحت دراسته الحقلية التى أجراها فى أريزونا ونيومكسيكو فى لفت الأنظار إليه باعتبارها دراسة رائدة فى الجغرافيا المقارنة . وقد ظهرت بعد ذلك فى عام ١٩٣٤ فى كتاب بعنوان «اقتصاديات البيئة والمجتمع Habitat Economy and Society ، ونالت تقدير الأوساط العلمية، واعتبرت بمثابة مرجع أساسى فى التحليل الاجتماعى لأشكال وأنواع الاقتصاد والعلاقة بينهما وبين أنماط النظم الاجتماعية الأخرى.

وتعتبر قضية تقسيم العمل من أهم القضايا العديدة التى تناولها فى فورد فى هذا الكتاب حيث ناقش الفعاليات البدائية التى تقوم بشكل أساسى على هذا المبدأ . فبالرغم من الاعتقاد الشائع لدى معظم الكتاب بأن التقسيم الجنسى للعمل هو محصلة طبيعية لسيطرة الرجل وتفوقه الجسمانى وعلو منزلته الاجتماعية، فقد أيد فورد، على العكس من ذلك نظرة أخرى مؤداها إن تقسيم العمل بين الجنسين فى كثير من المجتمعات لا يعتمد كلية على هذه الفوارق الجنسية، وإنما يتنوع بتنوع العديد من الأسباب الأخرى كالظروف الطبيعية وتغاير التجارب التاريخية للمجتمعات وقد نجحت هذه النظرة فى أن تفرض نفسها حتى أصبحت مسيطرة إلى الآن .

ومع ذلك فقد كانت دراساته الحقلية اللاحقة التى أجراها فى جنوب شرق نيجيريا هى العمل الذى رسخ شهرته كواحد من أعلام الأنثربولوجيا المتميزين ، فقد قادته هذه الدراسات إلى سلسلة من البحوث التى أجراها عن شعوب الياكو Yako فى الفترة ما بين ١٩٣٥ ، ١٩٣٩ فى كروس ريفر Cross River واستطاع من خلالها أن يرسى أسلوباً مميزاً ومنهجاً محدداً للدراسات السياسية ودراسات أنساق القرابة العديدة التى توجد فى هذه المناطق من القارة الأفريقية، وهو ما تأثر به بشكل واضح عدد من الدراسات والبحوث الحقلية التى أجراها تلامذته أو غيرهم بعد ذلك .

ويمكن الوقوف على النتائج المباشرة لهذه الدراسات التى أجراها فورد فى نيجيريا فى عدد من الكتب والمقالات التى تناول فيها الثقافة الأفريقية والمجتمعات الأفريقية. ولعل فى مقدمة هذه الكتب كتابه الرئيسى « الزواج والعائلة عند الياكو فى جنوب شرقى نيجريا» Marriage and Family Among the Yoko of South Eastern Nigeria الذى نشر فى عام ١٩٤١ ، وأيضا كتابيه «عوالم أفريقية» African Worlds (١٩٥٤) و«تجار أفريقيا القدامى» اللذين أشرف على تحريرهما . بالإضافة إلى كتابه المميز الذى صدر بالاشتراك مع رادكليف براون Radcliffe - Brown فى عام ١٩٥٠ عن «أنساق القرابة والزواج فى أفريقيا» African Systems of Kinship and Marriage . وهو عبارة عن دراسة مسحية لنظم وأنساق القرابة والزواج فى أفريقيا ويحتوى على مجموعة من الدراسات القيمة لأنساق القرابة والعادات والأعراف فى بعض القبائل والشعوب الأفريقية قام بكتابتها عدد من الأنثربولوجيين الكبار .

وعلى العموم فقد كان لرئاسته المعهد الأفريقى الدولى أثرها فى هذا الإنتاج حيث أتاح له منصبه أن يقف على مختلف التطورات التى لحقت بالدراسات الأنثربولوجية عن أفريقيا ، مما ساعده أيضاً فى الإشراف على بعض البحوث الضخمة والبرامج التى حصل لتمويلها على اعتمادات ضخمة كرست للدراسات الأفريقية ، جنبا إلى جانب مقالاته التى قام بنشرها فى المجلات التى تولى الإشراف على تحريرها، وبخاصة مجلة أفريقيا Africa والملخصات الأفريقية» African Abstracts والمسح الاثنوجرافى لأفريقيا ، علاوة على مقالته الشهيرة التى نشرها عام ١٩٦٢ فى كتاب جلوكمان «مقالات عن طقوس العلاقات الاجتماعية» Essays on Ritual of Social Relations بعنوان : «الموت والخلافة : تحليل لطقوس دفن الموتى عند الياكو» Death and Succession : An Analysis of Yako Mortury Rituals.

• قراءات مقترحة•

-**Works** : (ed.) African World : Studies in the Cosmological Ideas and Social Values of African peoples. 1954.

-----------; Double Descent Among the Yako. in A.R. Radcliffe - Brown. D.Forde (eds.) ---------- African Systems of Kinship and Marriage. 1950.

٦١ - فورتيس، ميير

61 - FORTES, MEYER

على الرغم من أن عالم الأنثربولوجيا البريطانى ميير فورتيس قد تلقى تعليمه الأساسي فى علم النفس ونال درجة الدكتوراه التى حصل عليها عام ١٩٣٠ من مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية London School of Economics and Political Sciences فى علم النفس التحليلى، فقد نجحت دراساته وبحوثه فى أن تجعله واحدا من أشهر علماء الأنثربولوجيا البريطانيين الذين يرجع إليهم الفضل فى انتشار المدرسة البنائية البريطانية جنبا إلى جنب جيل الكبار الذين ينتمون إلى هذه المدرسة من أمثال رادكليف براون وإيفانز بريتشارد ورايموند فيرث باعتبار أن ثلاثتهم هم أشهر من أضافوا إلى تراث هذه المدرسة على الأقل فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

والأستاذ ميير فورتيس على خلاف زميليه لم يكن مولده ولا أيام نشأته الأولى فى بريطانيا ولكنه ولد فى بريتستاون Britstown بمقاطعة الكاب Cape Province فى جنوب أفريقيا فى الخامس والعشرين من شهر إبريل عام ١٩٠٦. ونال تعليمه الأساسى فى المدارس الوطنية إلى أن التحق بجامعة كيب تاون Cape Town التى درس فيما علم النفس. ثم التحق بعد ذلك بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية حيث نال درجة الدكتوراه فى علم النفس أيضا عام ١٩٣٠. ولكن ليتحول بعد ذلك فى عام ١٩٣٢ من علم النفس إلى الأنثربولوجيا بتأثير أستاذه مالينوفسكى كزميل باحث لمؤسسة روكفلر Rockefeller. وخلال الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٧ عمل فى غانا Ghana ثم عين بعد عودته محاضرا فى الأنثربولوجيا الاجتماعية بمدرسة لندن. وبعدها عين باحثا محاضرا فى علم اجتماع المجتمعات

الأفريقية بأكسفورد ثم أصبح أستاذا للأنثربولوجيا الاجتماعية فى كينج كوليج King College بكيمبردج من عام ١٩٥٠ حتى تقاعده عام ١٩٧٣ وهو فى السابعة والستين من عمره. وإن لم تنقطع صلاته بهذه الجامعة إلى أن توفى فى كيمبردج أيضا فى السابع والعشرين من يناير عام ١٩٨٣.

وتنصب الاهتمامات الرئيسية للأستاذ ميير فورتيس على دراسة القضايا والموضوعات التى تندرج عادة فى داخل نطاق الأنثربولوجيا السياسية Political Anthropology. ولما كانت معظم دراساته قد أجراها على القبائل والمجتمعات الأفريقية فقد كان طبيعيا أن يتساوق مع هذا الاهتمام بدراسة النظم والأنساق السياسية اهتمام آخر بدراسة الأنساق القرابية Kinship Systems نظرا للعلاقات الوثيقة والمتداخلة بين المجالين فى المجتمعات القبلية والبسيطة عموما. وإن كان من الناحية الثانية قد اهتم أيضا بالأنثربولوجيا النفسية التحليلية كأثر راسخ من تكوينه العلمى الأساسي. وانعكست هذه الاهتمامات فى كل دراساته وبحوثه حتى تلك التى ركز فيها على دراسة الطقوس وشعائر الأسلاف على اعتبار أن الدين وما ينطوى عليه من شعائر وطقوس دينية لها جميعا وظيفة سياسية تتمثل فى إقرار وتحقيق النظام فى المجتمع بصرف النظر عن مدى تقدمه أو تأخره. فالدين فى آخر الأمر يعتبره علماء الاجتماع والانثربولوجيا من أهم عوامل الضبط الاجتماعى فى مثل هذه المجتمعات.

وعلى الرغم من أن فورتيس قد تركزت معظم دراساته وبحوثه فى مجتمعات غرب أفريقيا وعلى وجه الخصوص فى مناطق معينة على طول ساحل غينيا Guinea فقد ظهرت هذه الاهتمامات أيضا فيما أجراه من دراسات فى مناطق ومجتمعات أخرى سواء فى الصين أو اليابان. وإن ظلت المجتمعات التقليدية فى أفريقيا هى مناط اهتمامه الحقيقى؛ نظرا لتعدد وأيضا لتباين المبادئ أو العناصر التى يقوم عليها التنظيم السياسى، وخاصة فى تلك المجتمعات التى يرى البعض أنها تفتقر إلى هذا التنظيم، وأيضا للغموض الذى يسم الكثير من الكتابات عند

التمييز بين ما هو سياسى وما ليس كذلك، وكلها وضعيات خليقة بأن تجذب انتباه الباحثين وتدفع بهم إلى دراستها ومحاولة إلقاء الضوء عليها.

وقد قام ميير فورتيس بعدد من الدراسات التى نجحت ليس فحسب فى إرساء قواعد شهرته، وإنما أيضا فى توضيح بعض مواقفه من بعض القضايا والمسائل النظرية والمنهجية التى تعتبر مثار خلافات بين العلماء والباحثين. ولاشك أن فى مقدمة هذا تصوره الذاتى لما يعتبره «ظاهرة سياسية» وكذلك نظريته أو مفهومه الخاص للبناء الاجتماعى، علاوة على موقفه من بعض المناهج المستخدمة فى التحليل الاجتماعى ومدى كفاية هذه المناهج فى دراسة الظواهر الاجتماعية فى المجتمعات البدائية.

ويرى فورتيس أن السياسة تمثل مفهوما يصعب الوصول فيه إلى تحديد واضح متفق عليه على الرغم من تردده وكثرة استخدام الباحثين له كأداة للوصف والتحليل. ومع ذلك فإن أهمية هذا المفهوم كما يراها فورتيس ترجع إلى إمكانية استخدامه فى دراسة مدى وجود التنظيم السياسى فى المجتمعات البدائية والبسيطة، إذا ما أمكن الاتفاق على ما يعتبر (سياسيا) من ظواهر الحياة الاجتماعية وأنماط ما يقوم فيها من علاقات.

وبالرغم من تعدد الخصائص التى يقول العلماء بأن الظاهرة السياسية تتصف بها فقد أوضح فى مقال له عن «بناء الأنساب فى الجماعات ذات الانتساب الواحد» Unilineal كان قد نشره ضمن كتاب: «الثقافات والمجتمعات الافريقية» Cultures and Societies of Africa الذى أشرف على تحريره أوتنبرج Ottenberg أن من أبرز وأهم خصائص الظاهرة السياسية اتصافها بالعمومية، ويعنى بذلك أنها عامة Public تهم المجتمع بكامله، ولا يمكن أن تنحصر فى نطاق الشئون الفردية المتعلقة ببعض أعضاء المجتمع. ذلك بالإضافة إلى توافر القصد، بمعنى أن الظاهرة السياسية من خصائصها أيضا أنها ترمى إلى أهداف معينة تكون لها قيمتها وأهميتها بالنسبة للجماعة أو المجتمع ككل ومن هنا أيضا كان اتصافها بدرجة واضحة من الوعى Consciousness بمعنى أن يكون السلوك السياسى، سلوكا قصديا

علاوة على اتصافها بطابع القوة وتوافر سلطة ما يكون لها حق استخدام هذه القوة، أولا لاقرار النظام داخل المجتمع كهدف نهائى للسياسة وأيضا لمواجهة الحالات والظروف الحرجة التى قد يمر بها المجتمع وتضطره حتى إلى استخدام القوة الفيزيفية عند اللزوم - وإن كانت مسألة استخدام القوة فى مثل هذه المجتمعات من المسائل التى أثارت الكثير من الخلافات بين العلماء والباحثين. فبالرغم من وضوح موقف فورتيس فيما يتعلق باعتباره عنصر «القوة» ضمن العوامل الهامة والمحددة للتنظيم السياسى فى المجتمعات الحديثة والمتقدمة التى تؤلف دولة (وهو اعتقاد يشاركه فيه الأستاذ إيفانز بريتشارد) فإن مسألة توافر السلطة المركزية التى يحق لها استخدام القوة المنظمة والقول بعدم وجودها فى المجتمعات التى لا تؤلف دولة Stateless Societies ضاعف كله من مشكلة البحث عن المبادئ الأساسية التى يقوم عليها التنظيم السياسى، خاصة فى مثل هذه المجتمعات الانقسامية Segmentary التى تلعب فيها القرابة والنسق القرابى دورا متعاظما فى التنظيم السياسي. والواقع أن الأستاذ مالينوفسكى فى مواجهته لهذه الناحية قد وسع من مفهوم القوة ولم يحصره فى القوة الفيزيقية وحدها، وإنما هناك القوة الروحية أيضا التى تلعب دورا هاما بهذا الصدد، وبخاصة قوة القادة والرؤساء والزعماء الروحيين فى هذه المجتمعات.

ولكن يبدو أن طبيعة المجتمعات التى أجرى فيها فورتيس دراساته هى التى دفعت به إلى اعتبار فكرة الانقسامية Segmentation أو التجزئة عند التمييز بين المجتمعات والنظم والأنساق السياسية ما بين النوع الانقسامى والنوع المركزى، فقبائل التالينزى Tallensi التى تعيش فى المناطق الشمالية من غانا والتى أجرى فيها أهم دراساته هى من القبائل الانقسامية التى يظهر فيها بوضوح أهمية العشائر والبدنات والنسق القرابى عموما فى التنظيم السياسي. ولعل فى مقدمة هذه الدراسات تلك المجموعة من الدرسات التى نشرها بالاشتراك مع إيفانز بريتشارد عام ١٩٤٠ تحت عنوان «الأنساق السياسية فى أفريقيا» African Political Systems حيث عرض فورتيس فى مقالته نتائج دراسته فى التالنزى The Tallensi حيث برز

تقسيمه لأنماط النظم السياسية إلى ثلاثة أنماط رئيسية يمكن التمييز بينها على أساس القرابة ودرجة الانقسام وقدر التنظيم الإداري.

ولقد ظهر اهتمامه بإبراز دور القرابة فى التنظيم السياسى فى أكثر من عمل حيث نشر كتابه «ديناميات البناء العشائرى عند التالنزي» The Dynamics of Clanship Among the Tallensi فى عام ١٩٤٥ وأتبعه بكتابه «النسيج القرابى عند التالنزي» The Web of Kinship Among The Tallensi عام ١٩٤٩ ثم بعد ذلك كتابه «القرابة والنظام الاجتماعي» Kinship and Social Order عام ١٩٦٩. بالإضافة إلى الكتاب الذى أشرف على تحريره وظهر تحت عنوان «الزواج فى المجتمعات القبلية» Marriage in Ttibal Societies فى عام ١٩٧٢، وكذلك مقالته الشهيرة عن «القرابة والزواج بين الأشانتي» فى كتاب رادكليف براون وداريل فورد Forde المعنون «أنساق القرابة والزواج فى أفريقيا» African Systems of Kinship and Marriage (١٩٥٠).

ولعل الملمح الأساسى الذى يمكن ملاحظته فى كل هذه الدراسات والبحوث اتصافها بمسحة بنائية وظيفية ترجع إلى اهتمامه بمفهوم البناء الاجتماعى كمفهوم محورى وموجه لدراسة جميع الظواهر الاجتماعية بما فيها من وجوه التنظيم السياسي. وقد ظهر اهتمامه بالبناء الاجتماعى كانعكاس طبيعى لتصور المجتمعات ما إذا كان تصورا ديناميكيا أم تصورا أستاتيكيا. فقد لاحظ فورتيس أن غالبية الباحثين وفى مقدمتهم الأستاذ رادكليف براون يعالجون ظواهر المجتمع وما فيه من مشكلات من زاوية إستاتيكية تعتمد أساسا على مفهوم البناء الاجتماعى الذى ميز فيه رادكليف براون بين البناء الواقعى والبناء الصورى. وقصد بالبناء الواقعى البناء العينى أو المحسوس أو البناء الديناميكى المتغير، أما البناء الصورى فهو بناء ثابت نسبيا وإن تغير فلا يكون إلا تغيرا قليلا وعلى فترات طويلة غير محسوسة. مما يعنى فى النهاية أن البناء الواقعى هو مجموعة العلاقات الواقعية التى تتغير بين الأشخاص والزمر والجماعات على حين يظل البناء الصورى أو الصورة البنائية العامة ثابتة نسبيا لا يغير من تماسكها حتى تلك التغيرات الثورية التى قد تحدث بشكل فجائي.

ويعتبر مير فورتيس فى مقدمة الذين وجهوا الانتقاد إلى تصور رادكليف براون للبناء الاجتماعى، ففى كتابه الذى قدمه بالاشتراك مع آخرين تحت عنوان «البناء الاجتماعي، دراسات مهداة لرادكليف براون» Social Structure: Studies Presented to Radcliffe - Brown (١٩٥٠) نجده يصف التفرقة التى يقيمها رادكليف براون بين البناء الواقعى والبناء الصورى بأنها لا تستند إلى أى معيار يمكن الوثوق فيه. وعلى العكس من ذلك نراه يذهب إلى أن البناء الاجتماعى لا يمكن أن يخضع للرؤية العينية المباشرة حيث إننا لا نستطيع رؤية البناء مباشرة فى واقعه المشخص وإنما البناء يتكشف لنا عن طريق المقارنة والاستقراء فى ضوء تحليل عينة من الوقائع الاجتماعية. فهو ذلك الكل الذى يتميز بأنه يتضمن النظم والزمر الاجتماعية والمواقف وسائر العمليات التى يمكن تحليلها إلى أجزاء تنتظم وتتناسق فى الزمان والمكان بالطرق التحليلية الخاصة.

وبصرف النظر عن مدى سلامة الانتقاد الذى يسوقه فورتيس وهو الانتقاد الذى عاد يكرره مؤخراً فى كتابه الذى نشره عام ١٩٧٠ بعنوان «الزمان والبناء الاجتماعي» Time and Social Structure فمن المهم القول بأنه أصبح يعكس الاتجاه الغالب الذى يسيطر على غالبية الدراسات المهتمة بالبناء الاجتماعى حيث يجرى تقسيم المجتمع إلى مجموعة من الأنساق الاجتماعية التى يدخل فى تكوينها عدد من النظم الاجتماعية وبذلك يمكن الحديث عن الأنساق النوعية كالنسق السياسى أو النسق الديني، أو النسق القيمى، أو النسق القرابى، وأيضا إلى ما يندرج تحت هذه الأنساق من نظم تدخل فى تكوينها ويقوم فيما بينها كلها بعضها وبعض علاقات تتبادل الأثر والتأثير فى داخل هذا البناء الكلى، وربما من هنا تأكيد ميرفورتيس على عاملى الزمان والمكان نظراً لما يطرأ على هذه العناصر والمكونات من تغيرات تختلف شدتها ومداها باختلاف ما يحيط بالكل أو يعمل فى داخله من ظروف ووضعيات .

ويتأدى بنا كل هذا إلى اعتبار قضية الطرق والمناهج والأساليب المستخدمة فى التحليل الاجتماعى للمادة الاثنوجرافية وموقف مير فورتيس من هذه القضية وبخاصة فيما يتعلق بالمنهج الإحصائى والأساليب الكمية والإحصائية .

وللحق فإن فورتيس يعتبر من أكبر الدعاة إلى استخدام المنهج الإحصائى فى دراسة الظواهر الاجتماعية فى المجتمعات البدائية والبسيطة والتقليدية عموما على الرغم من كل ما يقال من صعوبة ذلك. ويعتمد موقفه على نظرة خاصة مؤداها أن السلوك الإنسانى فى مظاهره الاجتماعية إنما يمدنا بمجوعتين أو فئتين من المعلومات والحقائق، هما الحقائق ذات الدلالة الكمية أى التى تشير إلى الكم والحجم والمقدار وتلك التى يكون لها دلالة كيفية والتى تحتاج إلى الوصف والتفسير. وفى اعتقاده أنه لكى يأمن الباحث من خطأ الوقوع فيما قد تحتمله الالفاظ والتعابير من مدلولات ومعان مختلفة فلابد من إخضاع المعلومات الكيفية إلى تصميمات وقياسات رقمية وكمية. بل إنه يقترب فى هذا الاتجاه مما نجده عنده عالم الاجتماع الفرنسى كلود ليفى ستروس عندما ذهب إلى ذلك التحول إلى الرياضيات وأكد على أن الكم هو سبيل تطور العلم الاجتماعى وتقدمه.

• قراءات مقترحة•

-**Works** : Kinship and Marriage Among the Ashanti- in A.Radcliffe. Brown and D. Forde(eds.). African Systems of kinship and Marriage. 1950.

• وانظر أيضا:

-Turner . Victor W., The Drums of Afflication. 1968.

-----------: The Ritual Process. 1969

* * *

٦٢ - فوكو، ميشيل بول
62 - FOUCAULT, Michel Paul

ولد الفيلسوف والمؤرخ وعالم الاجتماع والسياسة الفرنسى ميشيل بول فوكو فى بواتييه Poitiers بفرنسا فى الخامس عشر من شهر أكتوبر ١٩٢٦ . ودرس على يد الفيلسوف الماركسى الفرنسى لوى آلثوسير Althusser فى مدرسة المعلمين العليا École Normale Supérieure بالرغم من أنه كان يصغر استاذه بثمانية أعوام فقط إذ ولد ألثوسير عام ١٩١٨ . وبالرغم من أنه لم يعمر طويلاً إذ مات فى باريس فى الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٨٤ وهو فى الثامنة والخمسين من عمره فقد نجح فى تبؤ عدد من المناصب العلمية والأكاديمية الهامة قبل أن يصبح أستاذاً فى الكوليج دو فرانس Collége de France بداية من عام ١٩٧٠ حيث انشغل بتدريس «تاريخ أنساق الفكر» وهو تخصص جديد ابتكره لنفسه وظل يشغل كرسيه حتى وفاته.

ومنذ البداية تنازعت ميشيل فوكو العديد من النزعات والاتجاهات التى تركت آثارا عميقة فى حياته الفكرية والعملية على السواء، فهو ابن طبيب وكان المفروض أن يواصل الإبن طريق الأب، ولكن يبدو أن هذا الاتجاه لم يكن له صدى فى نفسه لأنه تحول عنه إلى دراسة علم النفس، والتحق لذلك بمدرسة المعلمين العليا التى تخرج فيها عدد من أشهر الفلاسفة والمفكرين البنائيين الفرنسيين، ومع أنه نال تدريبه فى مستشفى سانت آن للأمراض العصبية واشتغل بعد تخرجه بتدريس الطب النفسى فى باريس إلا أنه لم يستطع الاستقرار فى مكان واحد، وأخذ يتنقل بين عدة مناصب تعليمية أخرى سواء فى داخل موطنه فرنسا أم فى خارجها مثل جامعة أوبسالا وجامعة تونس وأيضاً فى ألمانيا الغربية والسويد، ثم

جامعة كليرمونت فيران Clermont- Ferrand التى عمل بها فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨ . وبعدها أمضى عامين آخرين فى جامعة Paris-Vincennes ليلتحق فى عام ١٩٧٠ بالكوليج دو فرانس على ما سبقت الإشارة .

خلال هذه الرحلة الطويلة نشر فوكو منذ عام ١٩٦٠ عدداً من الدراسات الهامة عن الجنون والأمراض العصبية وعن مؤسسات الأمراض العقلية ونظمها، وعن أساليب الإدارة والعلاج فى داخل المستشفيات، وأيضاً عن نظم العقوبة والتهذيب فى داخل السجون الحديثة، وعن الجنس Sex وطرق التحكم فيه، وفى كل هذه الدراسات كانت الفكرة المحورية التى تقوده هى استقصاء عناصر القوة Power والبحث فى هذه المؤسسات والنظم .

ولقد كانت إحدى الملاحظات الذكية التى لاحظها فوكو أن معظم الدراسات الحديثة تؤكد على إبراز حقيقة أن كل التطبيقات والإجراءات والممارسات وحتى صور الجدال والمناقشات تتأطر بشكل أو بآخر فى استخدام القوة. ولكن إذا كانت القوة تتمثل دائماً فى مقولة مثل «من يفعل ماذا بمن؟» Who does what to whom، وكانت ممارسة القوة وآثار هذه الممارسة هى الشغل الشاغل لفوكو فيمكن القول بأن دراسات فوكو كانت مما يمكن النظر إليه وقراءاتها على أنها محاولة لتقديم شكل جديد من أشكال تحليل القوة يعتمد بالدرجة الأولى على مقولة «يفعل ماذا» التى أصبحت تمثل المفهوم المحورى فى كل كتاباته .

ولكن مفهوم فوكو عما تفعله القوة خضع ولا شك لكثير من التغيرات على مدى عشرين عاماً، وهى تغيرات من الصعب الوقوف عليها إلا من خلال مقابلة كتاباته المبكرة بكتاباته الأكثر حداثة والمقارنة بينها .

فى عام ١٩٥٤ نشر فوكو كتابه عن الأمراض العقلية وعلم النفس تحت عنوان «الأمراض العقلية والشخصية» . ولكن إذا تجاوزنا هذا الكتاب الذى يعتبر بمثابة مدخل ملىء بالتعاريف والمفهومات الأساسية نجده يقدم فى عام ١٩٦١ على نشر كتابه الهام الأول المعنون « الجنون والاختلال : تاريخ الجنون» Folie et Déraison : Histoire de la Folie à l'Âge Classique (ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية

عـام ١٩٦٧ تحت عنوان «الجنون والحـضـارة» Madness and Civilization) وهوعبارة عن دراسـة لتاريخ المرض العقلى واستعراض وتصنيف للجنون فى القرن السابع عشر وطرق علاجه . ولكن الأهم من ذلك أنه صاغ فى هذا الكتاب مفهوم «القوة» بطريقة سالبة على أنها شىء يعمل على نحو يقيم التقسيمات ومختلف صور الابعاد والإقصاء exclusion فتبدو «القوة» هنا باعتبارها ما يفرق ويفاضل، وهذه المفارقة تعمل فى الجنون الذى كان العصر الكلاسيكى يعرفه بأنه اللاعقل أو الإقصاء السالب للعقل، كما تعمل هذه المفارقة أيضاً بشكل واقعى خلال بناء وعمليات المؤسسات المختلفة مثل مؤسسات وبيوت «الحجز» التى عرفها القرن الثامن عشر لعزل المصابين بالجنون بعيداً عن المجتمع .

غير أن هذا المفهوم السلبى للقوة تغير تماماً فى الأعمال المتأخرة لفوكو التى قدمت مفهوماً جديداً يفرض الرؤية أو القول أو الفعل بشكل سافر ولامتناه . ففى كتابه « التهذيب والعقاب : مولد السجن » Surveiller et Punir : Naissance de la Prison الذى نشر عام ١٩٧٥ نجده يقدم دراسته لتاريخ نظم السجون والكيفية التى ولدت بها فكرة السجن، ونظم العقوبة التى يفرضها القانون فرضاً على المجرمين وشاع الأخذ بها منذ أوائل القرن التاسع عشر .

ولا تختلف الفكرة فى جوهرها أو روحها عما نجده اليوم فى المدارس والمصانع والمستشفيات من حيث إنها جميعاً تتبع أساليب معينة وإجراءات بذاتها تفرض على التلاميذ أو العاملين أو المرضى لتحقيق غاياتها وأهدافها ولكنها أساليب وإجراءات لا تخلو من القهر والارغام .

بعد ذلك قدم فوكو كتابه « تاريخ الجنس» Histoire de la sexualité وهو مشروع ضخم فى ثلاثة أجزاء ظهر أولها عام ١٩٧٦ وثانيها عام ١٩٧٨ حيث مضى يستقصى تاريخ الاتجاهات الغربية حيال الجنس ونظرتها إليه وكيفية تعاملها معه منذ الإغريق القدماء وإلى العصر الحاضر .

وتكشف النظرة الفاحصة لكل هذه المؤلفات عن أمرين يمكن ملاحظتهما : الأول أنها تتسم بنوع من الانتقائية الوصفية حيث يبدو أن تحليل فوكو إنما ينصب

دائماً على العلاقات التى تقوم بين العناصر المتغايرة فى مختلف المجالات والميادين سواء مجال المعرفة أو الاقتصاد أو القانون أو العلاقات والترتيبات الاجتماعية ذاتها، أو حتى ماتعلق منها بالوجود الشخصى نفسه. على نحو ما نجد بصفة خاصة فى كتابه الذى نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان «آركيولوجيا المعرفة L' Archéologie du Savoir الذى يعتبر دراسة نظرية سعت إلى تصنيف وترتيب وتحليل الدراسات والمعارف الجوهرية السابقة، وذلك بإعادة صياغة الظروف التى وجدت فيها العلاقات اللازمة الضرورية ما بين تلك العناصر اللامتجانسة، ليرى مدى ما وصلت إليه المعارف والدراسات الحديثة لنظم العقوبة مثلاً من إسباغ المعقولية والتجانس على ما يوجد فيها من تغايرات واختلافات .

أما الأمر الثانى الذى يمكن ملاحظته أيضاً فيتمثل فى «الغرابة» التى تتصف بها الموضوعات ذاتها التى يتخيرها فوكو لكتاباته، وهى غرابة تمتد حتى إلى العناوين ذاتها التى تصدر بها هذه الكتابات، حيث يبدو واضحاً أن المشكلة الأساسية عنده هى مشكلة القوة والحرية الفردية وأشكال القهر على المستوى الفردى والمستوى الاجتماعى معا.

ومع أن البعض لا يرتاح تماماً إلى كتابات فوكو ويراها نتاجا لعقلية «ملتوية ومراوغة» ويصفها بأنها ليست كتابات علمية بالمعنى الإصطلاحى الدقيق وأن اختياره لموضوعاته بهذه العناوين والمضامين الغريبة ليست إلا من قبيل الإثارة والرغبة فى شد الأنظار، فإن ما لا شك فيه هو أن هذه النظرة فيها كثير من التجنى لأنها تتجاهل المضمون الحقيقى الذى سعت إلى إبرازه، وهو أنه عن طريق تحليل ظاهرة القوة ومعرفة أشكالها وطبيعتها والديناميات التى فيها فإن هذه المعرفة ذاتها يمكن أن تكون بداية الطريق للتحرر من آثارها السلبية إن لم يكن ترشيد استخداماتها بما لا يهدد الحرية ويقلل من صور القهر ومظاهره سواء كان القهر من الأفراد أو من الجماعة أو من المجتمع ككل أو من الدولة التى تمثل قمة القهر وذروته. وتلك فى الحقيقة هى الرسالة التى سعى فوكو إلى أن يقولها وإلى أن يوصلها بالرغم من غرابة أدواته التى استعملها ووظفها لذلك.

• قراءات مقترحة •

- **Works** : Les Mots et les Chose (1966).

----------. L'Ordre du Discours (1972).

---------. Moi, Pierre Riviers (1973).

---------, Language, Counter Memory and Practice (1977).

• وانظر أيضا:

- Donzelet, J : La Police des Familles, 1977.

- Gordon, C.: "Other Inquisitions", in Ideology and Consciousness (Autumn) 1979.

- Williams, K.; Pauperism to Poverty. 1980.

* * *

٦٣ - فرانكفرت، هنرى

63 - FRANKFERT, Hneri

يعد عالم الاجتماع والآثار الأمريكى هنرى فرانكفرت من أهم العلماء الذين كانت لجهودهم الرائدة فضل استكمال بعض الملفات والوثائق والأثريات الموثقة عن حضارة بلاد ما بين الرافدين (ميسوبوتاميا Mesopotamia) وثقافتها وفنونها، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى ملء الثغرات الموجودة فى العلاقات بينها وبين حضارة مصر القديمة، وكانت له نتائجه فى إعطاء صورة أكثر تكاملاً عن هاتين الحضارتين والروابط المختلفة التى قامت بينهما .

ومن حيث الأصل فقد ولد فرانكفرت فى أمستردام عام ١٨٩٧ وإن كان قد نال بعد ذلك الجنسية الأمريكية حيث تلقى تعليمه فى جامعة شيكاغو على وجه الخصوص . ولقد كانت دراساته فى المرحلة الجامعية فى التاريخ واللغة المصرية وعلم آثار ما قبل التاريخ، وهى دراسات يمكن القول بأنها كانت متوازية مع جهوده البحثية وتنقيباته التى بدأت فى فترة مبكرة، إذ قام بالتنقيب فى مصر وبخاصة فى إقليم أبيدوس Abydos وتل العمارنة Tell el Amarna وأرمنت (١٩٢٢) ثم سافر بعدها مرتين إلى البلقان والشرق الأوسط، وكانت المرة الأولى فى نهاية عام ١٩٢٢ ثم بعد ذلك فى عام ١٩٢٥/٢٤، ولكن ليعود مرة ثانية إلى مصر حيث استمرت بحوثه وتنقيباته من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٩ . وبعد ذلك تولى الإشراف على بعثة معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو إلى العراق والتى استغرقت الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٧ .

ولقد أسفرت هذه الرحلات والتنقلات الدائمة عن بعض الأعمال الهامة فى مقدمتها دراسات عن الفخاريات القديمة فى مناطق الشرق الأدنى Studies in Early

Pottery of the Near East . الذى ظهر فى جزءين (١٩٢٤ – ١٩٢٧) . وكذلك «الأختام الأسطوانية: مقالة موثقة عن فن وديانة الشرق الأدنى القديم Cylinder Seals : A Documentary Essay on the Art and Religion of the Ancient Near East (١٩٣٩)، وإن كان قد ظهرت له بعد ذلك بعض الأعمال الأخرى من بينها «الملكية والآلهة: دراسة فى ديانات الشرق الأدنى القديمة كعامل للتكامل بين الطبيعة والمجتمع» Kingship and the gods: A Study of Ancient Near Eastern Religions as the Integration of Soiety and Nature (١٩٤٨) وكذلك فى العام نفسه «العقيدة المصرية القديمة: تفسير » Ancient Egyptian Religion as Interpretation ثم آخر أعماله التى ظهرت قبل وفاته مباشرة «فن وعمارة الشرق القديم» The Art and Architecture of the Ancient Orient (١٩٥٤) وهى كتابات مازالت تعتبر رغم قدمها النسبى من أهم المراجع التى تلقى بالضوء على الجوانب المختلفة لتلك الحضارات التى تناولتها .

● قراءات مقترحة ●

-**Works** :The City of Akhenaten. 1934.

- Sculpture of the Third Millennium B.C. from Tell Asmar and Khafajah. 1949.

● وأنظر أيضاً :

- Cottrell, L.; The Mountains of Pharoah. 1959.

- LLoyd, S.H.F.; Twin Rivers. 1976.

* * *

٦٤ - فريزر، سير جيمس جورج

64 - FRAZER, Sir James George

يمثل السير جيمس جورج فريزر علامة بارزة فى تاريخ الأنثربولوجيا لدرجة أن البعض يعتبره ممثلاً لحقبة من أهم الحقب التى تطورت فيها الدراسات الأنثربولوجية، والتى تركت تأثيراتها فى عشرات الطلاب والباحثين الذين ارتبطوا باتجاهه وباهتماماته الواسعة بالتراث الانسانى. كما يعتبره البعض الآخر خاتمة العلماء الأنثربولوجيين الكلاسيكيين الكبار الذين اشتهروا بكتاباتهم فى فولكلور الشعوب والدين المقارن .

ولقد ولد السير جيمس فريز فى أول يناير عام ١٨٥٤ فى جلاسجو Glasgow باسكوتلندة وقضى مراحل تعليمه الأولى فى إحدى أكاديميات هيلنسبرج Helensburg فى دمبارتون Dumbarton، ليلتحق بعدها فى عام ١٨٦٩ بجامعة جلاسجو، ثم بعد ذلك دخل ترينتى كوليج Trinity College بكيمبردج Cambridge عام ١٨٧٤ ليصبح زميلاً عام ١٨٧٩. وبعذ لك عين عام ١٩٠٧ أستاذاً للأنثربولوجيا الاجتماعية بجامعة ليفربول Liverpool ولكنه سرعان ما عاد ثانية إلى كيمبردج بعد فصل دراسى واحد وبقى فى كمبريدج التى ارتبط بها اسمه حتى وفاته فى السابع من شهر مايو عام ١٩٤١ .

ويتسم فكر فريزر منذ البدايات الأولى لتكوينه العلمى بالموسوعية والاتساع والشمول . فقد درس الطبيعة والأحياء وأتقن اللغات الكلاسيكية والقديمة فكان يقرأ اليونانية واللاتينية والآرمية ويكتب بها، بالإضافة إلى دراسته للتاريخ والفنون والآداب حتى أنه قرض الشعر فى أكثر من مرحلة من مراحل حياته . ولهذا فلا يبدو غريباً أن يترك أثرا باقياً فى أجيال من المفكرين وفلاسفة التاريخ وعلماء

السياسة والاجتماع، وحتى الأدباء والشعراء على الأقل من حيث ماتثيرقراءاته فيهم من خيال ومشاعر وأفكار وأحاسيس .

وبالرغم من الانتاج العلمى الضخم الذى خلفه فريزر والذى يقدر بآلاف الصفحات، فإن شهرته ارتبطت أساساً بمؤلفه الكلاسيكى الشهير «الغصن الذهبي» الذى ظهر لأول مرة عام ١٨٩٠ تحت عنوان «الغصن الذهبى : دراسة فى السحر والدين» The Golden Bough: A Study in Magic and Religion وهو عمل ضخم فى اثنى عشر مجلداً صدرت طبعته الجديدة فيما بين ١٩٠٧، ١٩١٥، ثم قام هو نفسه بتلخيصه فى جزء واحد ظهر عام ١٩٢٢. أما أعماله الأخرى فمن الصعب حصرها فى هذا النطاق لأن مجرد ذكرها قد يستغرق بضع صفحات ولهذا نكتفى بالاشارة إلى ما يعتبر أهمها؟ حيث ظهر كتابه «التوتمية والأكسوجامية» Totemism and Exogamy عام ١٩١٠ و« الفلكلور فى العهد القديم » Folklore in The Old Testment فى ١٩١٨ . وقد تناول فريزر فى الكتاب الأول أصل التوتمية وارتباطها بفكرة التابو Taboo وبالتالى أفكار القداسة والتحريمات والقواعد الخاصة بكل هذه النواحى لينتهى إلى تأكيد أن التوتمية ظاهرة نصف دينية كما أنها ظاهرة نصف اجتماعية، وإن كان الملاحظ مع ذلك أنه لم ينته فى هذه الدراسة إلى صياغة نهائية متكاملة . أما كتابه «الفلكلور فى العهد القديم » وهو بدوره عمل ضخم فقد جاء فى ثلاثة أجزاء قسمها إلى أربعة أبواب تناول فيها عصور الحياة الأولى وعصر الآباء والشيوخ وعصر الملوك وعصر القضاة والملوك، وذلك من خلال تفسيره لبعض أساطير الشعب العبرى ومناقشة بعض معتقداته وأنماط سلوكه فى المراحل المختلفة لتاريخهم القديم.

ولأنه عاش فى القرن التاسع عشر الذى سيطرت عليه الأفكار والاتجاهات التطورية فقد كان طبيعياً أن يكون فريزر من أنصار هذه الاتجاهات إن لم يكن، كما يرى البعض، على رأس المدرسة التطورية التى سعت إلى دراسة المجتمع البدائى والإنسان البدائى، وإن كان قد استخدم فى دراساته المنهج المقارن الذى يعتمدعلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من أنحاء مختلفة من العالم، وهى معلومات كان

يستقيها بالدرجة الأولى من قراءاته الواسعة ومن كتابات الرحالة والمبشرين دون الاعتماد أو القيام بأية دراسة حقلية مما جعله يلجأ دائماً إلى الظن والتخمين .

والمقولة الأساسية فى كتاب الغصن الذهبى التى دار الكتاب بأكمله من حولها كانت نظريته عن التطور العام لأنماط التفكير، ونظراً لأنه كان يرى أن أية محاولة لفهم نتاج الحضارات الإنسانية، لابد أن تبدأ من العناصر البسيطة إلى العناصر الأكثر تشابكاً وتعقيداً، وذلك نزولاً على الفهم العام للاتجاه التطوري، فقد وجد أنه لابد من التركيز على بحث حياة الإنسان البدائى والعمل على فهم سلوكه، ومن هنا أخذت تتضح معالم نظريته فى التطور التى تقول بأن تفكير الإنسان مر أولاً بالمرحلة السحرية Magical إلى المرحلة الدينية Religious ثم المرحلة الأخيرة وهى المرحلة العلمية Scientific .

وبالرغم من أن هذا الطابع التطورى للتفكير لم يعد مقبولاً اليوم بوجه عام، إلا أن ذلك مكنه من إقامة نظرية خاصة عن السحر والدين، وعن صلة كل منهما بالمنطق وبالعلم وهى نظرية أثارت الكثير من الجدل والنقاش اللذين ما زالت أصداءهما تتردد إلى اليوم، وبخاصة فيما يتعلق بما ذهب إليه من أسبقية السحر على الدين، وأن المجتمعات الإنسانية قد مرت بمرحلة لم تكن تعرف فيها سوى السحر، ثم نشأت الأفكار الدينية بعد ذلك عندما عجز الإنسان بوسائله السحرية عن تحقيق أغراضه.

ويقصد فريزر بالسحر محاولة الإنسان التحكم فى الطبيعة والسيطرة عليها عن طريق ممارسة بعض الأفعال والطقوس للتأثير فى مظاهر الأشياء. وكان ذلك بمثابة مدخل لتمييزه بين السحر التشابهى والسحر التواصلى على أساس قاعدتين أساسيتين هما أن الشبيه ينتج الشبيه وأن معلولا ما يشبه علته. بينما الدين محاولة للاستعانة بالقوى الروحية والكائنات الفائقة للطبيعة مما يعنى أن الإنسان قد انتقل من مرحلة التأثير على القوى الطبيعية بشكل مباشر عن طريق الوسائل السحرية إلى التأثير فيها بشكل غير مباشر عن طريق موجودات أعلى وأسمى وقوى خارقة غير ملموسة.

وبصرف النظر عن الانتقادات العنيفة التى وجهها العلماء لنظرية فريزر فى السحر والدين وفى مقدمتهم مارسيل موس Mauss وماريت Marett وجورج جيرفيتش Gurvitch وكلهم أجمعوا على رفض موقف فريزر القائل بأسبقية السحر على الدين، بالإضافة إلى انتقادهم للخلط الذى يسم كتاباته بين الظواهر الدينية والظواهر العلمية، وبالتالى عدم التفرقة بشكل واضح بين ما هو سحر وما هو علم فى ضوء معايير محددة ومعقولة، إلا أنه يصعب إنكار أن تناول فريزر لهذا الموضوع قد مكنه من إقامة مركب استطاع أن يعقد من خلاله الكثير من المقارنات بين المادة الهائلة التى توافرت لديه عن الممارسات الدينية والسحرية، ربما بشكل لم يتحقق لأى عالم انثربولوجى آخر. بالإضافة إلى أنه فتح بذلك الباب واسعا أمام أجيال من الأنثربولوجيين وعلماء الاجتماع للكتابة فى موضوع أصبح من أمتع الموضوعات وفى الوقت نفسه من أكثرها تشابكا وتعقيدا.

وأيا ما كان الأمر فقد نجح كتاب «الغصن الذهبى» فى لفت الأنظار إلى المركب من الكهنوتية إلى المقدس وربط المقدس بالأرض على ما يظهر فى نظام الملكية المقدسة أو الإلهية Divine Kingship الذى كان محور كتابه فى ضوء ما استقاه من معلومات من القارة الأفريقية وغيرها، وأيضا ملاحظته لسيطرة الطقوس السحرية على عقائد البدائيين وعلى مختلف مظاهر الفولكلور السائدة فى المجتمعات البدائية، ذلك فى الوقت الذى مهدت أفكاره لقيام العديد من الدراسات التى هدفت إلى التحقق من صدق فرضياته التى كان يضعها مسبقا. وأيضا ما انتهى إليه من نتائج فى ضوء المعلومات الاثنوجرافية الميدانية بدلا من الاعتماد كلية على ما يتناقله الكتاب أو رجال الإدارة والبعثات التبشيرية من معارف ومعلومات تترك مجالا فسيحا للوقوع فى أخطاء الظن والتخمين. مادام هو لايردها إلى ما يفسرها فى ضوء سياقاتها الاجتماعية والوقائع الاجتماعية الكلية. وهذا فيما يرى البعض هو ما يمثل أخطر ما وجه إلى كتابات السير جميس فريزر من انتقادات.



• **قراءات مقترحة:**

- Downie, Robert Angus; James George Frazer. 1940.

------------; Frazer and The Golden Bough. 1970.

- Geertz, C.; Myth, Symbol and Culture. (ed.) 1974.

- Malinowski, B.; A Scientific Theory of Culture, and Other Essays. 1969.

* * *

٦٥ - فرازيير، إدوارد فرانكلين

65 - FRAZIER, Edward Franklin

بأكثر من معيار يعتبر مؤرخو الفكر الاجتماعى عالم الاجتماع الأمريكى إدوارد فرانكلين فرازيير أشهر من كتب عن تاريخ الزنوج والعائلة السوداء حتى الآن. فقد نجحت أعماله وكتاباته عن السود والبرجوازية السوداء ووضعيات السود عموما فى مختلف المجالات والإدارات والمواقع فى إلقاء الكثير من الأضواء على طبيعة المشكلات التى يعيشونها فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى مازالت معظمها تبحث عن حلول لها.

ولقد ولد فرازيير لأبوين زنجيين فى بلتيمور Baltimore عام ١٨٩٤. وحصل على درجته العلمية الأولى من جامعة هوارد Howard عام ١٩١٦ وعلى درجة الماجستير فى علم الاجتماع من جامعة كلارك Clark عام ١٩٢٠. وكانت دراساته فى مرحلة الليسانس عن السود سببا فى حصوله على منحة دراسية من مدرسة نيويورك للخدمة الاجتماعية New York School of Social Work فى الفترة من عام ٢٠ إلى ١٩٢١، وهى منحة تبعتها منحة أخرى من إحدى المؤسسات الإسكندنافية الأمريكية إلى الدينمرك ليدرس نظم التعليم والحركة التعاونية Cooperative Movement وقد استغرقت هذه المنحة بدورها العامين ٢١ و ١٩٢٢.

وتعتبر السنوات من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ نقطة تحول ملموس فى حياة فرازيير ذلك أنه خلال هذه الفترة اضطلع أثناء قيامه بتدريس علم الاجتماع بكلية مورهاوس Morehouse (أتلانتا) بمسئولية إدارة مدرسة جامعة أتلانتا للخدمة الاجتماعية، حيث ركز جهوده فى الدعوة لقبول التحاق السود بالمدرسة. ومع أن جهوده قد كتب لها النجاح بعد ذلك بسنوات، إلا أنه اضطر إلى مغادرة أتلانتا

بسبب إقدامه على نشر مؤلفه «باثولوجيا التمييز والحقد العنصرى» The Pathology of Race Prejudice عام ١٩٢٧ فى مجلة فورم Forum. وإن كان هذا العام قد شهد - من ناحية أخرى - جانبا من حظه السعيد عندما حصل على منحة أخرى جديدة من جامعة شيكاغو حيث نال درجة الدكتوراه عن رسالته عن العائلة السوداء فى شيكاغو The Negro Family in Chicago. وهى الرسالة التى أقدم على نشرها عام ١٩٣٢ وكانت سببا فى أن أخذت الجامعة تنتبه إلى أعماله التى تهتم اهتماما خاصا بتناول العائلة السوداء ودراسة ظروفها، فقدمت له من ثم منحة جديدة من مجلس البحوث فى العلوم الاجتماعية كى يقوم بدراسة شاملة عن العائلة السوداء فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد أسفرت هذه المنحة عن واحد من أهم مؤلفاته. ففى أثناء عمله أستاذا بجامعة فيسك Fisk فى الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٤، ثم بعد ذلك وهو يعمل أستاذا ورئيسا لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو بداية من ١٩٣٤ نجده ينكب على تأليف كتابه «العائلة السوداء فى الولايات المتحدة الأمريكية» The Negro Family in The United States of America وهو الكتاب الذى نشر فى ١٩٣٩ ويعتبره الكثيرون أهم كتاب عن تاريخ وسوسيولوجية العائلة السوداء ظهر حتى السبعينات من القرن. ولا يرجع ذلك إلى مجرد أنه يكشف عن السمات والخصائص المميزة لهذه العائلة بطريقة وصفية بالغة الدقة وبلغة فى غاية الوضوح، ولكن لأن استعراض العائلة السوداء يعطينا فكرة عن تاريخ السود فى أمريكا عموما وطبيعة الظروف القاسية التى عاشوها وصنوف الضغوط والمعاملة السيئة التى تعرضوا لها منذ أن أخذت فى (استجلابهم) من مواطنهم الأصلية.

فى عام ١٩٤٠ ظهر كتابه الهام الثالث وهو «شباب النجرو فى مفترق الطرق» Negro Youth in the Cross Way حيث ظهرت فى هذا الكتاب ملامح منهجه الخاص فى البحث الاجتماعى الذى اعتمد فيه على المنهج الإحصائى الذى يزاوج بينه وبين الملاحظة الدقيقة إن لم يكن المعايشة أيضا كمنهج الأنثربولوجيين وطريقتهم.

بعد ذلك أصبح فرازيير رئيسا لإدارة العلوم الاجتماعية التطبيقية فى

اليونسكو UNESCO وذلك فى الفترة من ٥١ إلى ٥٣ وهى فترة وضح خلالها مدى اهتمامه بمشكلات التوتر والتغير الاجتماعيين، وجدوى المشروعات التى تستهدف التقليل من حدة آثارهما السلبية والسيئة. وفى هذا الاتجاه نجده يدرس الطرق التى يمكن أن تؤدى إلى مزيد من الفهم المتبادل بين الثقافات والأجناس والشعوب، وهو هدف مثل الاطار العام لمحاضراته التى أخذ يلقيها فى جامعة لندن والتى اتسمت بالممازجة بين هذا الاتجاه التطبيقى والنظرية الاجتماعية الأمر الذى أسفر عن تأليفه لكتاب «البناء النظرى لعلم الاجتماع والبحث الاجتماعى» Theoritical Structure of Sociology and Sociological Research الذى ظهر عام ١٩٥٣.

ومن الطريف أنه فى هذا العام (١٩٥٣) تكللت جهود فرازيير بالنجاح حيث أخذت مؤسسة فورد Ford Foundation على عاتقها إنشاء قسم للدراسات الأفريقية فى هوارد Howard، وهو ما ساعده على أن يفرغ من تأليف كتابه الهام «الروابط الثقافية والعنصرية فى العالم الحديث» Race and Cultural Contacts in Modern World الذى ظهر عام ١٩٥٧. ولذا فليس غريبا أبدا أن تنتخبه الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع The American Sociological Society رئيسا لها، وأن تمنحه جائزة ماكيفر MacIver تقديرا له وعرفانا.

● قراءات مقترحة ●

Works :Black Bourgeoisie. 1957.

● وانظر أيضا:

- Odum. Howard W., American Sociology: The Story of Sociology in The United States Through 1950. 1958.

* * *

اليونسكو UNESCO وذلك فى الفترة من ٥١ إلى ٥٣ وهى فترة وضح خلالها مدى اهتمامه بمشكلات التوتر والتغير الاجتماعيين، وجدوى المشروعات التى تستهدف التقليل من حدة آثارهما السلبية والسيئة. وفى هذا الاتجاه نجده يدرس الطرق التى يمكن أن تؤدى إلى مزيد من الفهم المتبادل بين الثقافات والأجناس والشعوب، وهو هدف مثل الاطار العام لمحاضراته التى أخذ يلقيها فى جامعة لندن والتى اتسمت بالممازجة بين هذا الاتجاه التطبيقى والنظرية الاجتماعية الأمر الذى أسفر عن تأليفه لكتاب «البناء النظرى لعلم الاجتماع والبحث الاجتماعى» Theoritical Structure of Sociology and Sociological Research الذى ظهر عام ١٩٥٣.

ومن الطريف أنه فى هذا العام (١٩٥٣) تكللت جهود فرازيير بالنجاح حيث أخذت مؤسسة فورد Ford Foundation على عاتقها إنشاء قسم للدراسات الأفريقية فى هوارد Howard، وهو ما ساعده على أن يفرغ من تأليف كتابه الهام «الروابط الثقافية والعنصرية فى العالم الحديث» Race and Cultural Contacts in Modern World الذى ظهر عام ١٩٥٧. ولذا فليس غريبا أبدا أن تنتخبة الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع The American Sociological Society رئيسا لها، وأن تمنحه جائزة ماكيفر MacIver تقديرا له وعرفانا.

● قراءات مقترحة ●

Works :Black Bourgeoisie. 1957.

● وانظر أيضا:

- Odum, Howard W., American Sociology: The Story of Sociology in The United States Through 1950. 1958.

* * *

٦٦ - فروم، إيريك

66 - FROMM, Erich

على مدى حياته الطويلة كان إيريك فروم كاتبا منتجا. كما ظل تدريبه الأساسى ودراسته المبكرة فى الاجتماع وعلم النفس يمارسان تأثيرا قويا على كتاباته، فهو فيلسوف اجتماعى وواحد من علماء النفس التحليليين الذين ارتادوا قضايا ومشكلات التفاعل بين المجتمع وعلم النفس، وسعوا إلى الربط بين أفكار كارل ماركس وسيجموند فرويد، ويدعو إلى أن أفكار التحليل النفسى ومبادئه من الممكن تطبيقها فى دراسة الأفراد والمجتمعات كما أنه يمكن الإفادة من أفكار ماركس ومن آراء فرويد دون أن يتبع الباحث أيا منهما بالضرورة.

ولقد ولد إيريك فروم فى فرانكفورت Frankfurt فى الثالث والعشرين من شهر مارس عام ١٩٠٠. ودرس علم النفس وعلم الاجتماع فى جامعات فرانكفورت وميونيخ Munich وهيدلبرج Heidelbery، وبعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة هيدلبرج عام ١٩٢٢ أخذ برنامجا تدريبيا مكثفا فى التحليل النفسى Psychoanalysis فى معهد برلين للتحليل النفسى. وبدأ بالفعل يعمل فى هذا المجال كواحد من تلامذة سيجموند فرويد، وإن كان سرعان ما اتخذ موقفا معارضا من آراء الأستاذ فيما يتعلق بنظريته فى الدوافع اللاشعورية واللاوعى، وهى النظرية التى لا تعتبر كثيرا أهمية العوامل الاجتماعية فى النفس البشرية. فالشخصية الفردية بالنسبة إلى فروم هى نتاج لثقافته مثلما هى نتاج لتكوينه البيولوجى.

فى عام ١٩٣٣ ترك فروم ألمانيا النازية إلى الولايات المتحدة الأمريكية متسلحا بسمعته فى التحليل النفسى، حيث التحق فى بادئ الأمر بمعهد شيكاغو للتحليل النفسى Chicago Psychoanalytic ولكن ليتحرك بعد ذلك إلى نيويورك حيث

٦٦ - فروم، إيريك

66 - FROMM, Erich

على مدى حياته الطويلة كان إيريك فروم كاتبا منتجا. كما ظل تدريبه الأساسى ودراسته المبكرة فى الاجتماع وعلم النفس يمارسان تأثيرا قويا على كتاباته، فهو فيلسوف اجتماعى وواحد من علماء النفس التحليليين الذين ارتادوا قضايا ومشكلات التفاعل بين المجتمع وعلم النفس، وسعوا إلى الربط بين أفكار كارل ماركس وسيجموند فرويد، ويدعو إلى أن أفكار التحليل النفسى ومبادئه من الممكن تطبيقها فى دراسة الأفراد والمجتمعات كما أنه يمكن الإفادة من أفكار ماركس ومن آراء فرويد دون أن يتبع الباحث أيا منهما بالضرورة.

ولقد ولد إيريك فروم فى فرانكفورت Frankfurt فى الثالث والعشرين من شهر مارس عام ١٩٠٠. ودرس علم النفس وعلم الاجتماع فى جامعات فرانكفورت وميونيخ Munich وهيدلبرج Heidelbery، وبعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة هيدلبرج عام ١٩٢٢ أخذ برنامجا تدريبيا مكثفا فى التحليل النفسى Psychoanalysis فى معهد برلين للتحليل النفسى. وبدأ بالفعل يعمل فى هذا المجال كواحد من تلامذة سيجموند فرويد، وإن كان سرعان ما اتخذ موقفا معارضا من آراء الأستاذ فيما يتعلق بنظريته فى الدوافع اللاشعورية واللاوعى، وهى النظرية التى لا تعتبر كثيرا أهمية العوامل الاجتماعية فى النفس البشرية. فالشخصية الفردية بالنسبة إلى فروم هى نتاج لثقافته مثلما هى نتاج لتكوينه البيولوجى.

فى عام ١٩٣٣ ترك فروم ألمانيا النازية إلى الولايات المتحدة الأمريكية متسلحا بسمعته فى التحليل النفسى، حيث التحق فى بادئ الأمر بمعهد شيكاغو للتحليل النفسى Chicago Psychoanalytic ولكن ليتحرك بعد ذلك إلى نيويورك حيث

بدأ يعانى من سلسلة من الصراعات والإحباطات من جراء ما كان يشعره من سيطرة النزعة البيروقراطية والاتجاهات التقليدية التى تسود حركة التحليل النفسى فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى تتمسك بحرفية فرويد، فأقدم فى عام ١٩٤٢ على تأسيس معهد وليام ألينسون وايت للطب النفسى William Alanson White Institute of Psychiatry وذلك بالاشتراك مع كلارا تومبسون Thompson وهارى ستاك سوليفان Sullivan بعدما أصبحت مواقفه ووجهات نظره منذ أن التحق بجامعة كولمبيا وعلى مدى الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٤١ مثار مناقشات حادة وخلافات مستمرة، وهو يسعى إلى إبراز الروابط بين فكر كارل ماركس وسيجموند فرويد وإبراز أهمية العوامل الاجتماعية دون التركيز فقط على النزعات والغرائز، وإن لم يكن معنى هذا إنكاره لأهميتها. وأيضا بسبب مواقفه التى كان يعلن عنها من الشيوعية والرأسمالية ورفضه للمذهبين معا لأنهما يحيلان الإنسان إلى تروس وآلات.

والحقيقة أن إيريك فروم كان على مدى حياته العملية كاتبا لا يتعب أو يتوقف عن الكتابة التى كان يبدو فيها بوضوح أثر تدريبه الاجتماعى المبكر. وبالرغم من أنه أصبح عضوا بمجلس إدارة مكتبة بنينجتون Bennington فى فيرمونت Vermont عام ١٩٤١، فإن نشر كتابه «الهروب من الحرية» Escape From Freedom فى ذلك العام جعل اسمه معروفا على نطاق واسع لقراء الإنجليزية.

فى هذا الكتاب الذى اشتهر فى بريطانيا باسم «الخوف من الحرية» The Fear of Freedom والذى يرى الكثيرون أنه أول أعماله الهامة، استعرض فروم المظاهر التى تطورت فيها الحرية منذ العصور الوسطى إلى العصر الحديث، كما استخدم أساليب التحليل النفسى وتكنيكاته لتحليل وفهم ميل الإنسان المعاصر إلى الهرب من كل مظاهر الحياة الحديثة التى أصبحت تثقل كاهله إلى الدرجة التى تهدد شعوره بالأمن والاستقرار. ويرى فروم أنه بسبب هذا الإحساس ينخرط الإنسان فى الحركات الشمولية ويلجأ إلى العنف كوسيلة للتعبير عن ذاته ولتأكيد وجوده فى مواجهة إحساسه بالتيه والضياع كما نرى فى الحركات النازية والفاشية عموما

وهو ما عاد إلى تأكيده مرة ثانية فى كتاباته اللاحقة، وبخاصة كتابه «الإنسان لنفسه» Man For Himself (١٩٤٨)، و«علم النفس التحليلى والدين» Psychoanalysis and Religion (١٩٥١)، حيث مضى يؤكد فى هذين الكتابين على أن التاريخ الإنسانى عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الصراع والنضال، لأن كل خطوة نحو تحقيق فردية وحرية الفرد كانت تهدد دائما أمن وحرية الآخرين. وبذا يمكن القول بأن هذه الكتابات إنما هى دراسة للشخصية الاجتماعية وهو مصطلح عام قصد به فروم البناء الشائع لشخصية أفراد الجماعات الاجتماعية والطبقة الاجتماعية كذلك، أو هى بتعبير آخر جهد لتحرير الشخصية من أوهام «الهو» Id واللاشعور Uncosciousness.

فى عام ١٩٥١ أيضا عين إيريك فروم أستاذا للتحليل النفسى بجامعة أوتونوموس القومية بالمكسيك، ثم بعد ذلك أستاذا بجامعة ولاية ميتشجان Michigan State (٥٧ - ٦١) ولكن ليعود من جديد إلى جامعة نيويورك كأستاذ للطب النفسى Psychiatry.

ومع أنه نشر فى عام ١٩٥٢ كتابه «اللغة المنسية» The Forgotton Language الذى يعتبر ارتيادا للرمزية Symbolism فى الأحلام والأساطير والخرافات وحكايا الجنيات، فإن الشىء الهام هنا هو انتقاده الحاد لنظريات فرويد ويونج Jung فى الأحلام، واتهامه هذه النظريات بأنها أحادية الرؤية والتفسير، وهو يؤكد بذلك وجهة نظره الخاصة التى تذهب إلى أن اللغة الرمزية Symbolic Language هى اللغة الإنسانية العامة الوحيدة التى لم يكتشف الجنس البشرى أو يطور سواها.

ولقد توالت بعد ذلك كتابات فروم التى سعت إلى إعطاء صورة تعتبر من أكمل صور التحليل السيكولوجى للتفاعل الاجتماعى. ففى عام ١٩٥٥ صدر ربما أهم كتبه وأكثرها انتشارا بعد كتابه السابق «الهروب من الحرية» وهو كتاب «المجتمع العاقل» The Sane Society وأتبعه فى عام ١٩٥٦ بكتابه «فن الحب» The Art of Loving.

وإذا كان فروم قد قرر من قبل قضيته الأساسية بصدد اغتراب الإنسان فى المجتمع الحديث، فقد عاد فى «المجتمع العاقل» يؤكد على القضية ذاتها وعلى حقيقة أن الإنسان قد أصبح موجها توجها استهلاكيا وأنه لم يعد سيد نفسه أو

أنه مركز حركة العالم، ويثير فى ذلك مختلف القضايا التى تثقل على المجتمع الأمريكى وفى مقدمتها قضية الأخلاق الاجتماعية وقضية الانتماء وقضية العدالة والمساواة؛ ليخلص من ذلك كله إلى ضرورة تعميق مشاعر الانتماء إلى الجماعة وتقوية الروابط الاجتماعية مع الآخرين؛ ليتحقق بذلك قدر من التوازن بين الفرد والمجتمع وهى قضية لم تسلم على أية حال من انتقادات البعض ممن ذهبوا إلى أن الجماعة كثيرا ما تمارس على الفرد من الضغوط ما يذهب بحريته ويعصف بكيانه، وخصوصا عندما تصطدم الواجبات الاجتماعية بعواطف الفرد وبمشاعره الحقيقية. فالأغلب أن يضحى الفرد بهذه العواطف والمشاعر خشية رد فعل الجماعة مما يجعل الإنسان فى آخر الأمر كائنا سلبيا أبعد ما يكون عن المشاركة الحقيقية مادام خاضعا إلى هذا الحد لنظام لم يشارك أبدا فى صنعه.

إن نظرة فروم للمجتمع تتمثل فى أنه كيان يرتبط فيه الإنسان بغيره برابطة الحب ومشاعر المودة والتعاطف المتأصلة فى أعماقه أكثر من مجرد العيش فوق أرض واحدة. ولما كان يعتبر العوامل السيكولوجية قوى نشطة تعمل فى قلب العملية الاجتماعية فقد اختزل هذه العملية الاجتماعية فى مقولتين: الأولى الحاجة إلى مزيد من الحب وإلى مزيد من التفاعل مع الآخرين، والثانية الحاجة أيضا إلى قدر مناسب من الحرية والاستقلالية. ففى رأيه أن مثل هذه الحاجات لا تعتبر متأصلة فحسب فى العملية الاجتماعية ولكنها من ذات حرية الإنسان ووجوده الحقيقى، ومن ثم يصير من الواجب العمل على تعميق الفهم بضرورة مجتمع جديد يكون أكثر اكتمالا إذ يسمح لكل فرد أن يشبع احتياجاته الفردية فى إطار من تقديره لذاته وحبه للآخرين.

ولقد كانت كتابات إيريك فروم الذكية عن الطبيعة البشرية وعن الأخلاق والحب والحرية كافية لأن تجذب اهتمام علماء الاجتماع والنفس والأخلاق على السواء. وإذا كان قد انتهى إلى أن فهم الحاجات الإنسانية الأساسية مسألة ضرورية لفهم المجتمع وفهم الجنس البشرى نفسه، فيكون معنى ذلك أن المجتمع الصحيح هو إذن ذلك الذى يعطى للإنسان إحساسا بقيمته ومكانته.

ومع أنه كان يدرك تماما أن الأنساق والنظم الاجتماعية تجعل من الصعب أو حتى من المستحيل إرضاء الحاجات المختلفة وإشباعها فى وقت واحد وبقدر متساو مما يخلق التوترات والصراعات الفردية والاجتماعية معا، فلابد إذن من تعميق الفهم بدور العوامل الاجتماعية فى دعم الشخصية وتنميتها.

ولقد تبلورت جهوده العلمية طوال الستينات والسبعينات من حول هذه المهمة بالذات على ما يظهر من كتاباته التى تلاحقت خلال هذه الفترة حتى وفاته عام ١٩٨٠. ففى عام ١٩٦١ ظهر كتابه «ترى هل سيبقى الإنسان؟» May Man Prevail الذى قدمه بالاشتراك مع سوزوكى Suzuki ودو مارتينو De Martino . ومن بعده كتابه «وراء سلاسل الوهم» Beyond the Chains of Illusion فى ١٩٦٢، و«عطية المسيح ومقالات أخرى فى الدين وعلم النفس والثقافة» The Dogma of Christ and Other Essays in Religion, Psychology and Culture و«ثورة الأمل» The Revolution of Hope فى ١٩٦٨، و«أزمة التحليل النفسى» The Crisis of Psyhoanlysis عام ١٩٧٠، و«تشريح طاقة البشر التدميرية» The Anatomy of Human Destructivness فى ١٩٧٣، الذى كان بمثابة دراسة جادة مطولة للعوامل الاجتماعية والشخصية التى تؤدى إلى إبراز الظواهر السادية عموما من خلال تحليل الظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بشخصيات هتلر وهيملر Himmler وستالين Stalin. وأخيرا كتابه الذى أصدره قبل وفاته بعامين اثنين بعنوان «أن نملك أو أن نكون» To Have or to Be فى عام ١٩٧٨. وكما يؤكد مؤرخو الفكر الاجتماعى أن أهمية إيريك فروم كانت ذات شقين، أحدهما أنه كان من أوائل علماء التحليل النفسى الذين أوضحوا أن أفكار هذا الاتجاه من الممكن تطبيقها والاستفادة منها فى فهم المجتمع والإنسان معا. والثانى أنه على مدى حياته كلها كان واحدا من أكبر المشايعين للنزعة الإنسانية والمنادين بضرورة أن تعمق روابط الحب وأواصره. بل إنه لم يفقد أبدا إيمانه بأن الإنسان قادر على أن يخلق - بالرغم من كل شىء - مجتمعا يجد فيه إشباعا حقيقيا لاحتياجاته الإنسانية. مجتمع يتمركز حول الإنسان لا حول «الأشياء».

• قراءات مقترحة •

Works: Social Character in a Mexican Village. 1970.

• وانظر أيضا:

- Evans. Richard I., Dialogue With Erich: Fromm. 1960.
- Hausdorff, Don: Erich Fromm. 1972.
- Landis, Bernard. and Tauber, Edwards., eds., In the Name of Life : Essays in Honor of Erich Fromm.1979.

* * *

قائمة الأعلام والترتيب الرقمى **

(★ ★) للتسهيل على القارئ يلاحظ أن الأرقام بالبنط الأسود المعطاة للأعلام تشير إلى ترتيبها فى الكتاب وليس إلى صفحات الكتاب. وهى من هنا بمثابة رقم للمدخل فحسب.

كما تشير الحروف الكبيرة إلى الأعلام فى هذا الجزء الأول، بينما تشير العلامة (★) إلى الأعلام التى سيأتى ذكرها فى الأجزاء التالية. وفى كل الأحوال تكون الأسماء بالبنط الأسود الكبير، أما بقية الأسماء التى يجىء ذكرها فى داخل هذا الترتيب الرقمى فهى بالبنط العادى.

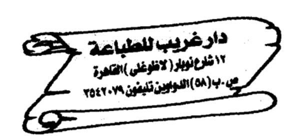
رقم المدخل

رقم المدخل

رقم المدخل

رقم المدخل

★ ★ ★


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٢٥٤٢٠٧٩

هذا الكتـــاب

يطوف بنا مؤرخاً ومحللاً لأعمال لامعة لعدد من أعلام الفكر الإجتماعي والأنثروبولوجي الغربي المعاصر ومحاولة لمناقشة أهم ما انطوت عليه كتاباتهم من مبادئ وأفكار ونظريات والكتاب هو الجزء الأول من عدة أجزاء ويحتوي على ستة وستين علماً من كبار المشهود لهم فى تخصصاتهم النوعية المختلفة كما يجىء فى وقت نعتقد أن المكتبة العربية فى أمس الحاجة إليه للوقوف على ما يجري في الغرب من تيارات فكرية وعلمية.

